السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

(قراءة جديدة)

محمد الصوياني

الجزء الأول

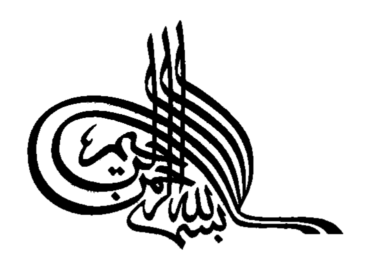
مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصوياني محمد
السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني
- الرياض، ١٤٢٤هـ
٢٨٦ص، ١٦,٥×٢٤سم
ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٩-٣٧٦-٤٠-٩٩٦٠ (ج١)
١- السيرة النبوية ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٢٤/٢٨٧٨

ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٨٧٨
٩-٣٧٦-٤٠-٩٩٦٠ (ج١)

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان
١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

الناشر
مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين..

والصلاة والسلام على نبينا محمد

وعلى آله وأصحابه أجمعين..

هذه القصة

قصة طفل طهور كالبرد.. ولد يتيماً.. واستمر اليتم يلاحقه ويلاحق طفولته في طرقات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفجعه بأهله وأحبابه..

ويكبر محمد ﷺ.. وتكبر غربته.. ويكتشف في دروب الحياة يتماً أكبر من يتمه.. وهمّاً أثقل من همّه.. فالأرض كلها يتم.. والبشرية تئن همّاً وحزناً يعصر قلبها..

الجزيرة العربية كانت غابةً من الأصنام.. وأوديةً تسيل دماء بريئة.. تسيل عادات بالية وتقاليد محيرة..

ماذا يفعل أمامها.. وماذا بيديه حيالها.. ماذا يفعل سوى الغربة مهرباً وملاذاً.. يناجي بها ربه ويعج إليه بالتوحيد والدعاء.. وفي غربته الشعورية تلك تهبط عليه الرسالة.. فيحمل الأمانة وينحدر بها نحو مكة.. نحو أمته فينطق بها بهجة وبشرى لهم.. وينتظر الإجابة.. وتأتي الإجابة على غير ما يتمنى ويحب.. تأتي الإجابة سياطاً وشتائم وتكذيباً له وهو الذي يلقب بالأمين.

فماذا فعل الأمين ﷺ مع هؤلاء؟

الإجابة كانت أكثر من خمسين عاماً من فنِّ التعامل مع الغير.. نقشها ﷺ في قلوب من حوله وقلوب غيرهم ممن دبَّ على هذه الأرض إلى قيام الساعة.

الإجابة سيرة لم تكن ماضياً أبداً.. بل شعلة توقد شموس الحياة.. ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال.

سيرته ﷺ في مكة هي واقع هذه الصحوة التي تهز أركان الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. ولا بد لهذه الصحوة من أن تشرب من النبع الذي شربت منه في مكة.. لا بد لها من أن تتقد بشعلتها الخالدة وإلا تحولـــت إلى رماد تذروها الرياح والأهواء.

أحاول في هذه السيرة - القصة أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في متناول الجميع خاصة من لا يبحثون عن التعقيـــد أو التفريع.. لذلك صغتها وربطت بين أحاديثها الصحيحة لتكون قصـــة لا روايات أحداث متفرقة فقط.

فالحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته إن كنت قد وفقت في ذلك..

وأرجوه الصفح والغفران إن كنت قد زللت..

جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقتلع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول لـــه: (احفر طيبة)[1]..

لم يمهله عبد المطلب..

لقد عاجله قائلاً: وما طيبة؟

ولم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولم يرد. وفي الغد.. رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عله يجد لذلك الحلم تفسيراً. وما إن غاص في سباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احفر بره)[2].

---

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

(يقول عبد المطلب: قلت: وما بره؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه.. فجاءني فقال:

احفر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تترف أبداً ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

فلما بيّن لعبد المطلب شأنها، ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا بِمِعْوَلِه ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس له يومئذ وليد غيره.. فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي[1] كبَّر[2]. فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته.. فقاموا إليه.

فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. فأشركنا معك فيها.

فقال عبد المطلب: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيتُه من بينكم.

فقالوا: أنْصفنا فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هذيم.

قال عبد المطلب: نعم.

---

(١) طي البئر وهو من الحجارة.

(٢) قال: الله أكبر.

وكانت -هذه الكاهنة- بأشراف الشام. فركب عبد المطلب، ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز[1]، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا عليهم.

وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً)[2]

لقد كان ذلك الرأي سقيماً، إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة والضيق الذي لا مبرر له إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك العرب، لقد أحس عبد المطلب بفساد ذلك الرأي فصاح في تلك الجثث الملقاة في اللُّحُود: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا؛ لَعَجْزٌ.. فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارْتَحِلُوا.

فارتحلوا، حتى إذا بعث[3] عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب

---

(١) سميت بذلك لأنها مهلكة.

(٢) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد، انظر ما بعده.

(٣) دفعها للنهوض.

وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قـــريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال.

فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمـــزم أبـــداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة[1] هو الذي سقاك زمـــزم، فـــارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم)[2].

رجع عبد المطلب بقسمة الله لا بقسمة الكاهنة وتمتماتها.. وأرجع الله بنبع الماء البارد الحياة إلى جثث التحفت بقبورها.. وقادهم ناقة عبد المطلب إلى مكة يحملون على عيسهم بعض الماء والتسليم بحـــق عبـــد المطلب وزعامته. إنه الآن يتولى سقاية زمزم.. بئر جده إسماعيل عليـــه السلام.

---

(١) الأرض التي لا ماء فيها.

(٢) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب، رواه لنا ابن إسحاق فقـــال: حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الله بن زرير، إنه سمع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال عبد المطلب بن هاشم: إني لنائم في الحجـــر، إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قلت: وما المضنونة... إلخ. انظر سيرة ابن كثيرة (١٦٧/١) ودلائل النبوة (٩٣/١). وإسناد ابن إسحاق قوي: يزيـــد بـــن أبي حبيب شيخ ابن إسحاق: ثقة فقيه من رجال الشيخين، انظر تقريب التهذيب (٣٦٣/٢). ومرثد بن عبد الله اليزني شيخ ليزيد، انظر التهذيب (٨٢/١٠) وهو ثقة أيضاً وفقيه. انظر تقريب التهذيب (٢٣٦/٢). وأما عبد الله بن زرير فهو تابعي ثقـــة، انظـــر التقريـــب (٤١٥/١) والتهذيب (٨٢/١٠) والتهذيب أيضاً (٢١٦/٥) علي رضي الله عنه لم يدرك جده فهو مرسل سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم.

جده إسماعيل صاحب البئر.. وأول من شرب منها رغم أنه لم يحفرها، لكنها من أجله تفجرت.

جده إسماعيل هو أول من جاء مكة من أجداد عبد المطلب.. بل هو أول من سكن مكة..

عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً.. لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدراها جبال.. كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر.. تمر بها القوافل فلا تتوقف.. والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقف..

لكن رفقة طيبة توقفت.. رفقة طاهرة قادمة من البعيد البعيد.. تعلو مع الدروب وتنخفض.. تعبر الفيافي والقفار.. تعبر المفاوز والرمال وتشق أمواج السراب.

امرأة طاهرة.. اسمها: هاجر.. جاء بها زوجها الخليل عليه السلام.

[جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت[1] عند دوحة[2] فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها.. فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام – الكعبة.

(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.

الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت (الصفا)[2] أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي[3] رفعت درعها[4] ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة)[5] فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[6]، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.

(٣) وهو ما بين العلامات الخضر الموجودة داخل المسعى الآن.

(٤) درع المرأة هو قميصها.

(٥) جبل آخر.

(٦) تجمعه.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم -لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله.. فكانت كذلك حتى مرت بهم رِفْقَةٌ من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم[1]، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين[2]، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نترل عندك؟ قالت: نعم.. ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فترلوا وأرسلوا إلى أهليهم فترلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم» وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشرٍ، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

(١) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إسماعيل، ومع مرور السنين ألحدوا فأبادهم الله (لسان العرب).

(٢) الجري هو الرسول.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحـــد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وســـألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشـــيء؟ قالت: نعم.. أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبي.. وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه: فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.. فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنت على الله عز وجـــل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قـــال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ.. ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه».

قال ابن عباس: فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليـــه الســـلام ومريه: يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم مـــن أحـــد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة -وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته.. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ عليك السلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابـــك. قـــال: ذاك أبي، وأنت العتبة.. أمرني أن أمسكك.

---

(١) أي اللحم والماء.

ثم لبث عنهم ما شاء الله.. ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم.. فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل.. إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة[1] مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم»

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت.. وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»][2]

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.. وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

---

(١) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس.

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وكان لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء.. بل فيها الصبر والدماء.. فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه.. ورؤيا الأنبياء وحي من الله.. فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[2].

وكان هذا الذبح كبشاً افتدى الله به نبيه إسماعيل.. وحفظ به نسله من الانقطاع.

سافر إبراهيم.. وماتت هاجر.. وبقي إسماعيل في مكة حتى مات.. ودفن هناك.. ومرت الأيام على بيت الله وكعبته، وسلالة إسماعيل تحيط بها وتوحد الله.. وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

نعم لا تشرك به شيئاً.. حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: عمرو بن لحي.. فأعاد غرس الشك في أرض مكة وقلوب أهلها.. وانحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرسل.. وأنزلت كل الكتب السماوية..

(عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار.. وكان أول

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

من سيب السوائب وبحر البحيرة)[1] وهي شياه وبهائم تتـرك للآلهـة لا تُمَسُّ ولا تُحْلَب..

غصَّت مكة بالشرك والأصنام.. وشكت الكعبة مما نصـب علـى ظهرها.. وانحرف بنو إسماعيل عن توحيد ربهم الواحد الأحد وعن ملـة أبيهم إبراهيم.. وكان آخرهم: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف.. وحاز بئر زمزم.. ولكنه لم يحز بعد كل أحلامه.. لقد كان يحلم وينذر..

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّت عبد المطلب فوجد الناس تنظر إليه.. تحبه وتجلـه وتحملـه في قلوبها.. وتَلَفَّت ثانية وثالثة.. ونظر وراءه فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث.. فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم الذي ساق لـه المجد.. أن يقر عينه بأخوةٍ للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حولـه.. يشهدهم ويقول لهم إنه (قد نذر إن توافى لـه عشرة رهط[2] أن ينحـر أحدهم، فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشرة أقرع بينهم أيهم ينحـر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد المطلب.

فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل.

ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل)[3]

---

(١)حديث صحيح رواه البخاري ومسلم. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٦٥٣).

(٢) أي رزقه بعشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن، ورواه ابن جرير في تاريخه (٢/٢٣٩): حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه =

إن الله يعطي بلا ثمن.. يرزق من يشاء بغير حساب.. ليس بحاجة لدماء ذلك الطفل الصغير.. لكن والده شدد فشدد الله عليه.. فأصابه بأغلى ولده فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشلت ذلك الصغير من السكين ليعيش بقية عمر قصير.. منقوشاً في التاريخ ما بقيت الجبال على ثباتها والأرض على استقرارها.

الزواج

تربى عبد الله ذلك الطفل الوديع في قلب عبد المطلب.. وتربع فيه.. وبلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سفه.. كأني به هادئ كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير.. كان كالعالم من حوله ينتظر وينتظر.. ويبحث عن زوجة له في بيوتات مكة ويسأل.. فكانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف هي الحبيبة.. وهي الإجابة.

تزوجا.. فكان الحب.. وامتلأ بيتهما الصغير بالبهجة.. وبالشباب الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال..

= أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة...

شيخ ابن جرير يونس بن عبد الأعلى الصدفي ثقة من رجال مسلم، وشيخه عبد الله بن وهب، أبو محمد المصري: ثقة حافظ عابد، انظر التقريب (١/٤٦٠). أما يونس بن يزيد ابن أبي النجار، فهو ثقة، لكن هناك اختلاف في روايته عن الزهري عند النقاد، فالأغلب يجعله أوثق الناس فيه وبعضهم يرى في رواياته عنه وهماً، لكن الأرجح ما مال إليه الحافظ ابن حجر في التقريب من أن في روايته وهماً قليلاً. لا يسقط حديثه بل يجعله حسناً لذاته ما لم يخالف، وهذا ليس من أحاديث الرسول ﷺ بل هو رواية تاريخية. انظر التهذيب (١١/٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩) والتقريب (٢/٣٨١).

ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه.. ومن فدية أبيه.. لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغـيره.. إنهـا للعالم أجمع.. أما هو فتوشك أن تدلف بيته الصغير سحابة سوداء.. مشبعة بالحزن والدموع والنواح.. فعبد الله الذي فر من الموت بمائـة من الإبل يسعى إلى حياضه على واحد منها.. امتطى راحلته وتوجه نحو يثرب.. حيث كان الموت في انتظاره ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب.. بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنة الحزينة.. التي كانت تحمل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيناً تيتم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

كأني بعبد المطلب والفاجعة أفقدته صوابه يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم.. علّه يسمع تكـذيباً لما سمع.. علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يمت ما زال حياً.. وهو قادم إليك..

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هـذه الدنيا.. وتودع عبد المطلب.. لينثني ذلك الشيخ الكظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة.. فتبكي حبيبها الذي قبض بعيداً عنها.. وفارقها في وقت كانت تحتـرق لعودته.. تشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

الحيرة والوجوم يملآن مكة لهفاً على عبد الله.. لكن ذلـك لم يـدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة.. فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها.. وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. فمكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف.. وحراب جيش ضخم زاحف لهدم بيت الله الحرام وطحنه.. كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها.. ومن عبيدها إلى ساداتها.. كأنما كان يدحرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب معها. فتطاير أهل مكة فوق ذرى الجبال.. وتفرقوا بين الشعاب.. فالأمر فوق ما يحتملون.. ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم.. وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال لملكهم[1]:

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك:

أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب:

إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأَهَلَّ ثم قال:

اللهم إن لكل إلـه ... حلال فامنع حلالك
لا يغلبن محالهم ... أبداً محالك

---

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمبر مصفود على عشرين ألفاً...

ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم فإن فعلت فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]. فجعل الفيل يعج[2] عجاً.. فجعلهم.. كعصف[3] مأكول)[4].

كانت حجارة حقيقية.. وكان عذاباً سماوياً محرقاً ومبيداً لطاغوت من الطواغيت.

كان هناك من لم يستطع الهرب.. كانت هناك آمنة تعاني من آلام الوضع.. ترى هل أقعدها تلك الآلام.. ترى هل تركها أهلها وحدها لتلد

---

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فيتفتت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات عديدة ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم (٥٣٥/٢) وهي من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس، قال رضي الله عنه: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم:... ورجال هذا الإسناد: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو محمد بن راهويه وهو أحد الأئمة الثقات الحفاظ المجتهدين، قرين ابن حنبل (التقريب ٥٤/١) شيخه جرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة كذلك: التهذيب (٥٧/٢) وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرح الرجل غير مفسر، إلا بقول ابن معين: ثقة جايز الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وبقول الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح. فقد قال ابن معين كما سبق أنه ثقة جايز الحديث رغم ذكره لسبب الجرح، وقال يعقوب بن سفيان: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد تقويه.

ابنها (في يوم الفيل)[1].. وحيداً.. تفرق قومه.. ومات أبوه.. والموت سيوف تحيط ببلده.. لا أدري ربما.. لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم.. وموتاً للهمجية والضلال.. ولد محمد.. ومات أصحاب الفيل.. وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة.. وأسراب الطيور..

(ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)[2] لكن كم كان بين وفاة والده ومولده؟ ليس هناك ما يعول عليه[3].. وكانت ولادته.. (يوم الاثنين)[4] أحد أيام (شهر ربيع الأول)[5] من عام الفيل.. وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

---

(١) حديث جيد الإسناد رواه ابن سعد (١٠١/١) من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، ورجال هذا الإسناد ثقات، ويونس بن أبي إسحاق السبيعي حديثه حسن. انظر الكاشف (٣٠٣/٢) وحجاج كذلك أما سعيد بن جبير وابن معين فأعلام معروفون.

(٢) رواه مسلم (١٣٩٢/٣) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٣) الأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (٨١٩/٢) بلفظ: قال أعرابي: يا رسول الله ما تقول في صوم الاثنين، فقال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٥) كونه ولد في شهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبة وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١٩٩/١) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد بن جبير بن قطع (سيرة ابن كثير ١٩٩/١) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشر من ربيع، فلم أعثر على خبر صحيح يحدده، لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجحون يوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

أساطير ومولد

مولد محمد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشرى للقلوب وفرحة للأرواح.. وبداية الإنقاذ لهذه البشرية من تيه الرمضاء المهلكة.. وتحويل هذه الجموع العطشى وردها إلى النبع الذي أضاعته وفرطت فيه.. لكن ذلك لا يعني أن تتشقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض السذج.. فصاروا يسقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب.. فنشأت حوله الأساطير والخرافات.

وجاءت الروايات الملفقة تشوه سيرة المصطفى ﷺ تشويهاً كاد يطيح بأحداث السيرة[1].

لقد حدثنا أولئك الكذابون عنه ﷺ وهو طفل رضيع.. وأنه كان يناغي القمر فحيثما أشار إليه اتجه.. كان يلعب به في مساحات الليل والفضاء. وكذبوا علينا فقالوا: إن النجوم دنت من الأرض عند مولده.. وكذبوا وكذبوا فقالوا: إنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أسرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث.. لقد ركبوا موجة التهويل والعواطف التي لا لجام لها.. فكان ذلك الشرخ العظيم في حياة الأمة وبَعْثَرة طاقاتها وأموالها في احتفالات لا سند لها إلا تلال الأكاذيب

---

(١) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساتذتها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد... وتمييز الغث من السمين، والسقيم من الصحيح. حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

والأساطير المختلفة تنحدر منها البدع.. ينحدر منها العفن فتشوه ذلك النبع وتلك العقيدة التي تركها ﷺ صافية مثل البيضاء.

إن تلك الغيوم الأسطورية لم تستطع أن تحجب شمس الحقيقة.. فلقد بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مساس.. وكان منها:

طلوع نجم أحمد

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب حيث يرقد عبد الله تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم.. كان يهودياً.. وربما كان فلكياً.. صرخ الرجل بقومه قائلاً :

(يا معشر اليهود:

فاجتمعوا إليه. قالوا: ويلك ما لك؟ قال:

طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)[1].

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن تختفي في سراديب اليهود المظلمة.. لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن

---

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢١٣/١) سماعاً من صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غدات...) وهذا الإسناد قابل للتحسين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلس، والتابعون لم يتهموا وربما كانوا صحابة وللحديث شواهد تقويه منها ما رواه ابن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

كبر وشاخ.. ذلك الغلام هو مبدع الإسلام وشاعره العظيم حسان بن ثابت.. إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي.. وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في السماء.

ولم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الذي رأى هذا النجم.. ففي مكة رجل حيران.. يقال له: زيد بن عمرو بن نفيل.. كان يحدق في الأصنام يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله.. فلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها وتخلف عقول أتباعها وعابديها.. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء لا تقدم ولا تؤخر.. ضاقت بها مكة وضاق زيد بها.. فبحث له عن فسحة بين الفيافي والبطاح.. يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل ولا يكف عن السؤال... حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام.. فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع وصدقه واتبعه)(1).

وهذا زيد بن ثابت يحدثنا فيقول:

(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد،

---

(1) إسناده حسن، رواه محمد بن حبان وأبو نعيم (سيرة ابن كثير ٢١٢/١)، قالا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد عن محمد عن عمرو عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد، عن زيد بن عمرو قال: قال لي حبر من أحبار الشام:... وهذا الإسناد صحيح، وهب بن بقية ثقة. انظر التهذيب (١٥٩/١١) وخالد هو ابن عبد الله الطحان وهو ثقة. انظر التهذيب أيضاً (١٠٠/٣) ومحمد بن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عن البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

مهاجره يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا)[1] إن اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً.. لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم.. وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب. وقد حاولوا طمس نجم أحمد وإخماده لكنهم لم يفلحوا.

التسمية

قبل عبد الله.. وقبل عبد المطلب.. وقبل مئات السنين كان هذا المولد حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء يوصون به أممهم.. ويبشرون به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم.. ويقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[2].

كشف الله هذا الغيب وبشر به.. وذكر اسمه في الإنجيل.. وفي التوراة من قبل الإنجيل.. ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»[3].. ولا أدري من هو

---

(١) حسن بشواهده وسنده ضعيف فقد رواه أبو نعيم (سيرة ابن كثير (١/٢١٤) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت وهو ضعيف أيضاً. انظر اللسان (١/٤٢٩)، لكن الحديث يشهد له ما سبق، ويشهده له ما سبق ذكره عند البيهقي في الدلائل (١/٩١) وما عند البيهقي أيضاً (١/٨٩) وهو قوي بها لا سيما وأن الأول جيد الإسناد، والثاني علته عنعنة ابن إسحاق ورجاله ثقات.

(٢) سورة الصف.

(٣) رواه ابن سعد (١/١٠٤) بإسناد حسن من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة واسمه: عبد الله بن عامر القيسي. انظر التهذيب، وقد حدثه بهذا الحديث شيخه زهير بن محمد التميمي وهو حسن الحديث إذا روى عنه غير شامي. وهذه رواية بصري وهي مستقيمة كما قال ذلك الإمام أحمد. انظر التهذيب (٢/٣٤٨) وشيخه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ثقة، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.

الذي حقق هذا الغيب ووفقه الله لهذا الأمر.. أهو جده عبد المطلب أم أمه آمنة بنت وهب.. ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما. ولكنه في النهاية سمي محمداً.. أما:

رضاعه وحضانته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشاركها حضانته امرأة تدعى: أم أيمن، واسمها: بركة بنت ثعلبة بن عمرو.. وهناك امرأة ثالثة شاركت في رضاعه وهي أَمَةٌ لعمه أبي لهب، واسمها: ثويبة. وقد (أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي)[1].

هذا في بداية الأمر.. وبعد فترة من الزمن غشيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش.. وكانت أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.. وربما كان باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم.. وربما كان فقيراً لا يستطيع منافسة غيره في حرية الانتقاء والاختيار لحفيده من بين تلك المرضعات.. ربما لم يكن في بيت آمنة ما يغري المرضعات على التوجه نحوه.. فيجتمع لهذا الصغير يتم مرير وفقر موجع[2].

---

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف إسنادها، والضعف سبب الرد فكيف بالتضارب، هناك رواية تقول: إن حليمة لم تجد طفلاً سوى محمد ﷺ، ولو عدنا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنا عبد المطلب غنياً يملك قطيعاً من الإبل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائة من الإبل فداءً لابنه عبد الله بعد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبل هي كل ما يملكه؟!

وأخيراً استقر محمد اليتيم في أحضان (حليمة السعدية).. شغفها حباً وحملته على راحلتها ليسترضع في مضارب (بني سعد بن بكــر)[1] قــوم حليمة وأهلها.. وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو.. ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين.. وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات.. ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة.. ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.. كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر.. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات ويمرحان ويلعبان.. وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه فيسكن ما بهما من جوع.. كانت أيامــاً تشع بالبراءة والجمال والبهجة.. لم يعكر صفوها سوى صــراخ أخيــه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمداً قد قُتِل

فما الذي حدث.. ولماذا يقتل طفل.. من الذي يستطيع اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

ما حدث هو أن الصباح أيقظ الطفلين.. فخرجا من الخباء خلــف أغنامهما.. ولم يذكرا أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى.. وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه فقال لأخيه: (يا أخي اذهب فأتنا بــزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ١/٢٢٨).

(٢) حديث حسن بالشواهد وإسناده فيه ضعف لجهالة: عبد الرحمن السلمي، وقد رواه أحمد وأبو نعيم. انظر (سيرة ابن كثير ١/٢٢٩) والحديث يشهد لــه ما بعده. وفيه أي حديث أحمد وأبي نعيم بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه بعمومه يشهد لــه ما بعده.

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في الصحراء فهل حدث له شيء؟

نعم شُقَّ صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.. دعونا نستمع إليه وهو يحدثنا فيقول: (فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه:

زنه بعشرة من أمته. فوزنني فوزنتهم.

ثم قال:

زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة فوزنتهم.

ثم قال:

زنه بألف من أمته. فوزنني بألف فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم)[1].

لقد شُقَّ صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً.. بينما هو ينظر ما يفعله هذان الملكان به.. ولقد رأى رسول الله ﷺ أصحابه موضع الشق بعد النبوة.. مما يؤكد أن هذه الحادثة حقيقة مادية.. كانت الطريقة التي تمت بها فوق إمكانات البشر وطاقاتهم وتصوراتهم.. يقول أنس بن مالك رضي

---

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

الله عنه: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره حليمة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون)[1].

يقول أنس بن مالك مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)[2].

هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ.. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة.. فصاروا يلفقون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون نبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. وهو أغنى الناس عنهم وعن أكاذيبهم[3].. كما شطح على الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حلماً وليس حقيقة.. فبماذا تراهم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟ نعم لقد رآه.. ولقد صدق. ولقد حدث. وهذا ما جعل حليمة بعد سماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه.. أتراها تعيده من أجل رؤيا.. ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم.. هل دسهم محمد ﷺ قبل نومه في عقله الباطن..؟! لئن هربت عقولنا من كل حديث صحيح النقل لمجرد أننا لم ندركه إن تلك لكارثة[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٤٧).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٤٧).

(٣) مثال ذلك ما لفقه الغلابي وغيره حول هذا الحدث. انظر ذلك في موسوعة السيرة.

(٤) مثال ذلك حديث رواه البخاري وغيره أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحدكم فليغمسه كله في الشراب ثم يخرجه فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر =

عاد محمد الصغير إلى أحضان آمنة.. ترعاه وتحنـــو عليـــه.. تحدثـــه ويحدثها تلاعبه ويلاعبها.. وتقص عليه وتملأ دنياه ويملأ دنياها.. فـــأي براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليمة.. لا شيء كالأطفال براءة.. فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة آمنة وسعادتها به.. ويا لشقاءه بها وحزنه عليها.. بعد أن أخذتـــه معها متجهة به نحو أخواله في (يثرب).. حيث قضى وقتاً هناك يمـــرح في طرقاتها ويتأملها.. وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب.. فسأعود لأضع لـــك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

ثم رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة.. وفي مكان يقال لـــه الأبواء بين مكة والمدينة توقفت المطايا.. ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلقت عيناه بها وهي تتوجع وتئن أمامه.. فلا يستطيع منحهـــا مـــا يخفف ألمها سوى نظرات حائرة خائفة.. وتزيد آلامها ويزيـــد أنينـــها، وتموت آمنة وتدفن أمام عينيه.. بعيداً عن مكة.. بعيداً عن عبد المطلب.. بعيداً عن أعمامه.. تؤخذ آمنة منه.. وتوارى تحت أكوام التراب.. ويعود باكياً وحيداً حزيناً وقد تيتم مرة ثانية.. يعود إلى مكة.. يعود إلى ذلـــك البيت الصغير.. ويجول ببصره في أركانه الصامتة.. هنا كانت ترقد آمنة..

=

دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهمـــوا الإمـــام البخـــاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة -والشيعة لا يؤمنون بالأحاديث التي نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة، لقد جـــاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً بعد أن أجروا التجارب الكثيرة، ولقد تابع هذه التجـــارب الأســـتاذ الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر ودَوَّنها في كتابه (الإصابة في صحة حديث الذبابة) وهو يبحث في صحة هذا الحديث من الناحية النقدية والطبية.

وهنا كانت تعد لـــه طعامه.. وهناك كانت تلاعبه وتسعى لإضـــحاكه عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.. وفي هذا المكان كان يســـتحم بيديها.

أيها البيت الصامت كالحداد لم يعد هناك صـــوت.. أيهـــا البيـــت الصامت لم يعد هناك أم.. لم يعد هناك آمنة.. إنها ترقد هناك بـــالأبواء.. فيا للوعته ولهفه ويا حر قلبه عليها.

ربما تنبه ليلة فلم يجدها بقربه ففاضت عيناه بالدمع.. وألجمه الحـــزن والحنين إليها.. أو ربما كان يسأل جده وأعمامـــه عنـــها فيتجرعـــون الصمت.. وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتيه عنهم الإجابـــة.. إن للطفل أسئلة ملحة ومحرجة.. فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الـــدهر بأبيه وأمه.. يسأل عنها ومتى ستعود وإلى أين ذهبت.. وهـــل ســـتتركه وحيداً أم سيذهب إليها.. أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصـــرتك خفضت رأسك وبكيت.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يـــوم بقبرها فرئي لـــه بكاء لم يبكه من قبل.. يقول بريدة رضـــي الله عنـــه: (انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحـــرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر بن الخطاب رضـــي الله عنـــه، فقال:

يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال:

هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت.

فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة)[1].

ومرة يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

(خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بودان قال: مكانكم حتى آتيكم. فانطلق، ثم جاءنا وهو ثقيل. فقال: إني أتيت قبر أم محمد)[2]، وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع.. فهو مجرد نبي مرسل.. والأمر كله لله وحده.. فعليه الصبر والاحتساب.. كما صبر في صغره على مرارة اليتم ووحشته.

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة.. امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً إليه.. حمله إلى بيته حيث تربى في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع.. صاحب الشرف وساقي الحجيج.. فكانت أولى خطواته في درب الرجولة.. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية.. وكأن اليتم علمه أن الحياة لا تستحق شيئاً.. لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح.. لقد أحبه عبد المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه.. فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها.. ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل. إلا في يوم من أيام الحج.. حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقي الحجيج وزعيم

---

(١) ذكر ابن كثير هذا الحديث وعزاه للبيهقي، وأورد إسناده وهو صحيح: سفيان الثوري، عن علقة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي. انظر التقريب (٣٢١/١) وعلقمة بن مرثد الحضرمي، ثقة أيضاً. انظر التقريب (٣١/٢)، ورواه البيهقي أيضاً (سيرة ابن كثير ٢٣٦/١) بسند حسن لولا عنعنة ابن جريج فيه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وهو حسن بالشواهد لأنه من طريق أيوب بن جابر بن سيار السحيمي وفيه ضعف. (التقريب ٨٩/١) سيرة ابن كثير (٢٣٦/١).

قريش وسليل الأنبياء.. لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء.. وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً

يا رب رده واصطنع عندي يداً)[1]

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل.. ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت تثير التساؤل.. فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنت عليك حزناً، لا تفارقني أبداً)[2].

لم يفارق هذا الصغير جده.. ولم تكن أيامهما كلها رخاء وسعة..

---

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢/٢٠) وذكره الذهبي في سيرته، من طريق خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن، لولا خارجة بن مصعب فقد قال الحافظ: صدوق، لكن في ذلك نظر، لأنه اعتمد على توثيق ابن حبان فقط وابن حبان قد سكت عنه في الثقات (١٣٣/٨) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً، انظر السيرة (١/١١٥): عناية جده.

(٢) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢/٢٠) وذكره الذهبي في سيرته، من طريق خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن، لولا خارجة بن مصعب فقد قال الحافظ: صدوق، لكن في ذلك نظر، لأنه اعتمد على توثيق ابن حبان فقط وابن حبان قد سكت عنه في الثقات (١٣٣/٨) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

فلقد (تتابعت على قريش سنون جدبة[١] أقلحت[٢] الجلد وأرقت[٣] العظم).. وبات الناس في شظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال.. طفلة صغيرة كانت تسوق بهمات لأهلها في تلك السنون الجافة.. فيجري لها أمر غريب، تحدثنا عنه فتقول:

(بينا أنا ومعي صنوي[٤] أصغر مني، معنا بهمات[٥] لنا وربا، وأعبد، يردن على السحق[٦]، فبينا أنا راقدة -اللهم- أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيت، يصرخ بصوت صحل[٧]، يقول: يا معشر قريش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه، فحي هلاِ بالخير والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً[٨]، أشم العرنين[٩]، له فخر يكظم عليه، وسنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف[١٠] إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشنوا[١١] من الماء، وليمسوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس[١٢]،

---

(١) أي سنون لم يترل بها مطر.

(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعاهدها.

(٣) جعلته ليناً.

(٤) الصنو: الأخ الشقيق.

(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.

(٦) السحق هو البالي أو البعيد.

(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.

(٨) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.

(٩) الشمم في الأنف هو ارتفاع القصبة وحسنها واستواء أعلاها، وهو كناية عن الرفعة والعلو والشرف.

(١٠) يمشي.

(١١) يصبوا والمراد الاغتسال به.

(١٢) جبل في مكة.

فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا فغنمتم إذا ما شئتم وعشتم.

قالت رقيقة: فأصبحت -علم الله- مفؤودة، مذعورة، قد قف[1] جلدي، ووله عقلي، فاقتصصت رؤياي، فنمت في شعاب مكة، فو الحرمة والحرم، وإن بقي بها أبطحي، إلا قال: هذا شيبة..

وتنامت عنده قريش، وانفض[2] إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، استلموا، وطافوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون[3] حوله ما إن يدرك سعيهم مهله حتى قر لذروته، ما ستكفوا جنابيه، ومعهم رسول الله -وهو يومئذ غلام قد يفع أو كرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم ساد الخلة[4] وكاشف[5] الكربة، أنت عالم غير معلم، مسول غير منحل[6]، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك -يعني أمنة حرمك- يشكون إليك سنتهم[7] التي أقلحت الظلف[8] والخف، فاسمعن اللهم وامطرن غيثاً مريعاً مغدقاً.

---

(١) اقشعر.

(٢) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٣) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والمراد أحاطوا وأحدقوا.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثلمة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزيل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك أحد.

(٧) السنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير بالانتباه للسنة حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا... وتمطروا... ولا تنبت الأرض شيئاً» رواه مسلم وأحمد.

(٨) الظلف: الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي وغيرها.

فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائهـا، وكـظ[1] الـوادي بشجيجه، فلسمعت شيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب:

هنيئاً لك يا أبا البطحاء - هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحـاء، وفي ذلك تقول رفيقة بنت صفي:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاء بالماء جونى لـه سـبل	ودان فعاشت به الأمصـار
سبيل من الله بالميمون طائرة	وخير من بشرت يومـاً بـه
مبارك الأمر يستسقى الغمام	ما في الأنام لـه عـدل ولا

عادت الحياة خضراء في مكة.. واهتزت الأرض وربت بفضل ربها.. وضحك الربيع للجميع.. لكن السعادة لم تدم لمحمد.. فها هو بعد مـدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة.. لقد مات عبد المطلب جده وآخر آبائه.

---

(١) ضاق الوادي من كثرته.

(٢) هذا الخبر حسن، فقد رواه البيهقي من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميـد الخـلال، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران عن ابن حويصة، حدثني مخرمة بن نوفل، عن أمه رقيقة بنت صيفي.

والطريق الثاني: زكريا بن يحيى بن عمر الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب، قال: قال عمي عروة بن مضرس، يحدث عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة...

وفي الطريق الأول عبد العزيز بن عمران، اختلط ففحش غلطه، وهو غير متهم، والآخر يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير. انظر التقريب (٥١١/١) (٣٧٧/٢) أما الطريق الثاني ففيه زكريا الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغـني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١).

ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتوبع الكلبي عند البلاذري. (أنساب الأشراف ٨٢) وقد نسب صاحب السيرة الشامية الحديث للطبراني وابن أبي الدنيا. (١٧٨/٢)

في بيت أبي طالب

حن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف السرير.. ورق لحاله وكربه وبثه.. فحمله إلى بيته.. ورعاه كأنه من صلبه.. ينسيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً.. فكان يلازمه في كل مكان.. في مكة في مجالسها وطرقاتها.. كان رفيقه في بعض الرحلات.. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن.. والصيفية تتجه نحو الشام.. وللرحلتين أمن كأمن مكة.. ذكره الله فقال سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[1]، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشام ومعها (خرج أبو طالب ومعه محمد ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب (بحيرى) هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج، ولا يلتفت إليهم، فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم، حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ، فقال:

هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش:

وما علمك؟ فقال:

---

(١) سورة قريش.

إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني عرفته بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل، فقال: أرسلوا إليه:

فأقبل وغمامة تظلله، فلما دنا من القوم، قال بحيرى:

انظروا إليه، عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه. قال بحيرى:

انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم -أي بحيرى- وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت، فإذا بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا: فاستقبلهم بحيرى، فقال:

ما جاء بكم؟ قالوا:

جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. فقال بحيرى:

فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا:

لا، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه، فقال بحيرى:

أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. فبايعوه، وأقاموا عنده، فقال بحيرى الراهب:

أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا:

أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده)[1] إلى مكة خوفاً عليه بعد أن تأكد من صفاته: صفات النبي المنتظر.

الأمين والغنم

الناس وقود الحياة.. يكدحون.. يحترقون ليشعلوها.. ولم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. فيقتات من نسبه.. ويستطعم من شرفه.. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسه لصخورها.. ويشق طريقه بذراع مفتول.. وجبين مرفوع.. وشباب متجدد.. تعاملت معه قريش كلها.. حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل اسم هو له.. ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده يُذكِّر من يمر بها ويكتفي.. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة.. فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)[2]. الأمين.. نعم هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم.. لقد جربوه وخبروه.. والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب.. وليس لدى محمد الشاب ما يبذله من مال أو سلطة ليرغمهم على قول ذلك.. لا سيما وهو أصغرهم سناً.. بل وربما كان أفقرهم وأيتمهم.

لقد ألجأه الفقر إلى أشقى المهن وأبسطها.. لقد كان يسير طوال نهاره

(١) إسناد قوي، رواه الترمذي. الخرائطي (سيرة ابن كثير ٢٢٦/١) وأبو نعيم (١٢٩): حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال:... وأبو بكر ابن أبي موسى الأشعري؛ تابعي ثقة، اسمه أبو بكر بن أبي موسى الأشعري. (التقريب ٢) ويونس ابن أبي إسحاق السبيعي، حسن الحديث، انظر تهذيب التهذيب (٤٣٣/١١) أما قراد، فاسمه عبد الرحمن بن غزان الضبي، فهو أحد الثقات. التهذيب (٢٤٧/٦).

(٢) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (يبني الكعبة ويضع الحجر).

خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)[1] مهنة شاقة تمارس بأجر بخس.. لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).. مهنة البسطاء وقادة الأرض والعظماء.. وهل هناك أعظم على وجه الأرض من نبي.. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)[2] ربما لأن صورة القطيع من الماشية تشبه سير سواد الشعوب في العالم وهم يبحثون عن لقمة العيش.. ومهمة الراعي تتطلب البحث عن أوفر المراعي عشباً وكلأً وإن لم يكن في هذه المراعي مستراحاً للراعي ورفاهية له.. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه ومفترسيه.. إن الرعي بقدر ما يولد من القسوة والخشونة في حياة الراعي.. يهب له قلباً حنوناً عطوفاً على رعيته.. والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه الصفات.. فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما.

وبعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام.. ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشباب ويعيش بينهم.. ويسمع بمغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء.. والقصف في الخمارات.. لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى اسمه ورجولته.. ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش.. والأمر عنده لا يتعدى دائرة حديث النفس والأماني لا أكثر.. إنه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت عندما كان يمسك بعصاه يهش بها على غنمه:

(ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري بلفظ: (نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).

(٢) حديث صحيح. البخاري.

ليلتين، كلتاهما عصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاية غنم أهلنا- فقلت لصاحبي:

أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى. فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير. فقلت:

ما هذا؟ فقيل:

تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال:

ما فعلت؟ فقلت:

ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى:

أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل:

فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال:

ما فعلت؟ قلت:

لا شيء. ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته)[1].

---

(١) حديث حسن. رواه البيهقي (٣١٥/١) وابن حبان (زوائده ٥١٥) أبو نعيم (١٨٦)، من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي، وقد قال ابن حجر رحمه الله في هذا الإسناد: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات.

=

إن أناساً تعلوهم الغرائز.. وتلوي أعناقهم الشهوات.. فيجهدون في الحصول عليها دون أن يوقفهم نداء ناصح.. أو زجر زاجر.. يبذلون الأموال كالخطوات.. حتى يظفروا بسويعات حمراء وخيمة العواقب.. فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار.. لكن محمداً أوقفته حفلة عرس.. وهدهدته حتى نام.. لأنه مهذب أتعبته هموم العمل والتزام الوظيفة.. تشققت قدماه من صخور الجبال وأدمتها أشواك الصحاري.. فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً.. فلاحَ له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب له ذلك.. فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البريء ما أزاح ركام الهم عن قلبه ليبقى مشرعاً للسرور والابتهاج.. و لم تكن المرأة بعد ذلك بعيدة عن خياله وأحاسيسه.. وكان -كأي شاب سوي- بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة.. لكنه لم يجد فتاة بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال.. ولها من المال شيء وفير.. سمعت عن محمد بن عبد الله فشدها

=

وقال الهيثمي (٩/٢٢٦): رواه البزار، ورجاله ثقات. ولكن يلاحظ أن أحد رجال هذا السند؛ هو محمد بن عبد الله بن قيس، وهو وإن كان من رجال الشيخين؛ إلا أن الحافظ قال عنه: مقبول في التقريب (٢/٧٩) وهذا القول يجعل حديثه مقبولاً إذا توبع أو كان له شاهد يقويه، وللحديث شاهد ذكره الإمام الذهبي في سيرته (٤١) من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وعلة هذا السند جهالة حال زياد النخعي، فقد سكت عنه ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٦) و لم يعرفه الدارقطني. انظر المغني (٢/ ٢٤٣)

ما سمعت... أمانة ورجولة واتزان.. فتمنته زوجاً رغم كبر سنها بالنسبة إليه.. ورغم زواجها من قبل.. وتم لها ما أرادت.. لكن أباها كان عقبة تحاول إعثار هذا الزواج.. لكن حب خديجة وذكاءها كانا أكبر من تخريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأسه.. لقد ملك عليها محمد شغاف قلبها.. فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له.

يقول ابن عباس رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أباها وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقته، وألبسته حلة -وكذلك كانوا يفعلون بالآباء- فلما سرى عنه سكره، نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال:

ما شأني هذا؟ قالت خديجة:

زوجتني محمد بن عبد الله. قال:

أُزَوِّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت:

أما تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران، فلم تزل به حتى رضي)[1] وأذعن للأمر الواقع. أما محمد ﷺ فلم

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند قوي (الفتح الرباني (١٩٧/٢٠)، من طريق أبي كامل، حدثنا حماد ابن سلمة عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس. وهذا الإسناد قوي، فأبو كامل شيخ أحمد واسمه مظفر بن مدرك الخراساني، ثقة، انظر التهذيب (١٨٣/١٠) والتقريب (٢٥٥/٢)، وأما عمار فحديثه حسن، انظر التقريب (٤٨/١) وأما حماد بن سلمة فمعروف. وهذا هو الخبر القوي الذي استطعت الوصول إليه عن كيفية الزواج، فقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في =

يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان لـــه في صغيرات قريش ما يريد، لكنه يريد بيتاً واستقراراً وحياة زوجية سعيدة ليواصل حياته و:

يبني الكعبة
ويضع الحجر الأسود

لما بلغ ﷺ الخامسة والثلاثين.. كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح.. فقد كانت (مبنية بالرضم[1]، ليس فيها مدر[2]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[3]، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم يسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها، بادياً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[4]، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قرباً من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش:

نبني بهذا الخشب بيت ربنا، فلما أن أرادوا هدمه، إذا هُمْ بحية على سور البيت، مثل قطعة الجائز، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها،

=
الخامسة والعشرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) الزواج.

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٢) المدر هو الطين اللزج.

(٣) أنثى من أولاد الماعز.

(٤) مثل حرف ٨.

فاجتمعت قريش عند الحرم، فعجوا[1] إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل.

فسمعوا خواراً[2] في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذَنَبُها أعظم من كذا، وكذا، ساقط حتى انطلق بها نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً[3] وكان محمد ﷺ يشاركهم في ذلك البناء، وكان ممن ينقل الحجارة من الوادي، عندما ناداه مناد لا يعرفه ولا يستطيع أن يراه، وكان سبب النداء، أنه عندما كان (يحمل حجارة من أجياد -وعليه نمرة[4]- إذ ضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فبدت عورته من صغر النمرة فنودي: يا محمد، خَمِّرْ[5] عورتك. فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك)[6].

---

(١) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.

(٢) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.

(٣) ما بين الأقواس حديث صحيح الإسناد رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢/٥) عن معمر، عن عبد الله، عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال:

وهذا الإسناد صحيح، فمعمر شيخ عبد الرزاق أحد الأعلام الثقات، انظر التهذيب (٢٤٣/١٠) وتقريب التهذيب (٢٦٦/٢).

وعبد الله شيخ معمر وهو التابعي: عبد الله بن خثيم، وهو ثقة حجة، انظر تهذيب التهذيب (٣١٤/٥) وأما أبو الطفيل فهو صحابي. وقد صحح هذا الحديث الإمام الذهبي، في سيرته (٢٠) حيث قال إنه: صحيح.

(٤) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

(٥) أي غط عورتك.

(٦) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

النداء الأول لمحمد ﷺ

قبل النبوة فقد جاء ذلك في وصف الكعبة وبنائها، وأنه (كان برضم[1] يابس ليس بمدر، تتروه العناق، وتوضع الكسوة على الجدار، ثم تدلى، ثم إن سفينة لروم أقبلت، حتى إذا كان بالشعيبة انكسرت، فسمعت بها قريش، فركبوا إليها، وأخذوا خشبها، وورومي يقال له: باقوم. نجار، بان[2]، فلما قدموا مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا عزوجل، واجتمعوا لذلك، ونقلوا الحجارة، من أجياد الضواحي، فبينا رسول الله ﷺ ينقل إذ انكشفت نمرته فنودي: يا محمد عورتك. فذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رؤيت له عورة بعد)[3].

وكان الذي أشار عليه ﷺ برفع إزاره هو عمه العباس رضي الله عنه، فقد قال له: (يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة. ففعل ذلك، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً)[4].

وقد شهد العباس هذه الحادثة، وكتمها، ولم يقصها إلا بعد زمن طويل على ابنه عبد الله فقال: (كنت أنا وابن أخي -محمد ﷺ- ننقل

---

(١) الرضم: صخور بعضها على بعض.

(٢) أي كان يعمل في النجارة والبناء.

(٣) إسناده صحيح، ذكره الذهبي بإسناده (٣٦) ورواه البيهقي (٣٢٦/١). وهو من طريق داود بن عبد الرحمن العطار، وهو ثقة. انظر التقريب (٢٢٣/١) عن ابن خثيم، وقد مر معناه، عن أبي الطفيل رضي الله عنه.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه.

الحجارة على رقابنا، وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا[1] الناس ائتزرنـــا، فبينا هو أمامي خر على وجهه منبطحاً، فجئت أسعى إليـــه، وألقيـــت حجري -وهو ينظر إلى السماء- فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخـــذ إزاره، وقال: نُهيت أن أمشي عرياناً. فكنت أكتمها مخافة أن يقولوا مجنون)[2].

وارتفعت الكعبة من جديد.. وشمخت شمـــوخ التوحيـــد.. تشـــير بوحدانية الله.. وابتهجت قريش بصنيعها وترتيب بيت ربها.. ولم يبـــق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه.. ووضعه في زاويته من الكعبة.. فمن سيعيده.. من سيضعه.. من هو الأحق بهذا الشرف؟ إن بناء الكعبة واسع لدرجة استيعاب الآلاف للمشاركة فيه ونيل شرفه.. لكن الحجر الأسود لا يحتمل أكثر من أذرع قليلة تحمله.

اختلفت بطون قريش.. وحق لها أن تختلف في مثل ذلـــك الـــزمن المتكئ على تلك العقول المتصخرة التي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأســـنَّة الرماح.. وأنهار الدماء.. ألم يحدثنا التاريخ عن حروب دامت عشـــرات السنين وثار غبارها من أجل سنام جمل أو مضمار خيل.

---

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حديث حسن لغيره، وذكره الذهبي في سيرته (٣٨) من طريقين عن: سماك عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، عن العباس رضي الله عنهم. وهذا الحديث رجاله ثقات، عكرمة تابعي معروف وهو ثقة. وسماك جيد الحديث، لكن سماك بن حرب رحمـــه الله منتقـــد الحديث عن عكرمة، فقد امتدح النقاد حديثه ما عدا حديثه الذي يرويه عن عكرمة مولى ابن عباس، فقد قالوا كما في التهذيب والتقريب (١/٣٣٢): إنه اضطرب فيه. لكن هذا الحديث لـــه من الشواهد التي مرت معنا، والتي ذكرتها في موسوعة السيرة ما يشهد لـــه ويرفعه إلى درجة القبول، فهو حسن لغيره قوي بالروايات الأخرى.
والقائل: كنت أكتمها. هو العباس خوفاً على ابن أخيه من التكذيب.

إن جمال الدنيا وخيلها والخصومة عليها.. لا تطاول الخصومة على أقدس الأشياء التي احتلت قلوب العرب قبل أراضيها.. الكعبة والحجر الأسود.

فهل ستصبغ قريش كعبتها بدماء أبنائها.. هل هناك مخرج آخر لهذه الأزمة. لهذه الكارثة التي تطل من موضع الحجر.

كان الله رحيماً بهؤلاء العرب عندما قرروا تحكيم أول رجل يدخل عليهم المسجد.. فكانت هذه القصة التي يرويها لنا شاهد عيان شارك وبنى وحضر الخصومة حيث يقول: إني كنت (فيمن يبني الكعبة في الجاهلية، ولي حجر أنا نحته بيدي أعبده من دون الله، فأجيء باللبن الخاثر، الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسه، ثم يشغر[1] فيبول. فبنينا حتى بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحن نضعه. حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف. فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع من الفج[2] فجاء النبي ﷺ. فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو)[3] وبيده الكريمة

---

(١) أي يرفع إحدى رجليه ليبول.

(٢) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٣) إسناده صحيح، رواه عبد الصمد بن النعمان (سيرة الذهبي٤٠) وأبو نعيم في الدلائل، من طريقين أما عبد الصمد فقال: حدثنا ثابت بن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن مولاه قال:... وثابت بن يزيد الأحول ثقة، انظر التهذيب... وكذلك هلال بن خباب العبدي، انظر التقريب (٢٣/٢)، وطريق أبي نعيم: عباد بن العوام عن هلال... وعباد ثقة. انظر التقريب (٣٩٣/١).

أوقف سيلاً من الدماء كاد أن ينفجر.. وفرقة بين أهل مكة كـــادت أن تبيدهم.. ساقه الله إليهم فلما لمحوه أشارت قلوبهم قبل أصابعهم: أتـــاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها من رجالها ونسائها وأطفالهـــا.. مـــن شوارعها وأزقتها.. من أبوابها وجدرانها.. من نسمات الهـــواء وحبـــات الرمل.. مكة كلها سمته الأمين.

سمته الأمين وهو يرعى أغنامها.. وسمته الأمين وهو يتعامل معها ولعـــل أشد الناس تأثراً بأمانته وصدقه: صفيه وحبيبه وصديقه: عبـــد الله بـــن أبي قحافة الملقب بـــ: أبي بكر.. لقد تأثر الجميع بأمانته لا سيما بعد أن بدأ:

يشتغل بالتجارة

فلقد كبر محمد وكبرت أمانته.. فترك رعي الأغنام ليدخل إلى عـــالم آخر.. عالم الاقتصاد.. ليبيع ويشتري.. ويربح.. ويتنامى نشـــاطه ومالـــه وعلاقاته.. إنه الآن يقيم شراكة مالية متينة بينه وبين رجل من قومه اسمـــه: السائب بن أبي السائب.. وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ. يحدثنا عن ذلك السائب نفسه فيقول:

(أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمـــي [مرحبـــاً بـــأخي وشريكي][1] كنت شريكي [في الجاهلية][2] فنعم الشـــريك، كنـــت لا تداري ولا تماري)[3].

(١) زيادة عند الحاكم (٢١/٦١).

(٢) زيادة عند الحاكم (٢١/٦١).

(٣) زيادة عند الحاكم (٢١/٦١).

إذاً فقد (كان شريك النبي ﷺ.. في التجارة)[1] وكان عنوان تجارته هو: الأمانة وإلا لما لقب بالأمين.. أصبح لدى محمد مال.. فاشترى عبداً اسمه زيد بن حارثة[2] لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم.. كان زيد كالابن لمحمد.. بل سماه زيد بن محمد.. أدب وتحضر وأخلاق عذبة.

لقد أجلّه الجميع.. واحترمه الجميع.. وأحبه كل من عرفه.. ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب.. لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

حتى الحجارة تحبه

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها.. فكان يحمل ذكراها في قلبه ويحدث بها أصحابه.. يحدثهم عن ذلك الحب فيقول: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)[3].

إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدر ما نشهده من صمت وسكون.. لكن الكون يريد قلباً.. يريد عقلاً ليكتشف ذلك المعبد فيه.. وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمداً.. أم وهب محمداً إدراكاً ليفهم لغة الحجر.. فكان ذلك السلام.. وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ﷺ ومكة.. وانتهى بمحمد وما وراء مكة.. أشياء غريبة تحدث لا يجد لها تفسيراً.. فيلجأ إلى حبيبته خديجة.. إلى قلبها الحنون فيقول يا خديجة: (إني أرى ضوءاً، وأسمع

---

(١) زيادة عند الحاكم (٦١/٢١).

(٢) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك وستأتي أحاديث أخرى.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن - فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبد الله)[1].. ثم تذهب تستفسر ذلك القس الطاعن في السن - ابن عمها- ورقة بن نوفل فتذكر لـــه ما يحدث لزوجها.. فيقول لها: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنـــا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به) [2] حتى هذا القس النصراني كـــان يحس.. كان ينتظر.. فالوضع على الأرض أكثر من سيئ وهو بحاجـــة إلى منقذ يحطم هذه الأصنام.. ويرتقي بهـــذا الإنســـان المـــرتكس في الوحل.. أما محمد فكانت أقواله وسلوكياته تقول:

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقـــر أصنامهم ويرفض كل ما يمت لها بصلة.. ها هو مع مولاه زيـــد بـــن حارثة.. أمام أحد الأصنام.. وها هو زيد يحدثنا عما جرى فيقـــول: (كان صنم من نحاس يقال له إساف، أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت بـــه. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت -في نفسي-: لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته. فقال رسول الله ﷺ: ألم تُنْه؟. فوالذي أكرمه وأنزل

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد. الفتح الرباني (٢٠/٢٠٧) من طريقين:

أ- حماد أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس.

ب- حماد أخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلاً. والمسند أصح، لأن الراوي عن حمـــاد في المرسل: هو عفان وهو ثقة ثبت لكنه ربما وَهِم. أما الرواة عن حماد في المسند. فهما ثقتان لم يذكر لهما أوهام، وهما: مظفر بن مدرك (أبو كامل) والحسن بن موسى الأشيب. ثم إن المرسل عندما يسأل عن مصدر خبره فإنه يسنده فلا اضطراب هنا.

(٢) حديث صحيح. سيمر معنا.

عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

حتى في الحج.. وفي يوم الوقوف بعرفة.. يخالف قومه الذين أرادوا منح أنفسهم امتيازاً على بقية الناس.. وذلك بوقوفهم عشية ذلك اليوم بمزدلفة.. أما هو فقد كان ﷺ يخالفهم.. كان يقف بعرفة من بين قومه كلهم. يقول جبير بن مطعم: (لقد رأيت رسول الله ﷺ -وهو على دين قومه- وهو يقف على بعير له بعرفات، من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل له)[2].

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كانت قريش، ومن يدين دينها -وهم الحمس[3]- يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات)[4].

---

(١) حديث حسن. رواه البيهقي من طريق: الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة (التهذيب ٣٠٢/٢)، حدثنا أبو أسامة: حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقة بن وقاص، وهو حسن الحديث (التهذيب ٣٧٥/٩) عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان. التقريب (٤٣٠/٢) و (٣٥٢/٢).

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق فقال: حدثنا عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه جبير قال: وهذا السند (سيرة ابن كثير ٢٥٤/١) صحيح، فابن إسحاق ثقة لكنه مدلس، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه عبد الله. وشيخه ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم تابعي صغير وثقة معروف. انظر التقريب، وأما عثمان بن أبي سليمان، فهو أيضاً تابعي ثقة. انظر تهذيب التهذيب والتقريب (٩/٢). وكذلك نافع بن جبير بن مطعم تابعي ثقة. فالإسناد بذلك صحيح متصل.

(٣) سموا كذلك لتشددهم في دينهم وقيل لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٤) متفق عليه.

ويقول جبير بن مطعم أيضاً: (أضللت بعيراً لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)[1].

كان امتياز قريش هنا زائفاً.. ففر الصواب من بين جموعهم واستقر على بعير محمد ﷺ.. تلك هي الفطرة السليمة التي تأبى الانحراف وتلك هي الغربة المريرة التي يعانيها أفذاذ من الـ:

غرباء

كان محمد ﷺ غريباً في أرض مكة.. وجوه يعرفها وقلوب ينكرها.. كان موحداً على دين أبيه إبراهيم.. يدرك أن الله أعظم شأناً من أن يصاغ من حديد أو نحاس.. أو ينحت من الصخر أو الخشب.. كان يدرك عظمة هذا الكون وعظمة خالقه.. وفي الغربة نفسها يعيش أفراد قليلون جداً.. يتوجهون إلى خالقهم الأحد ويعرضون عن هذه الأصنام التي زاحمت الناس على هذه الأرض بغير حق.. عبر الروابي والهضاب والصحاري.. سير حثيث بحثاً عن الحق.. زيد بن عمرو بن نفيل.. وورقة بن نوفل.. بعض هؤلاء الغرباء أصحاب عقول ناضجة.. لم يستسيغوا تلك الحجارة الموضوعة فوق الكعبة.. ولا ما ينسج حولها من أساطير وخرافات.. فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم. فقال:

إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني، فقال:

إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله. قال زيد:

---

(١) متفق عليه.

وما أفر إلا من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئاً، ولا أستطيعه فهل تدلني عليه؟ قال اليهودي:

ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال اليهودي:

دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد، فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال:

لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله. قال زيد:

ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله. ولا من غضبه شيئاً أبداً، ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره. قال:

ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً. قال زيد:

وما الحنيف؟ قال النصراني:

دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم)[١].

ويعود زيد إلى مكة غريباً كيوم غادرهم.. يرمق مكة ويرمق جموعها.. أحقاً كانت هذه الأرض أرض التوحيد.. ما بالهم يشركون.. ينظر نظرة من ملأ قلبه الأسى واللهف.. رأته أسماء بنت أبي بكر على هذه الحال (مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري -ثم يقول-: اللهم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم)[1]. ثم يؤدي حركة غريبة كغربته تتوهج شوقاً إلى الله، وشوقاً يعبر به عما في قلبه، تقول أسماء: (ثم يسجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)[2].

لقد كان هذا الغريب إنساناً عظيماً في زمنه.. لا يتفوق عليه في سلامة الفطرة وصفاء الفكر إلا محمد ﷺ. لقد كان يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه مسرعاً بها نحو حفرة تلتهب بالرمضاء ليدسها فيها.. فينهض مسرعاً ويعترض طريقه.. ويتوسل إليه ألا يفعل.. فإذا أصر (أن يقتل ابنته قال له: لا تقتلها ادفعها إلي أكفلها، فإذا ترعرعت فخذها، وإن شئت فادفعها)[3]. ثم يأخذ تلك البريئة الضعيفة.. يحملها إلى بيته يرعاها ويحنو عليها.. لأنه يعرف أن الله أرحم من عباده.. وأنه لم يخلقها لتدفن بعد مولدها.

---

(١) ما بين الأقواس: سنده صحيح. رواه ابن إسحاق. (سيرة ابن كثير ١/١٥٤)، فقد قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، وابن إسحاق ثقة مدلس، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه: هشام بن عروة بن الزبير، أما شيخه، فهو ثقة معروف، ووالد عروة إمام المغازي والتابعي الثقة العظيم، عروة بن الزبير ابن العوام، ووالدته هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) (٣) ما بين الأقواس: سنده صحيح. رواه ابن إسحاق. (سيرة ابن كثير ١/١٥٤)، فقد قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، وابن إسحاق ثقة مدلس، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه: هشام ابن عروة بن الزبير، أما شيخه، فهو ثقة معروف، ووالد عروة إمام المغازي والتابعي الثقة العظيم، عروة بن الزبير بن العوام، ووالدته هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

أمة وحده زيد بن عمرو بن نفيل.. هكذا عاش وهكـــذا ســيبعث عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)[1].

و لم تكن عودة زيد لمكة ليأسه مما ملأ الأرض من رموز الشرك.. بل عاد لينتظر.. فلقد أرشده بعض الرهبان إلى قرب مخرج نبي مرســل.. في أرض الحجاز.. زيد نفسه يقــول: (شــامت النصــرانية، واليهوديــة فكرهتهما، فكنت بالشام، وما والاه، حتى أتيــت راهبــاً في صــومعة، فوقفت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبــادة الأوثــان، واليهودية، والنصرانية. فقال لــه الراهب: أراك تريد دين إبراهيم، كان حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيــت الذي ببلادك، فالحق ببلدك، فإن نبياً يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين إبراهيم بالحنفية، وهو أكرم الخلق على الله)[2].

---

(١) حديث صحيح، رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة (سيرة ابن كثير ٥٦/١) من طريــق تابعي ضعيف هو عطية بن سعد العوفي، لكن لــه شواهد قوية، عند الباغندي (سيرة ابن كثير ١٦٢/١) وعند أبي داود الطيالسي (١٦١/٢)، كما رواه محمد بن عثمان بــن أبي شيبة (سيرة ابن كثير ١٦١/١) وسند الباغندي قال عنه ابن كثير: صحيح وهو كما قال، وطريق ابن أبي شيبة قال عنه ابن كثير أيضاً: إسناده جيد حسن، لكنه ليس كما قــال: ففيه مجالد وفيه ضعف، والحديث بهذه الطرق صحيح.

(٢) حديث حسن رواه ابن سعد (١٦٢/١)، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، قال: قال زيــد بــن عمر... وعلي ثقة رغم ما قاله ابن عدي (اللسان ٢٥٣/٤) وقد قال عنه ابن معين: ثقة، ثقة، ثقة، وإسماعيل حسن الحديث: التقريب (٧٣/١) وعلة الحديث من والــده، ففيــه ضعف وحديثه جيد بالشواهد والحديث يشهد له حديث البخاري السابق، وحديث آخر عند الطيالسي (١٦١/٢)، وفيه جهالة حال نفيل، ولا ينفعه قول ابن حبان، روى عنــه المدنيون فلا بد من التوثيق اللفظي لكن حديثه جيد في الشواهد.

أما الرجل الآخر.. فهو ورقة بن نوفل الذي انتظر ذلك الخروج كما انتظر زيد... وبقي ينتظر حتى نزل الوحي.. وقد كانت خديجة تتردد عليه كلما حدث لرسول الله ﷺ شيء غريب لا يعرف له تفسيراً.. وكان ورقة يطمئنها ويأمل أن يكون نبي هذه الأمة المنتظر. فهذه الأمور:

لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ.. وتنحت في نفسه الوجوم والاستفهام.. أصوات وأضواء.. أسرار وأقفال.. وماذا بعد؟ الناس لن تصدق.. والصمت مرير.. وليس سوى خديجة من منصت.. ربما لدى بعض الناس من تفسير.. لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت أقدام السؤال طريقها.. والنتيجة كلمات كالحميم: محمد مجنون.

لكن للّيل نهاية.. ولا بد أن لهذا الكهف من مخرج.. إن الله رحيم ولن يترك هذا العبد الحائر في حيرته.. وها هو الوحي يبدأ خفيفاً كهواء البحر المنعش.. يبشر بحياة جديدة لمحمد وللأرض كلها.. فكان (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1].

ذات يوم رأى رؤيا (فشق ذلك عليه، فذكرها ﷺ لامرأته خديجة بنت خويلد بن أسد، فعصمها الله عز وجل من التكذيب، وشرح صدرها بالتصديق، فقالت: أبشر، فإن الله عز وجل لن يصنع بك إلا خيراً، ثم إنه خرج من عندها، ثم رجع إليها، فأخبرها، أنه رأى بطنه

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان. قالت: هذا والله خير فأبشر)[1].

عندها علم أنه سيكون نبي هذه الأمة يقيناً من الله.. لقد قال ﷺ يوماً والصحابة حوله يبتهجون به وبأحاديثه: (ما علمت ذلك -أي أنه نبي- حتى أتاني ملكان ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما: أهو هو؟ قال: نعم. قال: زنه برجل. فرجحته. قال: فزنه بعشرة، فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة، فوزنني بمائة، فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف، فرجحتهم. فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأمته لرجحها، ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه. فشق بطني، ثم أخرج منه فعم الشيطان، وعلق الدم فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، فاغسل قلبه غسل الملائم، ثم دعا بالسكينة كأنها رهرهه بيضاء، فأدخلت قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطني، وجعلا الخاتم بين كتفي، فما هو إلا أن وَلَّيَا عني كأنما أعاين الأمر معاينة)[2].

---

(١) حديث حسن بالشواهد، له سندان مرسلان، أرسلها عروة والزهري، لكن يشهد له ما بعده.

(٢) حديث حسن بما قبله، رواه ابن عساكر (سيرة ابن كثير ١/٢٣٠) والبزار. انظر مجمع الزوائد (٨/٢٥٥) وهذا سنده: جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي، أخبرني عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير، سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال:...
وجعفر ثقة، لكن شيخه عمر مجهول الحال سكت عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٧/٦) ويقويه ما عند أبي داود الطيالسي بسند فيه جهالة. انظر (منحة المعبود ٢/٨٦) ثم وجدت في دلائل أبي نعيم أن الراوي عن عروة هو ابنه عثمان وهو ثقة، وقد روى الحديث عن جعفر فيكون قد تابع عمر بن عبد الله، وهذا ما يدل عليه قول صاحب المجمع بعد أن تكلم عن جعفر: وبقية رجاله ثقات، وهو لم ينتقد من السند سوى جعفراً وهو كما علمت ثقة كما قاله الإمام أحمد، انظر كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وقد عزاه صاحب السيرة الشامية إلى الحارث بن أبي أسامة. انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/٨٥).

أتذكرون مضارب حليمة.. حيث الأطفال والحملان الصغيرة.. عندها أقبل ملكان أبيضان كالسلام.. أضجعا ذلك الصغير وشقا صدره وغسلاه.. وها هو طفل الأمس.. رجل يصافح الأربعين.. يعود إليه الملكان ببطحاء مكة ليغسلاه مرة أخرى بماء السماء.. وينهض يحمل فضل الله.. فما حدث يبشره ويقول: أنت النبي.. المنتظر حتى رأى.

الرؤيا الأخيرة

محمد ﷺ أصبح يفضل العزلة والتعبد (حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[١]، ثم يعود لذلك الغار المترقب على قمة جبل النور.. والذي يستغرق الصعود إليه أكثر من ساعة.. ولم يكن ذلك طوال العام.. بل (في كل سنة شهراً يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة)[٢] ولم يكن يمارس العبادة فقط.. بل كان (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[٣].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

(٣) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.

وبينما كان نائماً (جاءه جبريل بأمر الله تعالى. قال ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال:

اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال:

اقرأ. قلت: ماذا أقرأ؟ فغتني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال:

اقرأ. قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

فقرأها، ثم انتهى وانصرف، وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فرفعت رأسي إلى السماء، فأنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها، فقالت:

يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبـــك، حـــتى بلغوا مكة ورجعوا إلي. ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت:

أبشر يا ابن العم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجـــو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة ابن نوفل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ، فقال ورقة بن نوفل:

قدوس.. قدوس.. والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صـــدقتني يـــا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هـــذه الأمة وقولي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة فقال:

يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت.. فأخبره، فقال له ورقة:

والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقـــد جـــاءك النـــاموس الأكبر، الذي جاء موسى، ولتكذبنه، ولتؤذينه، ولتخرجنـــه، ولتقاتلنـــه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه منـــه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مترله)[1].

---

(١) إسناده صحيح: رواه ابن إسحاق: حدثنا وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعـــت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عميرة بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كـــان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة.. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق لم يدلس، ووهب تابعي ثقة.. انظر: تخريج أحاديث السيرة (١/٢٢٣) وسيرة ابن كثير (١/٤٠٢).

ليلة الحياة والقرآن

انصرف إلى مترله بعد أن حمل تفسير تلك الرؤيا.. لكنه لم ينقطع عن عبادة ربه.. واستمر على ما كان عليه فـ (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن يترع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[1].

كان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرحة نوراً يهمس: لا إله إلا الله.. أما ليله فتبتل وتضرع.. كأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة (حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣)﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني.. زملوني.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).

فزملوه، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة -وأخبرها الخبر- لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة:

كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة:

يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبر رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة بن نوفل:

هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟

قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1].

إذاً فهذه هي النبوة.. وهذا هو القرآن العظيم كلام الله يترل على نبيه.. كلام الله الذي علم بالقلم.. وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمي

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

مطراً ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك وأشواكه.. المحفور بالجهل والتخلف والسحر والشعوذة.. فيرويه حياة ونضارة.. ويمسك الإنسان المؤمن من جديد بزمام الخلافة في الأرض ليعمرها بالحب والعدل والسلام.. فقد تعبت البشرية من ملاحقة الأشرار لها بأسلحة الظلم والضلال. نزل القرآن فقام محمد ﷺ برسالة ربه.

أسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق.. وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ فكان أول من أسلم من الرجال.. لكنه لم يعش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[1] بعد أن زفر بتلك الأمنية.. وتمنى الشباب للكدح لا للمتعة.. للبذل والفداء لرسالة جديدة ونبي يتربص له الاضطهاد خلف أشجار مكة.. ويكمن له الظلم في طرقاها.. مات ورقة بعد أن حباه الله برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثاً عنه.. وقبع على قوارع المجهول ينتظره.. هذا بعض ما حدث على الأرض أما في السماء فهناك:

ثورة في السماء

فعندما نزل الوحي اشتعلت أرجاء السماء حمماً.. ولهيباً.. وشرراً يفتك برؤوس الشرك.. ومصانع الخرافة والضلال.. شياطين الجن الذين أرهقوا بعض البشر ودحرجوهم للحضيض.. كانوا (يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث جنوده، فوجدوا

(١)حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه، فأخبروه. فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض)[1].

إن الله قد وهب الجن قدرات لكن منهم شياطين أساؤوا استغلالها.. جعلوا يسترقون السمع.. ثم يلقون ما استمعوه في بركة من الكذب.. ثم يسقونها الكهان الذين يتصلون بهم ويتقربون إليهم.. فزادوهم رهقاً وتخويفاً.. وجعلوهم يرتكسون في الشرك والشعوذة.. والجن قبائل منهم الصالحون ومنهم الفاسدون.. و(لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع، فإذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا. فإذا سمعت الملائكة خروا سجداً، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى يترل، فإذا نزل قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فإن كان مما يكون في السماء، قالوا: الحق، وهو العلي الكبير. وإن كان مما يكون في الأرض من أمر الغيب، أو موت، أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به فقالوا: يكون كذا وكذا، فتسمعه الشياطين، فيترلونه على أوليائهم، فلما بعث النبي ﷺ دحروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأسرع الناس في أموالهم. فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يهتدون بها، وإلا فإنه لأمر حدث. فنظروا فإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شيء، فكفوا، وصرف الله الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، وانطلقت الشياطين إلى

---

(١) حديث صحيح. رواه أبو نعيم (سيرة ابن كثير ٤١٥): حدثنا الطبراني، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا الإسناد صحيح رجاله ثقات ولا يعكر صحته سوى عنعنة أبي إسحاق عمر بن عبد الله وللحديث شاهد وهو ما بعده.

إبليس فأخبروه، فقال: هذا حدثٌ حدثَ في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة، فقال: هاهنا الحدث)[1]. وهذه قصة أخرى يرويها ويروي مثلها رجل رموز قريش وأقويائها اسمه: عمر بن الخطاب:

كاهن وجنية

في يوم بعثته ﷺ.. كان لأحد الكهان ارتباطه مع جنية.. يتحدث الكاهن إلى عمر بن الخطاب عنها وعن فزعها في ذلك اليوم العظيم فيقول: (بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني، أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها
ويأسها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص وإحلاسها

فقال عمر رضي الله عنه:

صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول:

يا جليلح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله.

فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة، وابن سعد (١٦٧/١) والبيهقي. ورواية ابن أبي شيبة: محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وسند البيهقي: حماد بن سلمة عن عطاء، وسند ابن سعد: ورقاء بن عمر عن عطاء... وهذا الإسناد صحيح لولا اختلاط عطاء بن السائب في آخر عمره، لكن بعض العلماء قال: إن حماد بن سلمة قد سمع منه قديماً، وسواء كان ذلك أم خلافه فالحديث حسن بما قبله، لأن حديث عطاء جيد بالشواهد.

أن قيل: هذا نبي)[1]. لقد ثار الجن.. واضطربوا وحاروا.. وضاقت الأرض بهم والسماء.. وأمسى شبح المستقبل يتهادى خلف دخان الشهب الحارقة.. كالجريح يترنح بين آثار القنابل.. لقد أمسى مستقبل الشياطين مخيفاً مرعباً مجهولاً بعد نزول القرآن.. بعد بعثة هذا النبي ﷺ.

توقف الوحي

هذا النبي الذي انقطع عنه (وفتر الوحي)[2] فترة من الزمن.. أصبح بعدها في حيرة لا يدري ماذا بعد هذا النبأ.. ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته وما مهمته.. ولك أن تتصور أحاديث النفس ووحشتها في مثل ذلك الظرف.. لكن الوحي عاد من جديد.. وعادت معه الحياة.

عودة الوحي

يتحدث ﷺ عن ذلك الأمر الذي أخافه حتى وقع على الأرض فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فجئثت منه فرقاً، حتى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني.. زملوني.. فزملوني، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾)[3] قم وأزح عنك هذه الأغطية.. فما كان بالأمس حلماً جميلاً أصبح اليوم حملاً ثقيلاً.. قم يا محمد فالأرض قلوب خاوية.. وبطون جائعة.. واستبداد وسلاسل.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. مناقب الأنصار.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري. وأحمد (الفتح الرباني ٢٠٩/٢٠) واللفظ له.

(٣) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.

ها قد قام محمد ﷺ يحمل سطرين من القرآن.

سطران طالما بحثت عنهما أفكار البشر.. وصل من وصل وتعثر الملايين.. فهل هناك حياة دون علم دون قراءة.. دون كتابة.. دون نظافة.. دون ترك للأوثان ووحل الخرافة.. هل هناك حياة دون إقرار بأن هذا الخالق الكريم هو الإله الواحد العظيم.. ولا معبود سواه؟

كان هذا الأمر يتم بالخفاء يقوم به ﷺ سراً.. فالأمر جد خطير فللأصنام جيوش من الغضب مستعدة لنحر من يقترب منها ومن يعتدي عليها.. وتقديمه قرباناً لها.. وقد تناسلت في عقول القوم حتى أصبح الفرد يصنع صنماً يتبلغ به في سفره.. ولو اضطر إلى صنعه من تمرات هي زاده الوحيد.. فإذا ما عبث الجوع في بطنه.. قام يدس هذا الإله الرخيص في جوفه لكي يطارد ذلك الجوع المحرق.. يا ترى هل علم أن جوعه قد فتك بإلهه؟ لا أدري.

إن من بلغ بهم الحمق هذه الدرجة.. يصعب انقيادهم لهذا الأمر الجديد.. فقد عبثت الأهواء في عقولهم حتى أفسدتها.. فالعلاج يجب أن يبدأ بالعقل والفكر.. وأمام رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة ركام هائل من العادات والطقوس والتقاليد الموروثة.. يتداعى بعضها على بعض على مر السنين.. حتى أمست أساطيل من الأوثان والكهان والناس لها عبيد ذليلة قد حنت ظهورها ركوعاً.. فمن يريد رفع الرؤوس للسماء.. فعليه بالصبر والحذر الشديدين.. ولا بد من أن يُسِرَّ دعوته ويخفي اتباعه حتى من أقرب الناس إليه إذا ما أحس بخوف منه.. فهؤلاء القوم يفني بعضهم بعضاً من أجل ناقة.. فما بالك من أجل آلهة يذبحون لها آلاف النياق ليرضوها بزعمهم.. فليكن الأمر:

سرِّيَّة

السرية الشديدة يجب أن تحيط كل عمل يقوم به هذا الرسول الأمين ﷺ.. فعلى جدار التاريخ الطويل قد علقت رؤوس الأنبياء والمصلحين والدعاة.. وأعواد المشانق لا تزال رطبة بدمائهم.. ضريبة الإخلاص فادحة.. تكلف كثيراً.. تسفح الدماء.. لكن لهذه الدماء الزكية روائح وأطياف تعيش تنعش الأجيال.. وتبعث الحياة فيهم للخلاص.

والحق لا يخفى.. يعرفه الجميع.. عندما يرونه يقولون هذا هو الحق.. ولا يحتاجون لتمييزه إلى غسل أعينهم ولا إلى عركها.. فما سبب التأخر.. لماذا تثقل الخطى؟ السبب هو:

الوحوش

وحوش عملاقة تمتد داخل كل فرد منا..كأننا لها ثياب.. وحوش تتصلب حتى تشلنا وتعجزنا حتى عن الحبو نحو الحق.. إذا كان الحق يرفضها أو يريد إخراجها من ثيابها.. فأي مهمة أمام ابن عبد الله ﷺ وأي حذر يجب أن يتوخاه في ذلك العصر.. عصر الوحوش.

وهذا ما فعله ﷺ.. عندما بدأ بدعوته.. فقد أسلمت خديجة.. وأسلم ورقة.. وكتمت خديجة إسلامها.. ومات ورقة.. وبقي السر مكتوماً.. ولما أمر ﷺ ببدء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سراديب من الكتمان والتستر.. استمر يسير تحت الأرض يغرس في باطنها جذوراً قوية.. تؤتى ثمارها بعد حين.. بعد أن ترتفع على سطح الأرض.. عندها يستحيل انتزاعها أو إنكار وجودها.. وقد يقول قائل: إنك تبالغ في ذلك.. فالرسول ﷺ معروف لدى قريش.. وأصحابه معروفون.. ولم تكن دعوته

سراً في يوم من الأيام.. وأصحابه محميون من قبل قبائلهم وأهلهم.. فأين تلك السراديب.. والخنادق. أين الدليل على ما تقول؟ والإجابة عنـــدي واضحة كشعر الشمس الذهبي.

الإجابة عندي هي في مشكلة لم تحسم حتى الآن ألا وهي.. من أول من أسلم بعد خديجة.. أبو بكر الصديق أم علي أم غيرهما رضي الله عنهم جميعاً. أتدرون لماذا؟ دعونا أولاً ننظر إلى إسلام كل فرد منهم:

إسلام أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق.. اسمه: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة.. صـــديق الطفولة والشباب.. ذهب إليه رسول الله ﷺ.. وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء.. وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام. فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة. لقد قال: صـــدقت. أمـــا لماذا.. فلأنه لم يجرب على رسول الله ﷺ كذباً.. وهو الذي عاشره منـــذ الطفولة. لقد عرفه عابداً خاشعاً تاركاً للأصنام.. فهل سيكذب على ربه. لقد خلد التاريخ كلمة أبي بكر وحفظها لـــه.. ونال من رسول الله ﷺ شهادة تتناقلها الأجيال.

ففي أحد الأيام كان الصحابة أمام الرسول ﷺ.. وكان من بينهم أبو بكر.. ولعل أحداً منهم تناول أبا بكر فأغضبه.. فغضب ﷺ لأبي بكر.. وقالها ليس للصحابة فقط بل للأمة كلها.. للأجيال كلها: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)[1].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٦١)

ولما حوصر أبو بكر ببعض الكلمات.. أرغمه هذا الحصار على أن يزفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا)[1].

ولما سئل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب -ابن عم رسول الله ﷺ- عن أول من أسلم.. أرشد سائله إلى أبيات من الشعر قالها شاعر الإسلام حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعْدَلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا[2]

هذه الأبيات الشجية ملأت القلوب بأيادي أبي بكر ومبادراته لخدمة الإسلام.. لقد سمته الأمة بـ (الصديق) ونسيت الاسم الذي سماه به أبوه.. فإذا ما نطق أحد باسم (الصديق) انتصبت تلك الأيادي البيض المبسوطة في الأذهان. وتذكر الناس صديق نبيهم وحبيبه فترحموا عليه.

---

(١) حديث صحيح الإسناد، رواه الترمذي وابن حبان (سيرة ابن كثير ١٠/٤٣٤) من طريق شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال أبو بكر:...، وأبو نضرة تابعي ثقة، اسمه: المنذر بن مالك العبدي. انظر التقريب (٢/٢٧٥) وسعيد الجريري ثقة. التهذيب (٤/٧) لكنه اختلط قبل موته بثلاث سنوات، وهناك من رووا عنه قبل الاختلاط وبعده، وشعبة سمع منه قديماً فصح بذلك السند.

(٢) حديث حسن، رواه الحاكم (٣/٦٤) وابن أبي شيبة، ويعقوب بن سفيان (سيرة ابن كثير ١/٤٣٥) وقد رواه الحاكم من طريق، ورواه ابن سفيان من طريق آخر، وفي كل منهما ضعف ليس بالشديد، ففي طريق الحاكم: مجالد بن سعيد بن عمير وهو ليس بالقوي. وفي سند ابن سفيان تابعي مجهول، والطريقان يقوي بعضهما بعضاً.

إسلام علي

علي بن أبي طالب.. أحد فتيان الإسلام.. وابن عم رسول الله ﷺ.. وأحد السابقين إلى الإسلام.. هناك من يقول إنه أول من أسلم.. لكونه تربى في بيت رسول الله ﷺ.. لكنه ليس هناك حديث صحيح[1] يدل على أنه تربى في بيت النبوة.. لكن رسول الله ﷺ لم يكن منقطعاً عن علي.. أما أن يكون علي أول من أسلم فهذا ليس بصحيح لأن خديجة هي الأسبق.. هي أول إنسان قابله بعد انحداره من الجبل خائفاً.. لقد قال زيد بن أرقم: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه. أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)[2].

وقال ابن عباس:

(أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي. وقال مرة: إن أول من أسلم مع النبي ﷺ بعد خديجة علي)[3].

وقال بريدة:

---

(١) الحديث الذي ورد في ذلك من قول ابن إسحاق. البيهقي (١٦٠/٢) ومن قول مجاهد. المصدر السابق (١٦٢/٢).

(٢) إسناده صحيح. رواه النسائي في خصائص علي(٢)، من طريق شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم:... وهذا الإسناد صحيح. عمرو بن مرة: ثقة عابد (التقريب ٧٨/٢)، أبو حمزة اسمه طلحة بن يزيد الإيلي وهو ثقة، التهذيب (٢٩/٥).

(٣) سند حسن، رواه أحمد في مسنده (الفتح الرباني ٢١٤/٢٠) من طريق أبي داود الطيالسي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس. وهذا الإسناد جيد رجاله ثقات، عمرو بن ميمون مخضرم ثقة عابد. (التقريب ٨٠/٢) وأبو بلج حسن الحديث. التهذيب (٤٧/١٢)، واسم أبي عوانة: وضاح بن عبد الله اليشكري وهو ثقة مشهد، التقريب (٣٣١/٢/٢).

(وأوحي إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء)[1].

وهناك آخرون غير أبي بكر.. غير علي.. ظنوا أنهم أول من أسلم.. دعونا نستمع إلى أقوالهم.. دعونا نعرف أخبارهم.. ثم بعدها سنعرف سر ذلك الازدحام على الصدارة.

سابقون.. سابقون

لدينا سابق آخر هو: سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)[2].

ترى هل كان سعد رضي الله عنه ثلث الإسلام.. لا شك أنه يقصد أن خديجة ورسول الله ﷺ هما بقية أضلاع ذلك المثلث.. ثلثي الإسلام. وهو المكمل لهما.

حتى ذلك الغريب القادم من ديار غفار.. يطوي الأرض يبحث عن محمد ﷺ.. ذلك الغريب المسمى (بأبي ذر) يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)[3].

---

(١) رواه الحاكم بسند جيد، أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن يوسف بن مهيب، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، وهذا السند جيد، لصحة سماع أحمد للسيرة، ويونس حديثه قوي، ويوسف بن صهيب ثقة. التقريب (٣٨١/٢) ولعل المقصود في هذا الحديث. أوحي إليه بالصلاة.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٣) حديث حسن، رواه البيهقي (٢١٢/٢) والحاكم (٣٤١/٣): حدثنا الحسين بن محمد بن زياد وهو ثقة حافظ (التقريب ١٧٩/١)، حدثنا عبد الله بن الرومي نزيل بغداد وهو صدوق (٤٤٩/١)، حدثنا النضر بن محمد بن موسى الجرشي (ثقة – التهذيب =

عمرو بن عبسة سابق آخر. يقول: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[1].

أما بلال بن رباح.. فلا أعرف أنه قال عن نفسه ذلك.. لكن غيره شهد له بالمسارعة للإسلام.. هذا: عمرو بن عبسة يشهد بأن بلالاً كان ثلث الإسلام.. فقد قال للرسول ﷺ: فمن تبعك على هذا. قال: حر وعبد (يعني أبا بكر وبلال)[2].

وهناك غير بلال ممن هبوا لقبول الحق واعتناق الحقيقة.. شهد لهم بذلك التاريخ والروايات الصحيحة. هذا عبد الله بن مسعود يقول: (أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[3] رضي الله عنهم جميعاً.

عمار أحد هؤلاء يقول رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)[4]. هذه الكلمات كلها صادقة ثابتة ضاربة جذورها داخل أعماق الحقيقة.. لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها.. لماذا؟

= ١٠/٤٤٤) حدثنا عكرمة ابن عمار (وهو حسن الحديث) عن أبي زميل وهو سماك بن الوليد الحنفي اليماني (ليس به بأس ١/٣٣٢) عن مالك بن مرثد الزماني وهو تابعي ثقة، وللحديث شاهد بمعناه عند البخاري.

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٣) حديث حسن رواه أحمد (الفتح الرباني ٢/٢١٤) والبيهقي والحاكم، من طريق: زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن عبد الله بن مسعود، وهذا الإسناد جيد لولا كلام في زائدة بن أبي الرقاد، ثم إن له شاهداً من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً. ذكره ابن كثير (١/٤٩٤) وبه تقوى.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

ماذا يُتَوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد.. وشرف الآباء والأجداد.. والثارات.. وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف.. وفي مداخل البيوت.. وحتى في خرج المسافر.. وقبل ذلك كله فوق حجارة الكعبة.. تسال لها الدماء.. ويحلف بها.. وتستشار ويصلى لها.. ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها.

ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الأشياء بنبي يتيم.. كل ما يملكه: شهادة قومه بأنه: صادق أمين.. ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الجيوش بفرد أو أفراد يريدون أن يجتثوها من القلوب.. ويغسلوا الأرض والنفوس منها.

إن من أشعلوا أربعين عاماً بلهب الحروب.. وتركوا جماجمهم تمتصها الشمس والرمضاء.. وخلفوا نساءهم تنوح حتى أبكت الخيام.. من أجل بعير أو حصان.. إن من ارتكبوا ذلك لعلى استعداد لارتكاب أشرس من ذلك من أجل عقيدتهم وأصنامهم وميراث أجدادهم.. فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمةً بأسماء السابقين إلى دعوته.. ويأمرهم بالمجاهرة بها أمام قريش.. هكذا وبكل سذاجة.؟!

إن هذا النبي لم يأتِ لمكة فقط، إن مكة خطوة أولى.. والأرض كلها طريق.. إن هذا النبي جاء ليحيي أموات القلوب لا ليقامر بحياتهم.. لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته.. ويأمر أتباعه بهذا الكتمان والتستر.. والله قد أنطق له الأحجار.. وأمال عليه الأشجار وأظله بالسحاب.. وشق صدره دون أن يمس بأدنى أذى.. أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟.. بلى والله.. إنه على ذلك لقدير.. لكن دين الإسلام الجديد

عقيدة وحياة للبشر.. ولن تستقيم حياة البشر بالمعجزات ينتظرونها كلما أقعدهم الخمول على قوارع الطرقات.. ستستحيل الحياة انتظار.. وانتظار.. وعيون ترقب المجهول.. لم يخلد نبي.. ومحمد ﷺ سوف يموت.. وبعده ترفع المعجزات.. عندها الأمة أيضاً سوف تموت.. لكن دين الإسلام لم يمت ولن يموت.. لأنه وضع للبشر لم يكلفهم فوق طاقتهم... ولم يطالبهم بالمستحيلات.. ولم يدعهم إلى مثاليات.. لا يقول لهم: كونوا ملائكة.. ولا يقول: أنتم شياطين. بل يقول: كونوا بشراً لكن صالحين.. وفي الطريق عثرات.. والصالحون بشر يعثرون وينهضون.. والإسلام يرفع الإنسان من عثرته.. ولا يرتفع عنه لأنه نزل من أجله.. فبتوفيق الله ثم بجهد رسول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم سوف يستمر الإسلام.. سوف ينتصر.. ذلك هو ما أراده الله.. وبضعفهم ينحسر.. ويقبع في زاوية من الأرض كالمشلول.

وهنا وفي بداية الدعوة نبي يتيم.. ودعوة مستهجنة.. وأمة مجنونة بحب أصنامها.. ومواجهتها تعني الموت.. فلا بد للرسول ﷺ من تطبيق منهج ربه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سراً.. يطرق البيوت ليلاً.. يحمل النور إلى حجراتها.. وهكذا فعل ﷺ.. لقد كان يحدث أبا بكر رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان.. وإن دعا.. ويحدث علياً رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان.. وإن دعا.. وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع أبي ذر.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة مع غيرهم.. مع غيرهم..

إذاً فكيف سيعرف أبو بكر أن غيره قد سبقه.. كيف سيعرف علي أن هناك من دخل في دين الإسلام قبله.. كيف يقول سعد إن هناك من

أسلم.. في اليوم الذي أسلم فيه.. كيف سيعلم البقية.. ورسول الإسلام ﷺ يشير عليهم بكتمان دينهم حتى عن أقرب الناس إليهم.. وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده لولا أنها أوامر الله.. إنه لا ينطق عن الهوى.. فهل سيتصرف بدون أمر الله.. إنها سنة الله في عمل الأسباب وجعل نتائجها على الله.. وهذه بعض الأمثلة التي توضح سريته ﷺ وخوفه على دعاة الإسلام.

حر وعبد

هذا عمرو بن عبسة السلمي.. يمتطي راحلته نحو مكة.. فإذا ما احتضنته شعابها وجبالها.. جد في بحثه عن محمد ﷺ وفي ذلك يقول: (أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال ﷺ: أنا نبي. فقلت: وما النبي؟ قال ﷺ: رسول الله. قلت: الله أرسلك؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قلت: بِمَ أرسلك؟ قال ﷺ: بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وتكسر الأصنام، وتوصل الأرحام. قلت: نِعْمَ ما أرسلك به، فمن تبعك على هذا؟ قال ﷺ: حر وعبد -يعني أبا بكر وبلال-[1]. فكان عمرو بن عبسة يقول: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[2].

يا الله.. رجل غريب لا يضمر إلا خيراً.. جاء يبحث عن الحق.. فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه.. ويريد أن يستزيد.. أن يعرف أسماء هؤلاء الأتباع.. فلا يعطي أي اسم رغم أنه لا يخيف فهو ليس من أهل مكة.. لكن الرسول ﷺ يقول له: (عبد وحر) فقط عبد

(١) القائل عمرو بن عبسة وليس رسول الله ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

وحر.. لم يقل: بلال لم يقل: أبا بكر. الذي قالها هو عمرو بن عبسة.. عرف ذلك فيما بعد.. إن كلمة عبد وحر لباس يتسع ويمتد حتى ليشمل كل أحرار مكة وعبيدها.. وقفل عمرو بن عبسة راجعاً بدين الله.. لم يعده ﷺ بانتصار دنيوي.. لم يعده بمنصب.. وعده فقط بالجنة إن سار على الحق.. ولم يمكنه من شيء من أمور الدنيا حتى ولو كانت أسماء أصحابه التي قد لا تعني له شيئاً.. وعمرو بن عبسة لم يجد رسول الله قبل ذلك بسهولة.. لقد وصفه بأنه كان مستخفياً.. كان متستراً لا يظهر نفسه.. ولا يكشف أتباعه.. إن قريشاً شرسة.. كالموج، لكن محمداً ﷺ كان رباناً ماهراً.

الجهر بالدعوة

بعد فترة من الزمن لا أستطيع تحديدها[1].. جاء الوحي الكريم.. يأمره بالجهر بدعوته.. الجهر أمام الناس جميعاً بأنه نبي مرسل.. لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه خوفاً عليهم.. ولا من اتبعه ولا كيف اتبعوه.. لقد ظل ذلك مدفوناً عن العيون.. فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف.. ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيباً.

وقصة ذلك أنه عندما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2].

(انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجراً. ثم

---

(١) لأن الروايات فيها ضعيفة. وهي مقدار ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغاً بدون إسناد. ورواها ابن سعد (١/١٩٩) من طريق الواقدي -وهو ضعيف- عن القاسم بن محمد مرسلاً. وجاءت عروة مرسلاً أيضاً.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربؤ أهله، فخشي أن يسبقوه، فهتف: يا صباحاه)[1].

(يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها)[2].

(يا معشر قريش، اشتروا بأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[3].

مفاجأة لمعظم قريش.. ما الذي يحدث؛ و لم هذا التحذير؟ الكل مذهول.. الكل مأخوذ وعم رسول الله ﷺ:

أبو لهب.. أول مكذب

لقد جعل ﷺ (ينادي يا بني فهر، يا بني عدي: ببطون قريش)[4].

وسكتت بطون قريش كلها.. ألجمها هول ما يقوله الأمين ﷺ.. إلا رجلاً ركب رأسه كما ركبته الأصنام.. ذلك الرجل هو: أبو لهب عم

(١) حديث صحيح: رواه مسلم – الإيمان.

(٢) حديث صحيح: رواه مسلم أيضاً – الإيمان. أي سأصلكم لأنكم أقاربي.

(٣) حديث صحيح: رواه البخاري – الوصايا.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

الرسول ﷺ.. يحدثنا عما قاله ابن أخيه عبد الله بن عباس فيقول:

(لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا. فهتف:

يا صباحاه. قالوا:

من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه. قال ﷺ:

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي.

قالوا:

ما جربنا عليك كذباً. قال ﷺ:

فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب:

تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾[1].

وقف أبو لهب في أول الطريق.. وفتح ألسنة من اللهب على ابن أخيه الأمين ﷺ.. لكن هذه الألسنة أحرقته هو.. لقد بدأ أبو لهب المواجهة.. وبدأ التكذيب.. جحد تاريخ محمد الأبيض الذي شهد هو وقومه به قبل لحظات عندما صاحت مكة بصوت كالرعد يتبعه المطر: ما جربنا عليك كذباً.

ولم يكن أبو لهب لوحده في هذه الأولوية.. لقد شاركته أم جميل

(١) سورة المسد. والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان.

زوجته الترقة التي داست على أنوثتها ونافست الرجال شراسة.. لقد استحق هذان الاثنان تاريخاً أسود لا يزول أبداً.. ولعنة تلوكهم بها ألسن الأجيال.. يحملها جبريل.. سورة تشهد تخلف ذلك الرجل وزوجته وهمجيته.. واستحقاقه لنار ذات لهب. لكن أبا لهب لا يعيق الإسلام ولا نبيه.. ها قد توجه ﷺ لـ:

دعوة بني عبد المطلب فقط

كان هذا النداء لعشيرته ﷺ.. يعلن فيها رسالة ربه بأعلى صوته.. ويعلن بداية العزلة الشعورية بينه وبينهم إذا لم يتبعوه على هدى الله.. ثم توجه بعد ذلك النداء إلى أقرب الناس إليه.. لقد (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط[1] كلهم يأكل الجذعة[2]، ويشرب الفرق[3]، فصنع لهم مداً[4] من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر[5] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب فقال ﷺ:

يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي، فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه[6] -وكنت أصغر القوم- فقال:

---

(١) رجال أقل من عشرة.

(٢) الجذعة ولد الشاة. له سنتان.

(٣) الفرق مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلاً.

(٤) المد مكيال يساوي (١,٥) رطل أو رطلين.

(٥) الغمر: القدح الصغير.

(٦) المتكلم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو الذي روى لنا هذا الحديث.

اجلس -ثلاث مرات- كل ذلك أقوم إليه فيقول لي:

اجلس. حتى كان في الثالثة، ضرب بيده على يدي)[1] معلناً تفوق هذا الفتى على كافة رجال وشيوخ أسرة النبي ﷺ.. ومسارعته للحق وهو في زهرة الشباب.. في الوقت الذي تراجع فيه أعمامه وكبار السن من أسرته.. تخلفوا وترددوا.. وعجيب أمر ترددهم وتخلفهم فالمعجزة أمامهم تغمرهم.. تلجمهم إلجاماً.. هاهو الطعام لا ينقص.. وشراب الفرد يكفي العشرات.. وقبل ذلك صانع الطعام.. إنه محمد ﷺ الذي لم يجربوا عليه كذباً ولا غشاً.. فكيف وقد أتى ببرهان صدقه المعجز: مدٌ من الطعام لا يشبع فرداً واحداً.. يلتف حوله مجموعة من الرجال.. الفرد منهم يتربع أمام الجذع المطبوخ.. فلا ينهض إلا وقد التهمه كله.. ما الذي حدث حتى تقوم كل هذه المجموعة من فحول الرجال.. وقد شبعت من طعام قليل.. بل إنها لا تنقص منه شيئاً. تلك معجزة لا شك.. برهان على صدق ما سيقوله ﷺ لأسرته.. ومع ذلك لا ينهض منهم مساند إلا فتى.. هو أصغر القوم.. إنهم ليل.. وعلي كالصباح نضارة.

إذاً فقد أعلن ﷺ حربه على الشرك لا على قريش وأعلن أن:

الله وحده لا شريك له

لم تترك قريش محمداً يبوح بما كان يضمره في نفسه ونفوس أصحابه دون أن تطرح عليه أسئلة ملحة.. عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله

---

(١) إسناده قوي. رواه الإمام (الفتح الرباني ٢٠/٢٢٣) وعد من طريق: عفان، حدثنا أبو عوانة -وهما ثقتان، عن عثمان بن المغير، وهو ثقة، عن أبي صادق- وهو تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، وهو ثقة أيضاً، وقد بنيت في (موسوعة السيرة) سبب جرح الذهبي له، وبينت سبب العلة الحقيقي للرواية التي قصدها الذهبي (٢٤).

الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد وسحقها.

فقال لهم ﷺ وحياً ترتكز عليه كل الحقائق.. وتنطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسراره.. فيخشع الكون كله وهو يستمع لمحمد ﷺ يتلو حقيقة طالما أضاعها الإنسان فتاه في تلك السراديب: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1].

نداءان منه ﷺ في اجتماعين مع أهل مكة.. ومع أهله.. وضعت أرواح بعض السابقين في أكفهم.. دروعاً يحمون بها رسولهم ﷺ.. فلقد هانت تلك الأرواح في سبيل الله.. ولئن كانت الجنة هي المصير فلتذهب الدنيا غير مأسوف عليها.. ستة عمالقة جاهروا بإسلامهم.. ولم يأبهوا بما قد يلاقون من عنت: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[2].

ولئن لم تسعفنا الروايات في ذكر بقية لهم فلقد أسعفنا ذلك الاجتماع السابق بفتى صغير السن هو (علي بن أبي طالب) فلقد وضع يده بيد رسول الله ﷺ أمام أهله.. وكفى بتلك مجاهرة.

بدأ هؤلاء الأفذاذ يدعون لدين الله جهرة.. فأسلم بإسلامهم خلق كثير.. مما أقض مضاجع عباد الأصنام.. فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الصمد.

(٢) حديث حسن رواه البيهقي (٢/١٧٠) والحاكم (٣/٢٨٤) وأحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢١٤) من طريق زائدة، عن عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود وقال: أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر.. وفي سنده ضعف من أجل زائدة أبي الرقاد، فقد اختلف النقاد في الحكم عليه، لكن له شاهد يقويه ذكره ابن كثير وهو من طريق شعبة عن منصور، عن مجاهد مرسلاً. انظر سيرة ابن كثير (١/٤٩٤).

يحملون في أيديهم ألواناً من الأذى والعذاب لعله يتراجـــع.. ويتراجـــع أصحابه معه.

يؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة.. امرأة تدعى أم جميل بنت حرب.. زوجة أبي لهب.. انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ حشرهما هذه الآيات.. وضاق صدرها بهذا اللهب.. فخرجت كالمجنونة لا تلوي على شيء.. تبحث هنا وهناك.. في الدور والطرقات.. عن انتقام يخمد هذا الجمر في قلبها.. تبحث عن محمد ﷺ.. قصدت المسجد الحرام فرأت أبا بكر الصديق فأقبلت عليه (ولها ولولة، وفي يدها فهر[1]، وهي تقول:

مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا

والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، قال النبي ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال، وقـــرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخـــبرت، أن صـــاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولـــت وهـــي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها)[2].

---

(١) الفهر: الحجر.

(٢) حديث حسن بما بعده، فقد رواه البيهقي من طريق الإمام الحميدي، حدثنا الوليد بن كثير المخزوم (وهو ثقة من رجال الشيخين) عن محمد بن مسلم بن تدرس (أبي الزبير) عـــن

لقد كانت تظن تلك الآيات شعراً.. فقد قالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، ما شأن صاحبك ينشد في الشعر. فقال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، فما يدريه ما في جيدي. فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً، فإنها لن تراني، جعل بيني وبينها حجاب، فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحداً)[1] ثم عادت هذه المرأة إلى بيتها تحمل الفشل.. تحمل عارها.. وتحمل المزيد من الحطب والشوك تضعه في طريقه ﷺ.. تفتح الأبواب لسفهاء مكة ومراهقيها تخرجهم من منازلهم ليؤذوا معها رسول الله ﷺ.. ليحملوا معها مزيداً من الشوك والحطب.. ولما رأى صحابة رسول الله ﷺ ذلك حزنوا وتكدروا.. وقرر بعضهم الخروج من كتمانه والدفاع عن رسول الله ﷺ علانية.. فبدأ في مكة مشروع لـ:

تعذيب الصحابة

يقول عبد الله بن مسعود:

(أول من ظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم

=

أسماء، أبو الزبير ثقة لكنه مدلس وهو هنا قد عنعن و لم يصرح بسماعه من أسماء، فيكون في السند مقال، لكن يقويه ما بعده.

(١) رواه البيهقي (٢/١٩٦):... علي بن مسهر (ثقة)، عن سعيد بن كثير (ثقة) عن أبيه كثير ابن عبيد التيمي عن أسماء، وقد سكت عنه ابن حبان في ثقاته، فحديثه جيد في المتابعات وهذا منها، فالحديث حسن بما قبله.

المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)[1].

وعندما سئل عبد الله بن عباس ذات يوم:

(أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟) أجاب رضي الله عنه فقال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله. فيقول: نعم. افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)[2].

لقد افترش العذاب هذه الأجساد الطاهرة.. وطاب له المقام فغرز أنيابه بلا رحمة.. بلا شفقة.. يشرحها ويشرب من دمها.. وقهقهات السكارى والطواغيت حول هذه الأجساد المطروحة لا تجد من يخرسها.. حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئاً.. وكيف يفعل وهو لا يستطيع حماية نفسه من هؤلاء الأوغاد.. لقد اضطر الصحابة إلى اتخاذ إجراء يحمون به رسولهم.. فكانوا يتناوبون في حراسته ليلاً ونهاراً.. فالنهار لا يخلو من السفهاء والمتهورين.. والليل مثقل بخناجر الغدر يسددها المتلثمون.

---

(١) حديث حسن مر معنا تخريجه.

(٢) حديث حسن سنده جيد، فقد رواه ابن إسحاق فقال: حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد ابن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس:...، حكيم بن جبير فيه كلام حول تشيعه، وقد قال أبو زرعة: محله الصدق ثم تكلم على مذهب وانتقده، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له فهو حسن لذاته أو لغيره.

ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار.. أسرة ضعيفة فقيرة لكنها حرة.. ولما رفع ياسر الشيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والألم لمح رسول الله ﷺ فرأى الحزن والدمع في وجهه فهانت نفسه.. وهان العذاب أمام حزن رسول الله ﷺ وأحب أن يواسي رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه الرسول فقال: (يا رسول الله الدهر هكذا. فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)[1].

(أبشروا آل عمار، وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].

(اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)[3].

كأن ذلك الشيخ الساخر بالعذاب.. أراد أن يطمئن رسول الله ﷺ أنه لا يخشى السياط ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن هناك من سبقه.

أول الشهداء

إنها امرأة.. أول المسلمين كان امرأة.. أول اعتداء على رسول الله ﷺ كان امرأة.. وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة طاعنة في السن.. اقتادها رجل شرس يقال له أبو جهل.. فاق أبا لهب قسوة وغلظة.. هاهو يجر هذه

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد (الفتح ٢٠/٢٢٠).. عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد، عن عثمان. وعلة هذا السند انقطاع بين سالم وعثمان فسالم لم يدرك عثمان رضي الله عنه، لكن الذي بعده يقويه.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي (٢٨٢/١) مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، عن أبي الزبير عن جابر وهؤلاء الرجال ثقات، لكن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، وحديثه في هذه الحالة يحتاج إلى شاهد وهو ما سبقه.

(٣) حديث رواه الطبراني وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٣/٩) رجاله ثقات، وهو يقوي ما قبله.

المرأة المسكينة ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة.. ثم يرمي بها نحو الأرض.. رغم أنها امرأة عجوز ضعيفة.. وبعد أن سلخ جلدها بالسياط وحطم أضلاعها بالحجارة.. تناول رمحاً فطعنها به في موضع عفافها أمام زوجها وابنها.. ثم تركها تتخبط بدمائها حتى لفظت أنفاسها وروحها.

سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر هي تلك الشهيدة التي زحفت نحو الموت دون أن تتنازل لأبي جهل عن شيء من إسلامها. إنها كما قال جابر: (يقتلوها فتأبى إلا الإسلام)[1].

يسرقون الفقراء

سمية الراحلة.. لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة.. أرادهم قريش عبيداً.. فانتزعوا حريتهم بأيديهم.. عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك.. فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا. أحد هؤلاء حر اسمه: خباب بن الأرت.. كان عبداً.. فلما أسلم عذبه المشركون حتى تعبوا.. لكنه لم يتعب.. سرقوا دراهمه.. فصبر واحتسب فأنزل الله في ذلك قرآناً يخلده.. تتلوه الأمة كلها. يقول هذا الحر الأبي: (كنت رجلاً قيناً[2]، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أطلبه، فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث. قال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك.

فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[3].

---

(١) قطعة من حديث سابق هو حديث جابر، وهو حسن.

(٢) عبداً.

(٣) متفق عليه.

ولما ازداد إصرار خباب على هذا الدين وتمسكه برسول الله ﷺ، أخذه (فكان ممن يعذب في الله)[1] ليتراجع.. فلا يتراجع.. ليذهب ماله.. إنه لا يهمه.. لكنه شحيح بدينه كسمية بنت خياط فـ (لم يكن أحد إلا أعطى ما سألوه يوم عذبهم المشركون، إلا خباباً، كانوا يضجعونه على الرضف[2]، فلم يستغبوا منه شيئاً)[3].

لقد كشف خباب يوماً ظهراً لـه تقلب في جمر العذاب وتشقق من السياط.. كشف خباب ظهره لأصحابه فإذا البرص والألم ينتشر فيه كله.. وبعد أن أراهم تلك الآثار المحزنة.. التفت إليهم ثم قال: (لم يكن لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري)[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٤٣) بسند صحيح: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي أبو العباس وثّقهُ تلميذه أبو نعيم، انظر تذكرة الحفاظ (٢/٦٦١)، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة. انظر التقريب (١/٣٠٢)، حدثنا سفيان ابن عيينة عن مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة وهو أحد الأعلام الثقات. انظر التهذيب (٨/٤٠٣) عن قيس بن مسلم وهو ثقة أيضاً. التقريب (٢/١٣٠) عن طارق بن شهاب، وطارق بن شهاب روى عن الصحابة ورأى الرسول ﷺ.

(٢) الحجارة الحامية.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/١٤٤) بإسناد صحيح: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس ابن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شعبة، وهما إمامان معروفان، حدثنا أبو إسحاق وهو التابعي الثقة. وقد صرح بالسماع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب، قال: قال خباب...

(٤) رواه ابن سعد (٣/١٦٥) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن مجالد عن الشعبي قال:..، وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن لـه شواهد كثيرة ترفعه إلى درجة الحسن.

وقال خباب مرة وهو يحكي مأساته مع مجرمي مكة: (أوقدوا لي ناراً، فما أطفأها إلا ودك[1] ظهري)[2].

كان خباب يقول ذلك لمن حوله يحمل شهادته ومعاناته على ظهره وذلك عندما تحدث الجميع عن مأساة أخيه بلال.. وتلك الخطوط التي رسمها في طرقات مكة بجسده العاري عندما كان سفلة قريش يسحبونه هنا وهناك.. ولم يستطيعوا أن يسحبوا كلمة إذعان واحدة ترضي طواغيت مكة.. كان بلال المنحدر من شلالات أفريقيا وأنهارها شجاعاً كأُسُودِها.. سخياً كسهولها.. ساق القدر أمه وأباه إلى مكة.. وولد كالليل مليئاً بالأسرار والحزن والعبودية.. هموم تملأ قلبه.. وقيود تحز رقبته وآدميته.. كانت حياة آسنة عكرة لا بشائر فيها.. حتى سمع برسول الله ﷺ فوجده يحمل ما كان يبحث عنه.. الحرية والعدالة.. كم تشققت قدماه وهو يبحث عنها فلم يجد عند قريش والعالم إلا سراب.. ووجد الحقيقة والحلم عند محمد ﷺ.. فماذا ينتظر.. لقد أدرك أسرار القوافل التي تمر بهذه الدنيا ثم ترتحل.. وأدرك أين تستقر.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تتبخر.. ومهما طالت فلن تدوم وأن الحياة هناك: خلف السحاب خلف السماء في مدائن الجمال والسحر والبهجة الخالدة.. في جنات عدن.. أو بين أنهار الحميم والنتن والعذاب المقيم وله الخيار.. اختار بلال الرحمن.. ولفظ الشيطان من حياته وتصدى كجيش من حديد لتعذيب قريش.. (هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)[3].

---

(١) الودك هو الشحم.

(٢) رواه أبو نعيم (الحلية ١/ ٤٤) عن الشعبي قال: سأل عمر بلالاً.. وظاهر هذا السند الإرسال. لكن يشهد له ما سبق.

(٣) مر معنا وإنه حديث حسن.

هذا هو بلال الجديد رفض أن يقضي حياته منحنياً لسوط وحجر.. كان يرمي جسده كأنه يقول خذوه فهو لكم.. لكنكم لن تنالوا من روحي وإرادتي شيئاً ما دمت مع الله.. فالروح لها طريق لا تعرفه قريش ولا أصنامها.. طريق فسيح لا تردمه الجبال.. طريق طاهر لا تمسه أيدي المشركين.

كانت مأساته مع قريش دامية مؤلمة.. وكان منظره يذيب الصخر وهو يسحب في دروب مكة وشعابها.. يلعب به الصبيان والسفهاء.. وهو يسقط المرة تلو المرة من الإعياء.. ثم يضطر إلى الوقوف مرة أخرى من لسع السياط والعصي على رأسه وجسده.. كان المسلمون حوله يتحرقون عليه لكن ماذا يفعلون وهم ليسوا بأحسن حال منه.. حتى أشرقت شمس الحرية يوماً يحملها أبو بكر الصديق الحنون فقد تقدم نحو مالك بلال.. نحو المجرم: أمية بن خلف فعرض عليه شراءه.. فوافق الطاغية بعد أن كلت يداه وقدماه من الصفع والركل والضرب فلم يظفر بشيء من ذلك العملاق المتلبط بين السياط.. ودفع أبو بكر الثمن.. وقبض المجرم وتوجه أبو بكر نحو ساحة التعذيب يمد يده لينتشله.. فكيف كانت حال بلال.. وعلى أي صورة وجده.. هذا هو قيس بن أبي حازم يروي لنا آخر فصول المأساة البلالية فيقول: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة)[1].

---

(١) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/٣٤) انظر سير الأعلام النبلاء (١/٣٥٣) من طريق حامد بن يحيى، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل عن قيس وهؤلاء الرجال على درجة من التوثيق كبيرة، فحامد بن يحيى بن هانئ البلخي قال عنه الحافظ في التقريب: ثقة حافظ (١/١٤٦) وسفيان بن عيينة إمام معروف، أما أستاذه في هذا الحديث وهو إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي فهو ثقة ثبت تجد ذلك في التهذيب (١/٦٨) وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، رأى رسول الله ﷺ، وهو ثقة مقبول. انظر التقريب (٢/١٢٦).

هذه هي مترلة بلال الإنسان عند هؤلاء الملحدين.. إما أن يختار ما اختاروه له فيكون كادحاً طوال الليل والنهار مهاناً ذليلاً.. وإما أن يرفض إرادهم ويسلك دروب الدعاة فيدفع الثمن باهظاً.. أكوامٌ من الحجارة تغطي جسده المنهك.. وشمسٌ لاحفة تحمي عليه تلك الحجارة وتزيد في تعذيبه وإيلامه.

مد أبو بكر يده إلى هذا المسكين لتنتفض عنه قريش والحجارة.. مد أبو بكر يده لأخيه بلال لا لعبده بلال.. فلقد اشتراه ليحرره من قيد العبودية والمهانة.. ليطلقه في البيداء وفي السماء.. يشرب الماء عذباً.. يتنفس الهواء نقياً.. ويعبد ربه أينما شاء.. بعد أن كان يكد ويكدح طوال يومه دون مقابل.. دون أجر أو كلمة شكر..

لقد قدم بلال تضحيات وتضحيات.. وها هو اليوم.. حر وسيدٌ من سادات الإسلام.. بشهادة أحد أعظم رجالات الإسلام حيث يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا) أما لماذا فلأنه اختار طريق محمد ﷺ وصبر مع محمد ﷺ.. لقد كان يجوع يوم يجوع رسول الله ﷺ.. ويتألم عندما يتألم ويجعل من جسده درعاً أمام الرماح الموجهة إلى نبيه.. كان يخاف على رسول الله ﷺ أكثر مما يخاف على نفسه.. إنه باختصار: يحبه أكثر من نفسه.. وهذا ما جعل الدنيا كلها تحب بلالاً وتجله.. لقد كان رسول الله ﷺ يتحدث بنفسه عن بطولات بلال رضي الله عنه.. عن معاناته فيقول:

(لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون -من يوم وليلة-، وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)[1]. لقد حولت عقيدة الشرك قريشاً إلى كتلة من

(١) إسناده صحيح. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، انظر سيرة ابن كثير (٤٧٢/١)، كلهم =

العنف والحقد والبخل.. هكذا تعامل قريش ابنها البار.. وابن سيدها وسيد العرب الكريم.. تحشد له الشوك والسياط والجوع والخوف.. حتى يمر به الشهر حزيناً لا يحمل إليه سوى لقمة يشاطرها بلال في وقت يتقلب فيه زبانية قريش في أنواع الملذات دون أن ينغص عليهم أنين المؤمنين تحت أقدامهم وسياطهم.. أو يحرك عواطفهم.

لقد كانوا مجرمين

يحملون المال والجاه والحسب والنسب والسياط.. لكن أيديهم وعقولهم خالية من الحجة والمنطق والحقيقة.. ليس لديهم سوى أشياء.. ورثوها عن آبائهم.. فيها اختلط الحق بالباطل دونما تمييز.. أما محمد ﷺ فقد جمع الحق كله.. ورفض الشر كله.. فكانت النتيجة أن صادموه عندما أراد أن يطهرهم ويشدهم من مستنقعات الرذيلة التي يرتكسون فيها.. وكان يقود ذلك الصدام مجرمون.. تفننوا في التعذيب والسحل والتنكيل.. كان من هؤلاء عم رسول الله ﷺ: أبو لهب.. وكان منهم أمية بن خلف.. وعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة.. وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.. لكن هناك من يتفوق على هؤلاء كلهم قسوة وشراسة: رجلان هما: عمرو بن هشام (أبو جهل) ورجل آخر.. أما أبو جهل فكان جباراً شقياً يتلذذ بتعذيب المؤمنين.. حتى بلغ من قسوته أن طعن سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر بحربة في موضع عفافها حتى لفظت أنفاسها والحياة.. طعنها وهي المرأة الضعيفة الرقيقة.. إنها لم تشتمه.. ولم تسبه إنما قالت: لا إله إلا الله.

=

من طريق: حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وهو على شرط مسلم من أجل حماد بن سلمة، وهو أوثق الناس في شيخه ثابت.

لقد علمنا التاريخ دروساً عديدة.. وما زال يعلمنا أن للطغاة موقفاً من المؤمنين الدعاة عجيباً.. هذا الموقف يقول: (من كان داعية فهو عدوي)، وقد يكون الطاغية مخيراً أو مسيراً أو ساذجاً.. لكن هذا الموقف لا يتغير. ومن يعير سمعه وبصره للتاريخ والأيام.. يجد المشانق والزنازين تئن أمامه من رقاب الدعاة وأجسادهم الطاهرة.. حتى رياح الحرية التي تهب أحياناً على الشعوب نراها تمر على الجميع وتستثنى الدعاة فهم ينتزعونها انتزاعاً بدمائهم.. ويمنحونها للجميع حرية للبشر للشجر.. لكل من حوته السماء وساح على وجه الأرض. و لم تكن سمية بنت خياط أول الشهداء ولا آخرهم.. ولا كان أبو جهل أول المتسلطين ولا نهايتهم.. كان هناك رجل يزاحمه ينافسه اسمه:

عمر بن الخطاب

لعلكم تذكرون ذلك الرجل العظيم: زيد بن عمرو بن نفيل.. هذا الرجل له ولد عظيم مثله اسمه سعيد بن زيد.. تزوج سعيد من أخت عمر ابن الخطاب.. فكان من السابقين إلى الإسلام.. سمع من رسول الله ﷺ فوجد الحقيقة ووجد نفسه.. ودعا زوجته -وهي أخت عمر بن الخطاب- فآمنت بما آمن به.. فكانت أسرة صغيرة سعيدة بالحب والإيمان والبهجة.. وبعد فترة تسرب الخبر إلى عمر بن الخطاب.. فتطاير الشرر من عينيه ويديه.. وبدأ بتعذيب أخته وزوجها.. فما حدث عار على ابن الخطاب ولن يسمح عمر للعار أن يدخل بيته.. لكن أدوات عمر فشلت.. فالقلوب لا تدخلها السياط والمبادئ لا يثنيها الحديد.. وعمر لا يملك من أدوات الإقناع والحوار سوى بسطة في الجسم وحفنة من السياط والعصي الغليظة.. أحضر الأغلال والحبال.. وقيدهما، وفي ذلك

يقول سعيد بن زيد: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)[1] هكذا كان عمر.. وهذا ما تفعله قريش بأطهر أبنائها المؤمنين. وليس لدى الضعيف المظلوم سوى الدعاء:

دعوة نبي مضطهد

أطال ﷺ التأمل بين صحابته.. يفتش عن أحد.. لكنه لم يجده.. لقد وجد أتباعاً مضطهدين.. مغلوباً على أمرهم.. يتحملون كثيراً.. لكن إلى متى.. إلى متى وهم يتدسسون.. يخفي بعضهم بعضاً كأنما ارتكبوا جرماً.. كان يفتش عن شخص جبار تهابه قريش.. فتتراجع أمامه قليلاً.. لعل فسحة من الحياة المشروعة تتسع له ولأصحابه.. فيستمتعون بها كما يستمتع غيرهم.. ويعبدون الله وهم آمنون.. لكن الطغاة لا يرحمون.. إن البهائم والطيور تطوف في مكة آمنة.. أما محمد ﷺ وصحبه المساكين.. ففي الشعاب هائمون.. يأتي إليه خباب بن الأرت يحمل جلداً مسلوخاً وجروحاً نازفة وهماً كالجبال.. يأتي إليه خباب المسكين وقد لقي أشد العذاب من المشركين. فيقول: (يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)[2].

ليس هناك سوى الصبر يا خباب.. هذه هي حياة الأنبياء وأصحابهم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٦٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٥٢).

وأتباعهم.. إن احمرار وجهه ﷺ لم يكن لعدم مشروعية الدعاء.. بل كان لهباً يذهب ما قد يعلو في نفوس أصحابه من الملل والضيق.. إن هـذا الاحمـرار يقول: إن كل ما يقدمه الداعية في سبيل الله من تضحية.. من مـال.. مـن جهد.. رخيص.. رخيص في سبيل الله.. إنها الجنة يا خباب.. فلا عجب أن مشط الأنبياء السابقون وأتباعهم بأمشاط الحديد.. ونشروا بالمناشير.. فقـد كانت الجنة في قلوبهم.. أما الدعاء فمشروع في كل لحظـة.. فالـدعاء في الإسلام (هو العبادة)[1].. حتى الأماني التي تجول في الخواطر تسيل عنـد الله في مجرى الدعاء الجميل المحبوب.. حتى الأماني الحلوة حَوَّلَهـا الإسـلام إلى عبادة.. يقول ﷺ: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه)[2] وسأل محمد ﷺ ربه.. دعاه وتضرع إليه أن يرزقهم ما يبحثون عنه.. رجلاً يعز الله بـه الإسلام.. وكانت أمنيته ﷺ تحوم حول أقسى رجلين وأشرسهما في مكـة كلها على المؤمنين.. توجه ﷺ إلى ربه ضارعاً وقال: (اللهم أعـز الإسـلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطـاب)[3] فقد بخلت مكة وشحت.. وضاقت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. ولم يكن هناك متسع للحياة فيها.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن ولا حرام.. ألم تر إلى أبي جهل يقول: (لئن رأيـت محمـداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)[4].

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (٢/١٥٠).

(٢) حديث صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير (١/١٧٨).

(٣) إسناده حسن رواه البيهقي (٢/٢١٥) وابن سعد (٣/٢٦٧) وأحمد (الفتح ٢٠/٢٣٠) من طريق أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة (التقريب ١/٥٢١) أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسن الحديث (التهذيب ٣/٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب)[1].

حبيب الله ﷺ يهدده هذا الجعظ بأن يطأ على عنقه الطاهر.. فماذا ينتظر البقية سوى الموت. أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أطهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها.. لكن هل البقاء فيها من أركان الإسلام.. هل يتحتم على المسلمين أن يربطوا مصيرهم بمكة وقد ضاقت بهم.. وحاصرتهم جبالها.. وكشرت ودياها وشعاها.. هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم.. وكعبة ربهم تئن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية؟.

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء واضحة لا غموض فيها.. الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن.. لا يرتبط بشخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.

إنه من السعة بحيث تستطيع أن تضع هذا الكون كله في زاوية من زواياه.. ومكة جزء من هذا الكون.. الإسلام لا يرتبط بمكة.. ولا بفلسطين ولا ببقية أراضي الأنبياء مهما كانت.. فلا حرج على هؤلاء الضعفاء من المغادرة والهجرة من أكرم بقاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها لكن إلى أين؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله امرأة مسلمة تدعى: أم سلمة (هند بنت أمية) التي عذبت هي وزوجها مع سائر المؤمنين لأنهم يقولون لا إله إلا الله.. تقول أم سلمة رضي الله عنها:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه، ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلَم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً)[1]. كان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً يحمل الصليب على صدره لكنه كان عادلاً.

أرض بلال تجود مرة أخرى.. وشلالاتها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم وتطهر جرحهم من أشواك قريش ورماحها.. لكن لماذا الحبشة؟ هل لأنها أرض النصارى.. والنصارى أهل دين نزل من السماء كالإسلام تماماً.. ربما.. لا سيما وجزيرة العرب غابة من الأصنام.. وأرض فارس تتأجج ناراً تحرق أهل فارس.. وتحرق فطرتهم وتذيبها كلما ركعوا لها أو تمسحوا برمادها وتمرغوا.. ربما كانت في هذه بعض الإجابة.. لكن الإجابة المؤكدة هي ما قاله رسول الله ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) إذاً فهو العدل والعدل فقط.. وقريش قد فرغت جيوبها وقلوبها من العدل.

ابتسم المتسلطون وهم يرون هؤلاء الفقراء يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة تبللهم الدموع ويتقلب الجمر في أكبادهم.. يتركون بيوتهم.. يتركون نبيهم ﷺ وإخوانهم يتلبطون بين السياط.

---

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق، (سيرة ابن كثير ١٧٢/٢) فقال: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، عن أم سلمة رضي الله عنها، وابن إسحاق لم يعنعن بل صرح بسماعه من شيخه الإمام المعروف: الزهري، وشيخ الزهري هنا هو تابعي ثقة فقيه معروف. التقريب (٣٩٨/٢).

فرح الطغاة والمتسلطون كلهم إلا واحداً كان يرقب المشهد بعمق يقف ملجماً بالحزن.. مثقلاً بالندم.. ينظر إلى ضحاياه.. يتأمل مطاياهم وهي تتمايل مغادرة مكة فتنتزع من قلبه بعض قسوته وعروقه.. كان صامتاً يخاطبه الندم ويقول له:

ماذا فعلت يابن الخطاب.. وماذا جنت يداك.. ويحك يا عمر إنهم أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم.. ألا يلين قلبك لهذا المنظر.. نساء حزانى.. وشباب حيارى.. وأطفال لا ذنب لهم.. ورجال كرام أهنتهم وشردتهم وضيقت عليهم حتى ملوا الحياة.. وهم الذين كانوا يكرمون الضيف.. ويحنون على الضعيف.. إلى أين ألجأتهم يا عمر؟ إلى بحر يتقلب بهم.. أم إلى أرض لا يعرفون بها أحداً.. ماذا سيكون مصيرهم.. أنت لا تعرف وهم لا يعرفون.. هل خلقت بلا قلب يا عمر؟ تقدم أيها القاسي وقل شيئاً يخفف من لوعتهم.

وتقدم عمر.. وتحرك قلبه وتحركت شفتاه في هذا المشهد المعبر الذي ترسمه لنا أم عبد الله زوجة عامر بن ربيعة بقولها:

(كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة. جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعير نريد أن نتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟

فقلت له: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله [والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً][1].

---

(١) هذه الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

[ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا].

ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ابن الخطاب فقال: ترجين يسلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب -وهذا من شدته على المسلمين- ثم رزقه الله الإسلام)[1].

وتحركت المطايا والقلوب تلوح لمكة.. وركب المعذبون البحر.. وارتفعوا مع الموج وانخفضوا حتى قذفتهم المراكب على سواحل الحبشة فرأوا الأمان وتلمسوه فعانقوه وارتاحت قلوبهم.. واستراحت أبدانهم من شراسة قريش.. أما رسول الله ﷺ وبقية أصحابه فمكثوا في مكة يمشون على الأشواك.. ويحثى عليهم التراب.. ويبصق في وجوههم.. لكنهم لا يتراجعون يدعون ويدعون.. ويكثر أتباعهم كل يوم.. فتضطرب قريش من هذا الدين الذي يشتد عوده كلما اضطهد وعذب أتباعه.. كأنهم يقتاتون الشقاء والمعاناة.. يحتسون المرارة.. فيزدادون صفاءً وتألقاً.. هذا عبد الله بن عمرو بن العاص.. يحدث رجلاً ويخبره عن أشد المناظر فظاعة.. أشد مناظر قريش قسوة وهي تنال من رسول الله ﷺ فقال: (لقد رأيتهم -وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر-، فذكروا رسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا[2]، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم.. أو كما قالوا.

---

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣٣/٢) (والمغازي والسير لابن إسحاق واللفظ له ١٨١)، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلى. وسندها فيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز بن عبد الله فهو يحتاج إلى توثيق فقد سكت عنه ابن أبي حاتم (٣٨٥/٥) وابن حبان الذي أورده في الثقات (١١٥/٧) لكنني أوردتها لأنه تابعي كبير ولأنه يروي هذه القصة عن أمه - جدته.

(٢) عقولنا.

فبينا هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن, فلما مر بهم طائفاً بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر(١) واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه(٢) أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينا هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبكي دونه)(٣) وذكر عبد الله بن عمر اسم ذلك الجلف فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط -ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة- فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول

(١) أي أنهم قد سكتوا وخيم السكون عليهم.

(٢) يداريه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٢٧٥)، حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه عروة قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وهذا السند قوي: ابن إسحاق لم يدلس، ويحيى بن عروة ثقة. انظر (التقريب ٢/٣٥٤).

الله ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[1].

ووصف عبد الله الحارث مرة فقال:

(ما تنول من رسول الله ﷺ شيء كان أشد من أن أطاف بالبيت -ضحى- فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا. فقال ﷺ: أنا ذاك. فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من ردائه ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)[2].

كل هذا ورسول الله ﷺ يتجرع مرارة الأذى صابراً.. فالدروب حوله أمر.. ولا بد من المعاناة.. فقد بعث ليبعث الحياة في نفوس مريضة.. ليلتقط أشلاءها الممزقة.. أشلاءها المبعثرة.. ليجعل من هؤلاء الجفاة شموس حضارة تمنح الضياء للعالم.. ولا بد أن يكون في دربه قلوب مطموسة.. وصخور عناد قاسية.. مشركون تكومت في قلوبهم أسباب النقمة وبين أيديهم سبل الانتقام.. لن يتورعوا عن ارتكاب الحماقات مهما كانت فادحة.. وسيتلذذون بذلك.. وسيشربون الخمر بهجة بانتصار مزيف.. لكن كل ذلك سيتلاشى مع الليالي والأيام والصبر والمصابرة.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. كتاب الفضائل.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي (٢/٢٧٧) من طريق العباس بن محمد بن حاتم، وهو ثقة (التهذيب ٥/١٢٩) حدثنا ابن مخلد وهو صدوق (التهذيب ٣/١١٦) حدثنا سليمان بن بلال وهو ثقة (التقريب ١/٣٢٢) حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله.. وهشام ووالده ثقتان مرا معنا كثيراً فالسند صحيح.

الإيمان في الشدة والأزمات عمود نور كلما ضرب توغل في شغاف القلوب.. الإيمان مطر تنشره رياح الحرية في الأرض.. فإذا قلوب البشر قد اهتزت وربت وأنبتت فيها الحياة العذبة الجميلة.. هذا رسول الله ﷺ يفر من مكة.. ويلوذ بالفرار معه أبو بكر.. تطاردهما وحوش قريش وسفهاؤها.. فيجدان الأرض خارج مكة أدغالاً من الخوف والرعب.. صحارى وعطش ورمضاء وعرق.. هذه الشدائد وهذه الأزمات الحرجة تشققت عن مولود إسلامي عظيم أصبح أحد رموز هذه الأمة وعلمائها رمز يدعى:

عبد الله بن مسعود

يقول رضي الله عنه:

(كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر -وقد فرا- من المشركين فقالا: يا غلام، عندك لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم يتر عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا..، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقاني، ثم قال للضرع، اقلص. فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب -يعني القرآن- فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد)[1].

إنها لمعجزة أن يدر ذلك الضرع باللبن ثم يقلص.. كذلك الإسلام..

---

(١) إسناده حسن، رواه البيهقي (١٧١/٢) وأبو داود الطيالسي (سيرة ابن كثير ٤٤٤/١) من طريق: حماد بن سلمة وهو ثقة وإمام معروف، عن عاصم بن بهدلة، وهو حسن الحديث. انظر التهذيب (٣٨/٥) عن الثقة المخضرم زر بن حبيش. فالسند بذلك حسن.

معجزة فقد جعل من رويعي الغنم عالماً عظيماً.. في وقت كان زبانية قريش ينتظرون خبر موت محمد وصاحبه خارج مكة.. ولئن كانت مكة لا تأبه كثيراً لإسلام عبد الله بن مسعود لأنه في نظرهم مجرد راعي غنم قصير القامة.. ضعيف البنية.. دقيق الساقين جداً.. إذا كانت قريش لا تأبه لإسلام ابن مسعود فالإسلام يأبه كثيراً بابن مسعود ويوظف قدراته العقلية.. الإسلام يحتفي بهذا المسكين كاحتفائه بـ:

إسلام حمزة

إذا كان ابن مسعود الضعيف قد أسلم خارج مكة ورسول الله ﷺ هارب من تعذيب أهلها له.. فإنه قد قيل إن حمزة بن عبد المطلب ذلك الأسد الفاتك.. عم رسول الله ﷺ قد أسلم أيضاً بعد عملية اضطهاد لرسول الله ﷺ (كان إسلام حمزة حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا.. وكذا، ثم ينطلق إلى مترله، فأقبل من رمية ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة، ماذا ألقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام: شتمه وتناوله، وفعل وفعل، فقال: هل رآه أحد. قالت: أي والله لقد رآه ناس فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا.. وكذا وفعلت كذا.. وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله. قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت أفضل منه ما أقررناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً)[1].

---

(١) أقول: قيل لأن الرواية لم تثبت عندي، فهي مرسلة عند الطبراني، معضلة عند كل من: ابن

قد تكون هذه هي قصة إسلام حمزة وقد يكون لإسلامه قصة أخرى.. الله أعلم.

وسواء كان ذلك الذي حدث أم لا فإن إسلام حمزة كان نصراً هز مكة من أقصاها إلى أقصاها.. فالأمر يبدو خطيراً.. والأقوياء الذين كانوا يخشون من زوال سمعتهم وما تجنيه لهم تلك القوة من أضواء بدأوا ينضمون إلى صفوف المؤمنين ويزيدونها قوة.. فقد أدركوا كم هم ضعفاء أمام قوة الإسلام.. أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه.. فهل من سبيل إلى خروج من هذا المأزق الذي ألجأهم الإسلام إليه.. هل من مهرب قبل أن يجدوا أنفسهم غرباء خارج مكة مهزومين أذلاء.

المفاوضات بعد إسلام حمزة

لم يصدق عتبة بن ربيعة أن حمزة أصبح اليوم مع ابن أخيه.. درع يحميه.. سيف يشق به صفوف قريش.. سيصعب الوصول إليه وحمزة معه.. ها هو ابن أخيه يصلي دون خوف عند الكعبة.. اغتاظ عتبة أحد أسياد مكة مما يحدث.. (فقال يوماً وهو جالس في نادي قريش -ورسول الله ﷺ في المسجد وحده-: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حين جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم،

=

إسحاق، وابن أبي حاتم، والطبراني أيضاً، انظر مجمع الزوائد (٩/٢٦٧) والسيرة الشامية (٢/٤٣) فهي ضعيفة.

وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد.. أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال رسول الله ﷺ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ

أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ
صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ
قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا
كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ
ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم
مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ
ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا
ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا
تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾
نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ
إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا

﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾[1] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال:

قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد. قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم)[2] لقد هزت الآيات قلبه لكنها

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١ـ٣٨ والآيات التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

(٢) حديث حسن، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢٦٢/١) بسند صحيح مرسلاً: حدثني يزيد ابن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش..

ويزيد ثقة وهو مولى عبد الله بن عياش. التهذيب (٣٢٨/١١) وكذلك محمد بن كعب فهو تابعي ثقة. لكنه لم يذكر اسم من حدثه قد يكون صحابياً، وقد يكون تابعياً. لكن للحديث شاهدان يتقوى بهما. الأول عند عبد بن حميد (ابن كثير ٥٠٢/١) وفيه ضعف يسير. من أجل رجل لم يوثقه إلا ابن حبان وهو الذيال بن حرملة. وشاهد قصير عند ابن =

وجدته صخراً.. أما عقله فقد أدرك سحر هذا القرآن وأثره.. لكن أنياب العادات والتقاليد وبقايا سمعته كانت مغروزة فيه.. وهو أضعف من أن يتخلص منها.. فهو في ريبة يتردد لا يجد له استقراراً.. في نزاع بين ما هو صحيح وبين ما يهواه.. وأخيراً دحرجته جموع الكفر إلى الكفر.. دحرجت قلبه الصخري على عقله فانطمس ولبث في عماء حتى ألقي مكفناً بالشرك والعفن.. أما محمد ﷺ فأعلنها:

لا تنازل

هذا هو مبدأ سيد البشر ﷺ وإمام القادة.. لا يقبل إطلاقاً أي تلفيق في المنهج.. لا جسور في العقيدة بينه وبين الكفر إطلاقاً.. لقد نثروا بين يديه خيارات مغرية.. الزعامة.. والمال والسيادة عليهم وهم سادة العرب شم الأنوف في الذرى بين الجميع.. لكنه ﷺ رفض ذلك كله.. كان بإمكانه أن يتزعمهم ثم ينقلب عليهم إذا اشتد عوده وكثر أتباعه.. كان بإمكانه أن يعقد هدنة معهم ثم يأخذ من المال ما يتيح له أن يعد جيشاً من المرتزقة يحطم به أعداء الله.. لكنه الأمين.. والأمين يقول: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)[1] ولن يخون ﷺ مسلماً ولا كافراً ولا مشركاً مهما كانت الأسباب فالأمر عقيدة.. والقيادة عقيدة عند رسول الله ﷺ.. فإما أن تكون لله أو تكون للشيطان.. ولن يشاطر الشيطان قيادةً ولا نهجاً.

لقد كان ﷺ يتنازل عن حقه.. يؤذى فيصبر.. يسيل دمه فيمسحه

= إسحاق، عن نافع عن ابن عمر وفيه ابن إسحاق لم يصرح بالسماع من نافع فالحديث بهذه الطرق حسن.

(١) حديث صحيح.

ثم يعود إلى بيته مكسور الخاطر صابراً حزيناً محتسباً.. كانوا يضعون النجاسة على ظهره وهو ساجد لوجه ربه وأمام كعبته فيصبر أيضاً ويحتسب.. كان الصحابة يتهافتون عليه يبكون جراحهم يبحثون عن خلاص.. فيطالبهم بالصبر.. ورغم ذلك كله.. وبعد هذا العذاب كله.. تجده يذهب إلى أنديتهم مبتسماً يدعوهم ويدعوهم ولا يمل من دعوتهم.. وكانوا يأتونه في بيته رغم عداوتهم له يضعون أموالهم وودائعهم عنده ويلقبونه بالأمين.

ما الذي يجري وما تفسيره.. سياطهم على ظهره وأموالهم ودائع محفوظة عنده.. لم يقل هؤلاء مشركون نجسون فمالهم حلال لي.. ولا عهد لهم ولا ذمة ولا كرامة.. لم ينتقم لنفسه أبداً.. لم يعاقب أحداً لأنه ضربه أو شتمه.. بل كان يدعو لهم بالهداية.

هذا هو الفرق بين رسول الله ﷺ وبين متحمسين شوهوا الإسلام وأعاقوه أكثر مما أعاقه أعداءه.

هناك من الدعاة من يتنازل عن بعض مبادئ العقيدة من أجل مكسب سياسي.. وهناك من الدعاة من يرى أن السياسة رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه مع أن الحكم والسياسة من توحيد الألوهية الذي هو حق لله سبحانه وحده.

ومن المتحمسين من يحمل بضعة أحاديث يغلفها بسوء ظن ويرصد من حوله ليرميه بالكفر والمروق أو الفسق والانحلال.

وهناك من يحاسب الناس وكأنهم يعلمون كل شيء عما يحاسبهم عليه مثل علمه تماماً.. وهناك من يدعو الناس وقد حرم على نفسه الابتسامة ورسم على وجهه كل أنواع العبوس والتكشير.. كأنه خارج

من معركة ضاع فيها الشرف وسالت فيها الدماء.. وكأن رسول الله ﷺ لم يكن أكثر الناس تبسماً.. وأكثر الناس تطيباً.. وأزكى الناس رائحة.. كأن الرسول ﷺ لم يقل إن الله جميل يحب الجمال.

وهناك من يعامل اليهود والنصارى وغيرهم وكأنهم علماء متبحرون في دينهم.. كأنهم يتعمدون الكفر.. وكأن المسلم غير ملزم بدعوتهم قبل بغضهم واضطرارهم إلى أضيق الدروب. ويغفل هؤلاء -وهم في غمرة حماسهم- ويتناسون:

ما حدث لركانة

مشرك قوي البنية.. لم يتمكن أحد من طرحه على الأرض.. ويبدو أنه قد تميز عن أهل عصره بتلك البنية البدنية الجبارة.. هذا الرجل يرى في جسده كل ثروته وشهرته.. أما رسول الله ﷺ فكان يرى في تلك العضلات المنحوتة بالنشاط أبواباً إلى عقل ركانة وروحه.. فلا بأس من طرقها لعل الله أن يهديه للإسلام.. فيقرر ﷺ ممارسة لهو مباح مع هذا المشرك.. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ما قام به ﷺ ليس من اللهو.. فماذا فعل ﷺ مع ابن ركانة؟ لقد (جاء يزيد بن ركانة إلى النبي ﷺ ومعه ثلثمائة من الغنم فقال: يا محمد، هل لك أن تصارعني؟ قال ﷺ: وما تجعل لي إن صرعتك؟ قال: مائة من الغنم، فصارعه، فصرعه، ثم قال: هل لك في العود؟ فقال ﷺ: وما تجعل لي؟ قال: مائة أخرى، فصارعه، فصرعه، وذكر الثالثة، فقال: يا محمد، ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقام عنه ورد عليه غنمه)[1].

---

(١) رواه الخطيب وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٥٠١).

هل هناك من يقول إن رسول الله ﷺ كان يمارس شيئاً غير اللهو المباح.. هل كان ﷺ بتلك المصارعة يتدارس معه علماً.. أدباً في صلاة..؟ بالطبع لا.. لكن من المؤكد الذي لا شك فيه أن لرسول الله ﷺ هدفاً من تلك المصارعة أسمى من غنماته وعضلاته.. كان ﷺ يسعى لإسلامه.. يفتش داخل هذا الجسد القاسي عن توحيد مكبل ليحرره.. كان ﷺ يقدم درساً لأمته يكشف فيه مدى حاجة هؤلاء المشركين إلى التوحيد والإيمان.. وأن هؤلاء المشركين مهما بلغت قسوتهم وطفح طغيانهم مساكين.. غرقى بحاجة إلى من ينتشلهم من قلب الظلمة.. من أجل ذلك قدم ﷺ درساً يبيح فيه الخوض في أبعاد الحلال وأعماقه من أجل إنقاذ إنسان كركانة.. لكن ماذا يقول المرء وهناك من يتناسى -باسم الإسلام- فعله ﷺ ولهوه مع ركانة وهو ليس بمسلم.. ماذا يقول المرء.. وهناك من يرى أن اللين لا يجوز إلا مع الملتزمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ وأن اللين الشدة والغلظة وعدم السلام أشياء مطلوبة مع من لا يظنهم كذلك.

ويصنف الناس وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم.. ينسى أخوة الإسلام ويحاول التملص من واجبات تلك الأخوة.. إنها ميول مغلفة بطابع ديني.. وما كان رسول الله ﷺ يمرر شهوته من خلال الدين.. لقد كان ﷺ يرسم يطبق شرعاً في التعامل والقيادة.. لقد كان سمحاً مبتسماً.. لا ينتقم لنفسه أبداً.. ولا يرصد الأخطاء على من ظلموه ليتشفى.. بل كان يتسامح.. كان يصل هؤلاء المشركين ويعرف حق القرابة والرحم رغم افتراقه عنهم في العقيدة.. لأنه مكلف بتسليمهم رسائل ربهم فرداً فرداً.. ومكلف بالصبر والانتظار حتى ولو تحولت الأرض كلها إلى كفر بالله.. هذا هو الفرق بين هؤلاء ورسول الله ﷺ.. هؤلاء يبذلون القليل وينتظرون الكثير ويغضبون إن لم يظفروا بنتائج.. أما رسول الله ﷺ فكان يكدح ويعمل ويبذل ويصبر ولا

ينتظر شيئاً من أحد.. كان ينتظر الجزاء من الله.. فإن ظفر بنتائج وظفها كما وظف نفسه وجعلها للأرض سلاماً وشعاع نور للتائهين.

إسلام عمر[1]

كل الروايات تقول إن القرآن العظيم هو سبب إسلام ابن الخطاب العظيم.. فهو لم يستطع مقاومة تأثيره.. و لم يستطع إنكار إعجازه.. فألقى بسلاحه عدة مرات أمامه.

أول الدرب دعاء

كان ﷺ حزيناً لما يجري لصحابته وأتباعه من تعذيب وإيذاء.. وتنكيل شديد على أيد طغاة قريش وزبانيتها.. كانت الأحداث التي تعصف بهم تؤذيه.. وتعصر قلبه.. فيتوجه بهذا الدعاء الحار إلى ربه: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطاب)[2] فقد كانا أشد من يسلخ الظهور ويعذب فوق الرمضاء.. وكان عمر أكثرهم رقة.. وقد لاح ذلك عندما وقف ممتلأ بالحزن وهو يودع الصحابة المغادرين إلى أرض الحبشة.. لكن قسوته تغلب على رقته.

---

(١)لإسلام عمر بن الخطاب قصة حيرتني رواياتها كثيراً.. ليس من ناحية الثبوت.. ولكن لأن هناك فقرة تاريخية لم أصل إليها تجمع بين تلك الروايات التي يخيل إلى من يقرأها متضاربة.

(٢) حديث حسن الإسناد، رواه البيهقي (٢/٢١٥) وابن سعد (٣/٢٦٧) وأحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٣٠) من طريق: أبي عامر العقدي، أخبرنا خارجة بن عبد الله سليمان بن زيد بن ثابت، عن نافع عن عبد الله عن عمر. وهذا الإسناد جيد، اسم أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيسي وهو ثقة. التقريب (١/٥٢١) وشيخه خارجة ثقة. التهذيب (٣/٧٦)، ونافع إمام وثقة معروف.

بدأ ابن الخطاب يمارس دوره في التعذيب مع أقرب الناس إليه وأقربهم وألينهم قلباً وجسداً أخته المسكينة التي ليس لها جريرة سوى أنها تقول ربي الله وزوجها المعذب.. الصابر: سعيد بن زيد.. الذي لم يسلم من بطش عمر القاسي.. يقول سعيد رضي الله عنه:

(والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)[1].

حبال وسياط هي أدوات الحوار التي كان يجيدها عمر ويكثر من حملها.. فالجاهلية التي كان يعتنقها لا تستطيع البقاء إلا بالحبال والسياط لكن القلوب لا تدخلها السياط.. والأفكار لا يثنيها الحديد.. مهما كانت قسوة عمر فإنه ما زال بشراً يحمل قلباً.. ما زال يحمل عقلاً.

عمر يلقي آخر السياط

عمر بن الخطاب.. الرجل الحديدي أسلم.. تلك القوة التي كانت ترزح فوق أنفاس المستضعفين انزاحت.. فهل ستستحيل بين أيديهم سلاحاً يشقون به طريقهم وسط غابة الخناجر والسيوف وأغصان من المشانق والقيود.. أم أن عمر سينضم إلى قافلة المستضعفين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً..؟ كل تلك التساؤلات.. أجاب عنها عمر.. فهو لم ينتظر أن يسأله أحد كيف أصبحت.

لم ينتظر عمر أن تزحف الأخبار إلى بيوت مكة بخبر إسلامه.. أن يقول إنه تخلص من شركه كما تتخلص الأشجار من أوراق الخريف الصفراء.. على الطرقات وفي البيوت ويحملها الهواء في أجواء مكة.. إنه

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

يسأل من حوله فيقول: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل لـــه: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقـــال لـــه: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمدﷺ؟ فوالله مـــا راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتـــهم حـــول الكعبة- ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثـــاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس علـــى رؤوســـهم، وطلح[1] فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا. فبينا هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة[2] وقميص موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمـــه؟ رجـــل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل -يقول ابن عمر- فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنـــه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك. قال: ذاك بني: العاص بن وائـــل السهمي)[3].

---

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣٨/٢) حيث قال: حدثني نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر رضي الله عنه قال:...

وهذا الإسناد صحيح، فيه تابعي معروف هو: نافع مولى ابن عمر، وهو ثقة ثبت فقيه مشهور، وابن إسحاق صرح بالسماع منه.

يقول ابن عمر: (فعجبت من عزه)[1].

ولم يكن عز هذا الرجل بأعظم من إجابته المفحمة لفلول الكفر.. إنه يرفض مبدأ قريش في تكميم الأفواه وتقييد الحريات.. فالرجال أحرار في اعتناق ما يرونه.. وعمر حر في اعتناق ما رآه صواباً وحقيقة.. فلماذا التبرم يا قريش؟ صمتت قريش لأنها تفتقر إلى أسلحة العقل والإقناع.. لا تملك شيئاً يبرر أصنامها وطقوسها.. إنها تملك صراخاً وضجيجاً تزاحم به أجواء الحوار الهادئة.. فإذا ما ماجت الساحة بالفوضى والغبار والضجيج، مَرَّرَت ما تريد وفرضت ما تشتهي.. وأبقت الدعاة في جو من الخوف والرعب فربما يتراجعون عن رسالتهم التي تخطف القلوب والعقول بهدوء من صفوف قريش.. لكن رسول الله ﷺ استمر في هدوئه ودعوته.. يزداد سكينة كلما ازدادوا شراسة.. ويبشر كلما عسروا وشددوا.. ويبتسم كلما كشروا عن أنياب دامية.. ويلاطف الناس جميعاً بأسلوب ساحر آسر.. كله حب وشفقة.. كله ود وجمال.. كأنه خرير ماء.. كأنه ساحة من الزهور فسيحة.. هذا الأسلوب جعل معسكر الكفر يفقد أعصابه وأفراده.. فبالأمس كانت قريش تفقد أفراداً ربما لم يكن لهم تأثير.. أما اليوم فهي تفقد أقوياء مفتولين كالحديد.. هاهو حمزة ينسحب منهم.. ويتبعه عمر بن الخطاب.. وهاهم الضعفاء يقتربون من الكعبة.. يطوفون بها.. بل يصلون عندها.. وهاهو أحدهم.. راعي الغنم الفقير.. يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[2].

فقد وجد بعض المسلمين ساحة آمنة يركعون فيها ويسجدون قرب الكعبة.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري في (المناقب).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)[1].

يا لها من دعوة نبي.. اليوم عمر بن الخطاب صار سيفاً لا يفل.. ولا يحول بينه وبين وجوه الطغاة حائل.. فأصبح لأقدام المستضعفين مكان في بيت الله الحرام.. وجوار الكعبة.. يتجمهرون حول نبيهم ﷺ عند الكعبة.. ويسمع المهاجرون إلى الحبشة بتلك الأحداث فيركب بعضهم الأمواج والبهجة عائداً إلى رسول الله ﷺ..

وفي يوم من تلك الأيام التي يلتف بها الصحابة حول رسولهم ﷺ.. وقد زاحمهم المشركون أيضاً تنغيصاً ونكداً.. في مجلس الأخلاط هذا.. كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتَ[2] ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) بدأت الآيات من هنا لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن الإسراء والمعراج، فكأنها هناك.

(٣) سورة النجم.

وبعد أن قرأ ﷺ هذه الآيات سجد (وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[1].

(غير شيخ أخذ كفاً من حصىً أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا)[2].

سجد الكفار المعاندون وسجد المؤمنون.. أخذهم هذه الآيات فساحت بهم في رحلة بدأت من الآخرة.. حيث القبور الثائرة المبعثرة.. حيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون يخرجون يبحثون عن الداعي والمنادي.. وتنتهي بهم الرحلة هناك بين الخرائب الصامتة.. خرائب عاد وثمود وقوم لوط حيث الجثث منثورة متورمة من الماء.. جثث قوم نوح التي طوح بها السيل في كل مكان.. وأثناء هذه الرحلة المخيفة يدخل المسافرون عالماً مدهشاً وعجيباً يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.. تحنى الرقاب.. وتخضع القلوب والجباه لقدرة الله واعترافاً بعظمته.. تأثر السامعون المسلمون.. والمشركون أيضاً فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر[3].

حتى ذلك الشيخ الحجري لم يستطع كبت شعوره نحو هذه الآيات وتأثره بها.. فرفع كف الحصى ووضعه على جبهته.. لحظات من الخضوع والخشوع كانت تطوف بالكعبة والملتفين حول نبي الرحمة ﷺ.. لكن تلك اللحظات لم تلبث طويلاً.. لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان..

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) أقصد بالشيء الآخر تلك القصة الغريبة (قصة الغرانيق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة سنداً وللعلامة الألباني رسالة سماها (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) ولأستاذي الشيخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد لها في (مغازي عروة).

عاد الشيطان من جديد يتمدد في الشرايين والقلوب.. يـثير في نفـوس المشركين الرعب والخوف من المستقبل المجهـول.. مـن محمـد ﷺ وصحابته.. يقول إنهم في طريقهم إلى السيطرة على مكة وغيرها.. ولا بد من إيقاف ذلك الزحف المفزع.. لا بد من إيقاف عمر بل يجب:

قتل عمر

لكن عمر شجاع.. عمر قوي.. لا بد من حشد يحملون عليه حملة رجل واحد.. واتفقت قريش على هذا الأمر، وسارت مجموعة كبيرة لا قبل لعمر بها فلزم بيته لا يغادره و (بينا عمر في الدار خائفـاً إذ جـاءه العاص بن وائل السهمي، وعليه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحرير فقال: ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني لأنني أسـلمت. قـال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي فقـال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليـه. فكر الناس وتصدعوا[1] عنه)[2] ورجعوا والغيظ يملؤهم.. لكنهم ما كانوا ليتركوا فرصة صفاء لمحمد ﷺ وأتباعه.. ما كانوا ليتركوا دقيقة صفاء إلا وحاولوا التسلل لتعكيرها.. هاهم يجتمعون مرة أخرى.. ويقررون:

الذهاب إلى أبي طالب

كما أن العاص قد أجار عمر.. فإن أبا طالب يحمي ابـن أخيـه محمداً ﷺ ولا بد من التدخل في تلك الحماية.. لا بد أن تكـون تلـك الحماية بشروطهم.. لا بد من الضغط عليه وعلى عمه لعلـه يتراجـع..

---

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

وكان ذلك التراجع هو الحلم لقريش.. وهو الأمل عندما (جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأْتني بمحمد. يقول عقيل: فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس[1] -بيت صغير- فجاء به في الظهيرة، في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء[2]، يمشي فيه من شدة الحر الرحض[3]، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق[4] رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة. فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا)[5]. لقد امتزج هذا الدين بلحمه ودمه..

(١) ويعني أيضاً بيت الأسد.

(٢) الظل.

(٣) العرق.

(٤) أي رفع وأجال.

(٥) إسناده جيد، رواه البخاري في تاريخه (٥١/٧) والبيهقي (١٨٦/٢) من طريق: يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى بن عبد الله، عن موسى بن طلحة، قال: أخبرني عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب:....

يونس بن بكير بن واصل الشيباني حديثه حسن، انظر التقريب (٣٨٤/٢) والتهذيب وطلحة بن يحيى من رجال مسلم وهو حسن الحديث إذا لم يخالف، أما موسى بن طلحة ابن عبيد الله التيمي فهو تابعي ثقة جليل، ويقال إنه ولد في عهد رسول الله ﷺ (التقريب ٢٨٤/٢) وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي (١٨٧/٢) وقد جاء فيها لفظ:

يا عم لوضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه، وسبب ضعف هذا اللفظ هو أن راوي الحديث هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس لم يذكر من هو شيخه بل قال: حدثت أن قريشاً قالت:... ثم الحديث هناك جهالة الصحابي، وجهالة التابعي أيضاً لأن ترجمته في التهذيب ليس فيها =

فتألق معه وسما.. وأنتم أعجز من أن تنهضوا من مستنقعات الوحل والطين.. إنكم تتمرغون فيه وتصنعون منه أصنامكم.. فأين أنتم من الشمس والهواء النقي.. وأين أنتم من رسول الله ﷺ.

أدركت قريش ذلك فعادت إلى:

الاضطهاد من جديد

ها قد سقط أمل كان يترنح في الأفق.. واتضحت الرؤية على أرض مكة.. إما الله وإما الأصنام.. إما التوحيد وإما الشرك.. لا جسور بينهما ولا اتصال.. سقط أحد الآمال التي كانت تحمله قريش فأغضبها ذلك السقوط.. وأغضبتها تلك الهزيمة.. فعزمت على العودة من جديد.. للتعذيب من جديد.. وسيكون هذه المرة أقسى وأغلظ وأشد.. ستصل أنيابه إلى الجميع دون تفريق.. لقد قررت قريش أن تملأ مكة بالدماء.. هاهم وقد أمسكوا برسول الله ﷺ يضربونه ضرباً شديداً حتى أسالوا دمه.. فيهرب هائماً مغموماً كئيباً.. فيأتيه جبريل عليه السلام (وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟ فقال ﷺ له:

فعل بي هؤلاء.. وفعلوا.. فقال جبريل:

أتحب أن أريك آية؟ قال:

نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال:

ادع تلك الشجرة.

=

ذكر صحابي واحد ضمن شيوخه، فهو كما قال العلامة الألباني: من أتباع التابعين. انظر التهذيب (١٣/١٩٢) وانظر تعليق الإمام الألباني على فقه السيرة الغزالي (١٠٩-١١٠).

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل:

مرها فلترجع.

فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: حسبي)[1] آية عظيمة.. تسليه ﷺ.. تمسح عنه دماء نازفة.. ودموعاً حارقة. فيعود لمكة مرة أخرى.. متخفياً عن أعين القوم وأيديهم.. فيجد أتباعه يفترشون الرمضاء.. يلتحفون السياط يعجون إليه يطلبون الإذن بالهجرة من جديد فيأذن لهم.. وكانوا هذه المرة أكثر من ثمانين صحابياً معذباً.. يريدون أن يعبدوا الله بحرية.. ويعمروا الدنيا بسلام.. فأذن لهم ﷺ.

الهجرة إلى الحبشة ثانية

إحدى المعذبات هي أم سلمة رضي الله عنها.. تحدثنا عن رحلة الآلام كاملة فتقول: (لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم[2] ..

فقال لهم رسول الله ﷺ:

---

(١) إسناد صحيح: رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٢٠)، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن يذهب شبهة تدليس كونه راوية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة بن نافع القرشي، فقد جاء في التهذيب (٢٦/٥): روى عنه الأعمش وهو راويته، وقال ابن عدي روى عنه الأعمش أحاديث مستقيمة، بالإضافة إلى أن تلميذ الأعمش الثقة: أبو معاوية: محمد بن خازم الكوفي قد قال عنه وكيع ما أدركنا أحداً كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية هذه الميزات في الشيخ والتلميذ تنفي شبهة التدليس.

(٢) مر معنا تخريج هذا الجزء.

إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فترلنا بخير دار، وإلى خير جار، آمناً على ديننا و لم نخش منه ظلماً. فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً اجتمعوا على أن يبعثوا إليه[1] فينا، فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم.

فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا، ولبطارقته[2]، فلم يدعوا رجلاً منهم إلا هيأوا له هدية على حدة، قالوا لهما:

ادفعوا إلى كل بَطْرِيق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته، وكلموهم، فقالوا لهم:

إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، و لم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا:

نفعل. ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم[3]، فلما أدخلوا عليه هداياه، قالوا له:

---

(١) أي إلى النجاشي.

(٢) البطريق أو البطريرك هو رئيس الأساقفة، والأسقف العالم النصراني وهو فوق القس والقس غالباً هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة.

(٣) الجلود.

أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، و لم يـــدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليـــك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم فهم أعلاهم عينـــاً. فقالت بطارقته:

صدقوا أيها الملك، لو رددهم عليهم كانوا أعلاهم عينـــاً، فـــإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب، ثم قال:

لا، لعمر الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظـــر مـــا أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فـــإن كانوا كما تقولون رددهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، و لم أخل ما بينهم وبينهم، و لم أنعمهم[1] عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، و لم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقال:

ماذا تقولون؟ فقالوا:

وماذا نقول: نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، ومـــا جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال لـــه النجاشي:

ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قـــومكم و لم تـــدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟ فقال جعفر:

---

(١) نعمة العين أي قربتها، أي أقر أعينكم برجوعهم إليكم.

أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

فقال النجاشي:

فهل معك شيء مما جاء به -وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله- هلم فاتل علي ما جاء به. فقرأ عليه صدراً من: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته[2]، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ثم قال:

إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة[3] التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عيناً.

---

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفراً قرأه بالتأكيد وقد ذكرته ليستشعر القارئ ذلك الموقف.. و لم أكمل الآيات لأنه لم يقرأ السورة كاملة، ثم إنه من المؤكد كما يفيد السياق أنه لم يقرأ ما بعدها. لأن الآيات التي تلي هذه الآيات تتحدث عن وحدانية الله، وعن بشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

(٢) تبللت بالدموع.

(٣) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.

فخرجنا من عنده، وكان أبقى الرجلين فينا[1] عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم[2] إنهم يزعمون إن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة:

لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال عمرو بن العاص: والله لأفعلن. فلما كان من الغد دخل عليه فقال:

أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم رسولاً فاسألهم عنه، فبعث إليهم -ولم يترل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض:

ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال:

نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه، فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال:

ماذا تقول في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر:

نقول عبد الله ورسوله، وكلمته[3]، وروحه[4]، ألقاها إلى مريم العذراء البتول[5].

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال:

ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد[6].

---

(١) أي أشفق وأرحم.

(٢) أصلهم.

(٣) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.

(٤) روح الله، مثل قولك للكعبة إنها: بيت الله.

(٥) العذراء المنقطعة عن الزواج.

(٦) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.

فتناخرت بطارقته، فقال:

وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم في أرضي -والسيوم الآمنون- من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم -ثلاثاً- ما أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم -والدبر بلسانهم: الذهب- والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها فاخرجا من بلادي.

فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به. فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونستغفره للنجاشي، فخرج إليه سائراً.

فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض:

من رجل يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر ما يكون، فقال الزبير -وكان من أحدثهم سناً:

أنا. فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم خرج يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة، فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي، فجاءنا الزبير يليح علينا بردائه، ويقول:

ألا أبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة وأقام من أقام)[1].

---

(١) سيأتي تخريجه في نهاية الخبر التالي، فهو جزء منه.

هذه هي قصة النجاشي مع المهاجرين فما هي قصة الرشوة التي تحدث عنها ذلك الملك الطيب.. هدية الحبشة للإسلام.. وما معنى قوله: (ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)؟

ذلك أمر حدث بين أنهار الحبشة وأدغالها، تحدثنا عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: (إن أباه كان ملك قومه، وكان له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، فقالوا:

إنا إن قتلنا أب النجاشي وملكنا أخاه، فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك لبقيت الحبشة عليهم دهراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه، فقتلوه، وملكوا أخاه، فدخل النجاشي لعمه حتى غلب عليه، فلا يدير أمره غيره، وكان لبيباً، فلما رأت الحبشة مكانه من عمه قالوا: لقد غلب هذا الغلام أمر عمه، فما نأمن من أن يملكه علينا وقد عرف أنا قد قتلنا أباه، فإن فعل لم يدع منا شريفاً إلا قتله، فكلموه فيه، فلنقتله أو نخرجه من بلادنا فمشوا إليه فقالوا:

قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قد قتلنا أباه، وجعلناك مكانه، وإنا لا نأمن أن تملكه علينا فيقتلنا، فإما أن نقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس، وأقتله اليوم، بل أخرجه من بلادكم، فخرجوا به، فوقفوه بالسوق، فباعوه من تاجر من التجار، فقذفه في سفينة بستمائة درهم أو بسبعمائة درهم.. فانطلق به، فلما كان العشي هاجت سحابة الخريف، فجعل عمه يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته،

ففزعوا إلى ولده، فإذا هم محمقين[1] ليس في أحد منهم خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فقال بعضهم لبعض:

تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلح أمركم غيره للذي[2] بعتم بالغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فردوه فعقدوا عليه تاجه، وأجلسوه على سريره، وملكوه، فقال التاجر:

ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامي، فقالوا:

لا نعطيك، فقال: إذاً والله أكلمه.. فقالوا: وإن.

فمشى إليه فكلمه فقال:

أيها الملك، إني ابتعت غلاماً فقبضوا مني الذي باعونيه ثمنه، ثم عدموا على غلام، فنزعوه من يدي، ولم يدروا علي مالي، فكان أول ما خبر من صلابة حكمه وعدله أن قال:

لتردون عليه ماله، أو ليجعلن غلامه في يده، فليذهبن به حيث شاء، فقالوا: بل نعطيه ماله. فأعطوه إياها، ولذلك يقول:

ما أخذ الله مني الرشوة فآخذ الرشوة منه حيث رد علي ملكي، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه)[3].

---

(١) الحمق: قلة العقل.

(٢) لا يصلح أمركم غير النجاشي الذي بعتم.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٣٠١) وأحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٢٤) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي ﷺ. وهذان الإسنادان صحيحان، الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد (التقريب ٢/٣٩٨) وعروة تابعي معروف.

ذلك هو النجاشي.. وتلك قصة تتويجه.. تتويج العدالة الحبشية.. ذلك الملك الأسمر نال شهادته من السماء بعد أن عدل بين شعبه.. نال شهادته قبل أن ينصف المسلمين.. لقد قال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) قبل أن يصل أصحابه.. قبل أن يسمعوا عنه.. قبل أن يحكم بالحق. فلتهنأ الحبشة بسبقها.. فلقد أنصفت المسلمين من براثن مشركي قريش.. وآوتهم بعد أن ضاقت عليهم مكة.

في حين كانت يد قريش تمتد في حقد عجيب.. في تسلط حقير لتكمم الأنوف والأفواه.. وتمنع الهواء.. إنها تحسدهم على أرض يمشون عليها.. وتحسدهم على حصير يلقون عليه أجسادهم التي نخرها الترحال والشقاء.. ترى أي قلوب كانت تضمها أجساد المشركين حتى يركضوا خلف الراحلين.. ويدفعوا الرشوة لطرد هؤلاء الضعفة المساكين.. رجلان أرسلتهما قريش: عمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.

دعونا نستمع إلى أحدهما: عمرو بن العاص يقص علينا قصته.. وأثرها في نفسه.. بالطبع هي قصة الوجه البشع.. رسول قريش في تلك الأزمنة العصيبة على الإسلام.. كيف كان يرى عمرو رحلته.. وماذا تكشف له بعد أن سمع ورأى ما حدث.

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه:

(لما رأيت جعفراً وأصحابه آمنين بأرض الحبشة. قلت: لأفعلن بهذا وأصحابه، فأتيت النجاشي، فقلت:

ائذن لعمرو بن العاص. فأذن لي، فدخلت. فقلت:

إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنا والله

إن لمن ترحنا منه وأصحابه، لا أقطع إليك هذه النطفة[1] أبداً، ولا أحد من أصحابي، فقال:

أين هو؟ فقال عمرو:

إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولاً. فوجدناه قاعداً بين أصحابه، فدعاه، فجاء، فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمرو بن العاص. ونادى خلفي:

ائذن لحزب الله عز وجل، فسمع صوته، فأذن له، فدخل ودخلت، فإذا النجاشي على السرير، وجعلته خلف ظهري، وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي فسكت وسكتنا، وسكت وسكتنا، حتى قلت في نفسي:

العن هذا العبد الحبشي ألا يتكلم.. ثم تكلم، فقال:

نخروا - أي تكلموا. فقلت:

إن ابن عم هذا يزعم إنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنك والله إن لم تقتله لا أقطع إليك هذه النطفة أبداً، أنا ولا أحد من أصحابي. فقال النجاشي:

يا أصحاب عمرو ما تقولون؟ قالوا:

نحن على ما قال عمرو. قال النجاشي:

يا حزب الله نخر.

فتشهد جعفر - والله إنه لأول يوم سمعت فيه التشهد ليومئذ.

---

(١) النطفة هي الماء الصافي، وربما أراد بها البحر.

قال جعفر:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبـــده ورســـوله. قـــال النجاشي:

فأنت فما تقول. قال جعفر:

أنا على دينه، فرفع يده ثم وضعها. ثم قال النجاشي:

أناموسٌ كناموس موسى، ما يقول في عيسى؟ قال جعفـــر بـــن أبي طالب:

يقول: روح الله وكلمته. فأخذ النجاشي شيئاً من الأرض ثم قال:

ما أخطأ فيه مثل هذه، لولا ملكي لأتبعتكم. اذهب أنت يا عمـــرو، فوالله ما أبالي أن لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبداً، واذهب أنت يا حزب الله. فأنتِ آمن، من قتلك قتلته، من سبك غرمته. وقال لآذنه:

انظر هذا فلا تحجبه عني إلا أن أكون مع أهلي، فإن كنت مع أهلي فأخبره، فإن أبى إلا أن تأذن له فأذن له. فلما كان ذا عشية لقيتـــه[1] في السكة، فنظرت خلفه، فلم أرَ خلفه أحد، فأخذت بيده، فقلت:

تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رســـول الله. فغمـــزني، وقال:

أنت على هذا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي كأنما شهدوني وإيـــاه، فما سألوني عن شيء حتى أخذوني فصرعوني، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلوا يغموني[2] بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى أنفلت عرياناً،

(١) أي لقي جعفر بن أبي طالب.

(٢) يغطوني.

ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها، فوضعته على فرجي، فقالت لي:

كذا. وقلت:

كذا. كأنها تعجبت مني، وأتيت جعفراً فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال:

ما شأنك؟ قلت:

ما هو إلا أن أتيت أصحابي فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية أخذته من رأسها. فقال جعفر:

انطلق. فلما انتهينا إلى باب النجاشي نادى:

ائذن لحزب الله، وجاء آذنه فقال:

إنه مع أهله. فقال جعفر:

استأذن لي عليه، فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل. قال جعفر:

إن عمرو قد ترك دينه واتبع ديني، قال النجاشي:

كلا. قال جعفر:

بلى، فدعا آذنه، فقال:

اذهب إلى عمرو، فقال:

إن هذا يزعم إنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت:

نعم. فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء[1] حتى كتبت المنديل فلم أدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت.

ثم كنت بعد من الذين اقبلوا في السفن مسلمين)[2]. هذا ما حدث في الحبشة.

أمَّا في مكة

بعيداً عن الحبشة، خلف آلاف الأميال خلف البحار خلف الجبال.. وسط لهب من الكفار كان ﷺ صامداً لا يذوب لا ينثني.. قد أدرك أن قريشاً تعاند.. فلا بد من البحث عن تربة خيراً من هذه التربة.. خيراً من هذه الصخور الصلبة التي لا تنبت إلا القسوة.. لا بد من البحث عن قبائل تحتضن الدعوة.. تساندها وتدافع عنها وتجمع أشتاها.. فدعاها هاربون دائماً.. هائمون دائماً.. وغربتهم موحشة مضنية قد أذابتهم الأحزان.. وطوحتهم الأيام خلف الجبال والبحار وبين اللحود.. يتلفتون كأهم قد سرقوا الإيمان سرقة.. يتلفتون خشية أن يؤخذ منهم.. يفزعون عند سماعهم خشف نعال.. أو طرق باب.. يفزعون فزع من حكم عليه بالإعدام.. فهو في زنزانته ينتظر الجلاّد ويرى الجلاد قادماً مع كل حركة مع كل همسة.. يحس الموت يحصي بقية أنفاسه. فهل من مخرج.

---

(١) أي كتب عمرو بن العاص كل ما سلبه رفاقه المشركون منه ليرده النجاشي إليه منهم.

(٢) إسناده حسن، رواه البزار، كشف الأستار (٢/٢٩٧): حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا معاذ، حدثنا ابن عون، حدثني عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص قال: وهذا الإسناد جيد. محمد بن المثنى بن عبيد المعروف بالزمن ثقة من رجال الستة. التقريب (٢٠/٢٤٠) ومعاذ بن معاذ بن نصر: ثقة متقن، وابن عون اسمه: عبد الله بن عون بن أرطبان المزني: ثقة ثبت فاضل. وعمير بن إسحاق تابعي حسن الحديث والكلام فيه لا يضر ولا يترله عن رتبة الحسن.

يقول ربيعة الديلي:

(رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول:

يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ويدخل في فجاجها[1] والناس متقصفون[2] عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول:

يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا).

نعم.. تفلحوا إنه لا يريد مالكم ولا متاعكم.. ما يريده هو العودة بهذا القطيع الشارد إلى موارد الماء والكلأ.. بعد أن تاه في صحاري الشرك الشاسعة.. التي تقطع الأعناق باللهاث خلف سرابها.

لكن قريشاً لا تدعه.. لا ترحمه.. حتى وهو يخاطب من ليس منها لا تدعه.. يصف ربيعة ما رأى فيقول:

(إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول:

إنه صابئ كاذب. فقلت: من هذا؟ قالوا:

هذا محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت:

من هذا الذي يكذبه. قالوا: عمه أبو لهب)[3].

---

(١) الفجاج الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

(٣) حديث حسن. أي لغيره. لأن الإمام أحمد رواه (الفتح الرباني ٢١٦/٢٠) من طريق عبد الرحمن ابن أبي الزناد، وقد ساء حفظه عندما قدم بغداد، وربما كان هذا الحديث منها، وبقية رجاله ثقات، وللحديث شاهد قوي يجعله حسناً. وهو الحديث التالي.

كأن السورة التي نزلت فيه وفي امرأته أضرمت بيته.. فصار لا يقر له قرار وهو يرى عاره على كل لسان.. وفي كل نظرة لهباً يشـويه.. إنـه التشفي ومحاولة إطفاء متأخرة لما قد احترق منه.. إن إسلام المزيـد مـن الناس يعني لأبي لهب المزيد من شتمه والتقرب إلى الله باحتقاره وبغضه.. إنه يمارس التحطيم خلف رسول الله ﷺ حتى ولو فر منه.. يركض خلفه لا يطلب الراحة لنفسه ولا لغيره.. وكيف يجدها وقد حشته تلك الآيات جمراً.. يقول ربيعة:

(رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول:

يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه أحول ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم)[1] بل ومن أشرفهم نسباً.. لكن ذلك كله لا يجدي شيئاً في رجل حشرت في رأسه كل رموز التخلـف والشرك والهمجية.. لا شيء سوى كتلة متورمة من الأحقاد والضـغائن تتدحرج خلف رسول الله ﷺ الذي يتجاهله ويصوب بصره نحو الأمام.. يتبع القبائل كلها.. ويقف أمامها كلها.. يتلمس خيامها في كـل سـنة تنصب فيه تلك الخيام.. يدلف كل خباء.. يبحث فيه عن قلوب تـتلمظ فيها الفطرة والعطش.. فيصغي إليها من سحاب التوحيد العذب والحيـاة الصافية مع الله ما يرويها ويذهب عطشها.

كان يغشى أسواقهم التي يقيمونها كل عـام.. للتجـارة والشـعر

(١) حديث حسن، رواه أحمد (المصدر السابق ٢١٧/٢٠)، حدثنا مصعب الزبير، وهو عـالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الداروردي وحديثه هنا حسن لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيـه، عـن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. انظر التهذيب (٢٠/٤). وهو شاهد لما قبله.

والأدب.. يغشاها ينثر في دروبها عبير الإيمان ويبحث عن أنصار.. وكان بصحبته رفيق طفولته.. وصدِّيق نبوته أبو بكر الصديق.. وشاب كله حياة.. هو ابن أخيه علي بن أبي طالب الذي يقول:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه)[1].

لقد (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤوه إلى قومهم حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته، ولهم الجنة)[2].

لقد (لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، عكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)[3] عشر سنوات يتلطف مع (بني حنيفة) و(كندة وكلب) يذهب إلى (بني عبس وهمدان) وله مع (بني عامر بن صعصعة) لقاءات.. عشر سنوات من الصبر والمكابدة (يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء[4] ذو جمَّة[5]، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول:

يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

---

(١) قطعة من حديث طويل صحيح سيمر معنا إن شاء الله. عند الحديث عن لقاء الأنصار، ومجلس المفروق.

(٢) حديث حسن بما بعده لأنه من طريق: عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وهو رجل صالح عابد صدوق في نفسه، لكن في حديثه بعض الاضطراب، لكن شهد له ما بعده وقد روى هذا الحديث الطبراني وأبو نعيم (٢٩٢).

(٣) إسناده صحيح وسيمر معنا كاملاً عند الحديث عن لقاء الأنصار إن شاء الله.

(٤) حسن وجميل.

(٥) ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ رسـول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر من خلفه:

يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه)[1].

كانت أخباره تنتقل في كل اتجاه من جزيرة العرب فتصادف هذه المرة قلباً لرجل من غفار:

إسلام أبي ذر الغفاري

لقد تعب أبو لهب من الركض خلف رسول الله ﷺ وأتعب يديه وتعبت زوجته من هذا التراب ينثرونه فوق رأس رسول الله ﷺ.. والشوك يغرزونه في طريقه.. لقد تعب أبو لهب وأتعب معه رسول الله ﷺ.. لكن تلك السنوات من الصبر والعرق كانت كفيلة بانتشار عبير الإسلام فأخبار رسول الله ﷺ تطايرت هنا وهناك.. فصادفت قلوباً مفتوحة..

---

(١) إسناده قوي: رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢١٧/٢٠) فقال: حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا ابن أبي زائدة قال. قال ابن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس، قال: سمعت ربيعة الديلي يقول: وقال أحمد أيضاً: حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثني سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة الديلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ يطوف على الناس بمنى...
من هذين الطريقين طريق ضعيف، وهو الإسناد الأول، لأنه من رواية حسين بن عبد الله ابن عبيد بن عباس، قال الحافظ في التقريب (١٧٦/١): ضعيف لكن يشهد له الطريق الثاني فهو به قوي، فشيخ أحمد: سعيد بن أبي الربيع السمان صدوق، قال ابن حبان: يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه. وهذه ليست منها. انظر ذيل الكاشف (١١٨) وشيخه سعيد بن سلمة صدوق أيضاً. انظر التهذيب (٤١/٢) وشيخه محمد بن المنكدر ثقة فاضل قاله في التقريب (٢١٠/٢).

نفوساً فسيحة.. فتعلقت بما سمعت وعشقته.. وأتعبت مطاياها في البحث عنه.. قلب أبي ذر من تلك القلوب.. هاهو يحدث من حوله عن ذلـــك الحب.. عن ذلك الشوق فيقول:

(كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج مكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلمه، وائتني بخبره.

فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت:

ما عندك؟ فقال:

والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له:

لم تشفني من الخبر. فأخذت جراباً وعصـــاً، ثم أقبلـــت إلى مكـــة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكـــون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم.

قال: فانطلق إلى المترل. فانطلقت معه لا يسألني عـــن شـــيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال:

أما نال للرجل يعرف مترله بعد؟ قلت:

لا. قال:

انطلق معي. فقال علي:

ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له:

إن كتمت علي أخبرتك. قال:

فإني أفعل. قلت له:

بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع و لم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه، فقال علي بن أبي طالب:

أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحداً أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامضِ أنت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له:

اعرض علي الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي:

يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل.

فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد، وقريش فيه. فقال أبو ذر:

يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فقالوا:

قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علي، ثم أقبل عليهم، فقال:

ويلكم، تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غفار.

فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس.

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس، فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس)[1].

كان الشرك رعباً تطوف أشباحه في دروب المسلمين فترقب أبوابهم وأفواههم.. علي بن أبي طالب لا يستطيع التحدث بالأمر خوفاً على

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

رسول الله ﷺ.. وأبو ذر كذلك.. ولما سأل علي ضيفه سؤالاً عادياً.. كان الجواب غير عادي.. لقد سأله علي -رضي الله عنه- فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك. قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت. ففعل، فأخبره)[1].

إن على الكلمات رقيباً.. وما لم تثق بمحدثك فإن الكلمات مجازفة بالحياة.. والصمت أسلم.. وبعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئاً غير الشهادتين.. لم يخبره عمن أسلم حتى أنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع) ومن المعروف أن هناك الكثير ممن أسلم قبله.. ولم يعده النبي ﷺ بنصر في الدنيا.. بل إنه لم يتدخل إطلاقاً عندما ضربه كفار قريش وكاد أن يموت بين أيديهم.. لقد أشار عليه ﷺ بالكتمان وأمره بالرجوع إلى أهله.. لكن حماس أبي ذر طغى فنال من قريش ما نال.

أبو بكر الصديق يناله العذاب أيضاً.. يؤذونه ويشتمونه ويتعرضون له في الطرقات حتى أصبحت مكة أضيق من موضع قدميه.. عندها قرر الهجرة إلى أرض يجد فيها شمساً وهواء وعبادة.. بعيداً عن أرجاس الطغاة وسياطهم..

أبو بكر يهاجر

تقول عائشة بنت الصديق أبي بكر رضي الله عنهم: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين.. ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار.. بكرة وعشية.. فلما ابتلي المسلمون.. خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد.. لقيه ابن الدغنة -وهو سيد القارة- فقال:

---

(١) جزء من حديث صحيح. رواه البخاري وهو الحديث السابق مع اختلاف بسيط في الألفاظ.

(أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر:

أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج، ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا جار لك، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش. فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج، أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة:

مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءاً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا:

إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك،

فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال:

قد علمت الذي عاقدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفِرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل)[1].

فقام ابن الدغنة، فقال:

(يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم)[2] وكانت قريش وسفهاؤها بالانتظار، ولن يشك أحد بهجوم أحد هؤلاء المجرمين فيضربه رضي الله عنه، أو يدميه، أو يحثو في وجهه التراب، فليس له من نصير سوى الله، وسيتحمل في سبيله كل ما يصادفه، أما رفاقه فشاردون في الشعاب والأودية، هاربون من بطش قريش المفزع. وأما نبيهم فقد نزف دمه وتفاقم جرحه وألمه.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة.. أيام مكة الملتهبة.. (اشتكى رسول الله ﷺ.. فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ١٦/٢) حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.

(٣) إسناده صحيح، رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٥٢٢/٤) من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندب يقول: رُمِيَ رسول الله ﷺ بحجر في إصبعه فقال:.. وهذا الإسناد صحيح. الأسود تابعي ثقة. انظر التقريب (٧٦/١) وسفيان =

ولم تكن هذه المرأة الجاهلة ترمي إلى أكثر من التشفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه، فقال:

(هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت[1]: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

أيها النبي النازف، المتهم.. ها هو العظيم يقسم أنه ما تركك، وما تخلى عن نصرتك.. فلا تستمع لهؤلاء المرتكسين. لديك مهمة فأدها، وجزاؤك أبداً ليس في الدنيا.. إنه هناك في الجنة.. في الفردوس ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾: لكن وأنت في زحمة الأذى وتداعي المصائب.. ومحاولات الإحباط.. وأنت في هذا كله تذكر نعمة الله عليك.. وإياك إياك أن تنسى ذلك المنكسر.. الذي تمتد يداه.. تحوم عيناه يبحث عن أبيه.. فيجيبه اليتيم بالنحيب.. كن له أباً.. قد كنت يتيماً فتذكر مرارة اليتم.. وكنت مسكيناً فلا تنهر مسكيناً.. ولا ترد يده.. ولا تعرض عنه..

هو ابن سعيد الثوري الإمام الثقة الحافظ المعروف، وتلميذه صرح بالسماع منه واسمه: حماد بن أسامة، وهو ثقة ثبت، ولم يدلس هنا.

(١) إسناده صحيح، رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٥٢٢/٤) من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندب يقول: رُمِيَ رسول الله ﷺ بحجر في إصبعه فقال:.. وهذا الإسناد صحيح. الأسود تابعي ثقة. انظر التقريب (٧٦/١) وسفيان هو ابن سعيد الثوري الإمام الثقة الحافظ المعروف، وتلميذه صرح بالسماع منه واسمه: حماد بن أسامة، وهو ثقة ثبت، ولم يدلس هنا.

حتى ولو كنت في درب لزب بالشواغل.. التفت إليه وواسه.. كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير يحتاج إلى مواساة فيؤمر بالمواساة للأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب.. وإن كان نبياً.. لقد نزلت كلمات عتاب أخرى لرسول الله ﷺ بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين.. فما الذي حدث عندما:

عبس وتولى

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾.

عتاب شديد أنزله الله سبحانه.. ووجهه إلى نبيه.. ولو لم يكن محمد ﷺ نبياً لأخفى ذلك العتاب ومحاه.. ولم يطلع عليه أحداً.. لكنها النبوة.. لكنه الأمين.. أما قصة ذلك العتاب فهي أن مسلماً مسكيناً ضرير البصر اسمه: عبد الله بن أم مكتوم (أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني -وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين-، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقول: لا)[1] فأنزل الله آياته تصحح الخطأ وتجبر الكسر.. ترى

---

(١) إسناده صحيح، رواه ابن جرير (٣٠/٣٢)، والواحدي (٢٩٧) والحاكم والترمذي وأبو يعلى، من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان، انظر التهذيب (١١/٢١٣) و (٤/٩٨) وهشام ووالده ثقتان معروفان، فالسند صحيح.

كم يساوي ذلك الأعمى المسكين عند الله.. لقد استحق نـزول آيـات الجبار تعاتب نبيه فيه.. إنه في ميزان الإسلام: رجل مسلم.. اختـار الله ورفض الأوثان.. ولن يفرق الإسلام يوماً بين مسكين وثري.. فـالجميع بنيان متراص وطاقات متناغمة.. تسير بالإنسانية نحـو جمـال الحيـاة وصفائها.. وكما أن لهؤلاء المشركين حق الدعوة والتبشير.. فـإن لهـذا المسكين ولكل المساكين حقوقاً.. لقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه.. فهو يذرع الأرض امتثالاً ويقول: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين)[١]. إنه يقول:

(آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد)[٢]، ويقول ﷺ: (أنا وكافل اليتيم لـه أو لغيره في الجنة، والسـاعي علـى الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله[٣]، (أنا وكافل اليتـيم في الجنـة هكذا)[٤]، يعني متجاورين فأين سيكون جار الـنبي ﷺ إن لم يكـن في الفردوس الأعلى منها.. وذلك لا يعني إغفال الأغنياء والسادة المطاعين.. فإن إسلامهم نصر عظيم.. والحياة تقوم على تكاتف الفقير مع الغـني.. لكن في أحوال السادة نزوع إلى الاحتفاظ بما حولهم.. فالجديد وإن كان صواباً يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم.. ويسلب ما بأيديهم.. ويغير مواقعهم على الأرض.. فهم على بابـه متـرددون.. أولئـك إرادتهـم كالأوراق تنتظر الرياح.. أحد هؤلاء هو:

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١/٣٩٨).

(٢) إسناده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه رواه: البيهقي (٢/١٩٨) والحاكم (٢/٥٠٦) عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة ثقات أئمة، معمر ثقة ثبت حافظ. التقريب (٢/٢٦٦) وأيوب بن أبي تميمة إمام ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، انظر التقريب (١/٨٩).

(٣) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١١) (٢/٢٣).

(٤) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١١) (٢/٢٣).

الوليد بن المغيرة

مؤمن فكافر

(فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال الوليد:

لِمَ؟ قال أبو جهل:

ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال الوليد:

قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال أبو جهل:

فقل فيه قولاً، يبلّغ قومك أنك منكر له. قال الوليد:

وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل:

لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال:

فدعني أفكر فيه. فلما فكر. قال الوليد:

هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ

﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾)[1].

إذا كان هذا وصفهم للقرآن وإنه ليس من كلام البشر.. ولا من كلام الجن فماذا يريدون إلا العناد.. ومعه شيء آخر هو العناد.. لذلك فقد سلكوا طرقاً عديدة.. يحاولون النفاذ من أحدها نحو نصر ما، وكان أحد هذه الطرق الملتوية: طلب المعجزات.. اجتمعوا يوماً حوله ﷺ ثم طالبوه بأن يقدم لهم معجزة.. فأراهم:

انشقاق القمر

يا له من طلب غريب.. لا يراد منه سوى التعجيز ليجدوا لأنفسهم عذراً للتكذيب.. ومع ذلك فقد تحققت المعجزة.. وأراها الله ورسوله ﷺ لهؤلاء فهل غيَّر ذلك من موقفهم؟

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

(سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، مرتين)[2].

---

(١) إسناده صحيح، رواه إسحاق بن راهوية، ومن طريقه رواه: البيهقي (٢/١٩٨) والحاكم (٢/٥٠٦) عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة ثقات أئمة، معمر ثقة ثبت حافظ. التقريب (٢/٢٦٦) وأيوب بن أبي تميمة إمام ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، انظر التقريب (١/٨٩).

(٢) متفق عليه.

(فقال كفار قريش أهل مكة:

هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به.

فسئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا)[1]. وقالوا هـم أيضاً: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[2]. وكان الناس ينظرون إليه من مواقع مختلفة، فهناك من رأى (الجبل من بين فرجتي القمـر)[3]، وهناك من رأى (فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه)[4]. وهناك من رأى (فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل)[5].

وسبب هذا الاختلاف في الوصف.. هو الاختلاف في الأماكن التي يقفون فيها أثناء الحدث.. فهذا أمام جبل.. وهذا خلف جبل.. وذاك هناك و.. ولا شك أن للمسافرين الذين قدموا وصفاً آخر.. لكنهم أجمعوا على أن الشق قد حدث.. وخسرت قريش أمام هذه المعجزة.. لتلجأ للاتهام مرة أخرى فتقول كما قال الوليد عن القرآن: سحر

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي (١٢٣/٢) حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عـن مسروق عن عبد الله:..

ورواه البيهقي واللفظ لـه من طريق أبي داود وهشيم. ولفظ هشيم هو هذا، وهذا رجال إسناده ثقات، أبو الضحى تابعي ثقة اسمه مسلم بن صبيح، انظر التهـذيب (١٣٢/٢٠) والمغيرة هو ابن مقسم ثقة متقن لكنه ربما دلس، لكنه توبع تابعه إمام مثلـه تماماً هـو الأعمش عند أبي نعيم. انظر سيرة ابن كثير (١١٩/٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر تخريج الحديث الأول فهو من طريقه.

(٤) رواه الإمام أحمد وابن جرير: عن سماك عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود، وهـو حسن بالشواهد.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

مستمر.. سحر ذاهب ومضمحل. وفي ذلك أنزل الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ..﴾[1]. وبعد هذا التكذيب وهذه المكابرة العارية المخيبة للآمال لم يترك الله نبيه ﷺ دون:

مواساة

بعد هذا التكذيب المفضوح.. يقص سبحانه على نبيه ﷺ قصصاً ماضية.. لأقوام قد مرت ودمرت.. يا محمد لم يكن قومك أول من كذب وعاند.. فلقد: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2] ثم يقص عليه كيف شرقوا بالماء وغرقوا.. كذلك ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾[3] و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾[4] ومثلهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾[5] ويختم هؤلاء الطغاة بأعتاهم إنهم آل فرعون: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[6].

---

(١) ذكر الدكتور زغلول النجار أحد كبار علماء الجيولوجيا في العالم معجزة شق القمر وأنها كانت سببا في إسلام داوسي موسى بيسكوك في حوار مع علماء ناسا الذين ذكروا اكتشافهم لهذه الحقيقة على سطح القمر.. حقيقة انشقاق القمر وأن آثارها لا زالت باقية حتى اليوم.

(٢) سورة القمر: الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٢٣.

(٤) سورة القمر: الآية ٢٣.

(٥) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٦) سورة القمر: الآية ٤٢.

ثم يتوجه السياق من الماضي المدفون إلى الحاضر الحي.. إلى قومك أهل مكة المشركين وإلى غيرهم ما دامت السماوات والأرض: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]. لكن المشركين يدفنون الحق في أعماقهم.. ويعترفون به لكنه اعتراف كـ:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

حيث كان أحد دهاة العرب ودهاة الطائف وهو: المغيرة بن شعبة ولأول مرة يعرف صدقه ﷺ.. لكن على لسان من؟ الإجابة مدهشة.. لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل. يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أدعوك إلى الله. قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل علي فقال:

فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي. قالوا:

(١) سورة القمر: الآيات ٤٣ــ٥٥.

فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا:

فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا:

فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا:

فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي. والله لا أفعل)[1]. طاغوت مكة لا ينكر النبوة.. لكنه يرفضها لأنها لم تكن في بيته يرفضها. لأن محمداً ﷺ ليس من أهل بيته.. إن أبا جهل يرفض أن يكون تابعاً لمنافسه في الرياسة والشرف.. يستحث قريشاً لمحاربة محمد ﷺ وصحبه لا لمصلحة قريش.. لا ولا حباً في قومه.. إنما حباً لنفسه.. فلتذهب مكة وقريش للجحيم من أجل إرضاء غروره.. هذا هو منطق الطغاة.. يخفونه بألسنتهم فتفضحه أعمالهم.. ولم تقتصر التهم على تهمتي الكذب والسحر فـ:

الجنون تهمة جديدة

لابد من إلصاق تهمة جديدة تبعد الناس عنه.. لا سيما عندما يسيل الحجيج نحو مكة.. ولا شيء يفر الناس منه مثلما يفرون من المجنون والمجذوم.. فليكن محمد مجنوناً.. قالتها قريش دون حياء.. الأمين صيروه مجنوناً.. وما يأتي به من آيات كريمة مجرد هراء.. يهذي به بلا وعي..

---

(١) حديث حسن. رواه البيهقي (٢/٢٠٧) من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، وهذا الإسناد جيد وأحمد بن عبد الجبار سماعه للسيرة صحيح، وهشام بن سعد حسن الحديث. انظر التهذيب (١١/٣٩). وقد قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان يرسل لكن مع هذا الاحتمال فالحديث له من الشواهد ما يقويه عند البيهقي أيضاً، طريقان مرسلان، أحدهما عن الزهري والآخر عن أبي إسحاق.

فرية صدَّقها الأغبياء.. وصدَّقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضباب كثيف من التهم والتحذير قبل أن يلقوه.. ويسمعوا منه.. أحد هؤلاء العقلاء رجل من (أزدشنوءة).. اسمه (ضماد) قدم مكة.. وكان (يرقي من هذه الرياح، فسمع سفهاً من سفهاء الناس يقولون: إن محمداً مجنون.. فقال ضماد:

آتى هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي، فلقيت محمداً ﷺ، فقلت: إني أرقي من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهلم. فقال محمد ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فقال ضماد:

والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ، وقال له: وعلى قومك. فقال ضماد: وعلى قومي)[1]. كلمات حق كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض.. وكشفت له أي عملاق صادق ماثل أمامه.. ولقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطئ قدم بمكة.. ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

وحيد في حرة يثرب

لم يكن ضماد هو الوافد الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ.. فهناك الكثير.. الكثير.. منهم من منعه الخوف من التَّفَوُّهِ فاكتفى بنظرات كلها حسرة.. وعاد بصمت إلى موطنه.. ومنهم من كشف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ.. ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه.. لكن هناك من استمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ.. فلما هم أن يبوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسه الحارة جمراً.. حمماً بين أضلاعه.. عندما امتدت يد التسلط تحشو فمه بالتراب وتلجمه بالصمت.. فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.. عندها تحول الحب شلال نور يزيح تراب الأصنام ويحطم قبضة المتسلط كان ذلك لما (قدم أبو الحيسر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال ﷺ لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟ قال ﷺ:

أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ -وكان غلاماً حدثاً-: أي قوم: هذا والله خير مما جئتم به. فأخذ أبو الحيسر «أنس بن رافع» حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة (بعاث) بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند

موته، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ)[1].

تتحول الأشياء في أيدي المتسلطين إلى عصي وسياط حتى التراب استعملوه لتكميم الأفواه.. وما لهم لا يفعلون وهم يرون أبا لهب يتعقب ابن أخيه يسفي عليه التراب.. يقهره ويكذبه.. ويأمر الناس أن يقهروه ويكذبوه.. كأنه عار يريد التخلص منه.. فكيف بشاب مستضعف كإياس.. غيرته كلمات الحق.. فطواها وكتمها في نفسه.. ولما حل بحرة يثرب تماهت غربته في غوره.. تلتحم به ويلتحم بها.. ولما مد الموت يده إليه أخرج تلك الكلمات لمن حوله بعد أن هم بالرحيل.. وهَمَّ الخوف أيضاً بالرحيل.. وما كان يقوى على إظهارها عندما كان هائماً بينهم.. وما كانوا ليطيعوه. يا لغربة الموحدين.. يا لحالهم.. لكن الله معهم يدافع عنه دائماً كما دافع عن:

سعد والفقراء

فقد رفض سبحانه ذلك التعسف الطاغوتي.. وتلك الأوامر العفنة التي انطلقت من أفواههم... يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء

---

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٣/٢)، حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن محمود بن لبيد. فابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه، والحصين حسن الحديث قاله أبو داود، فقول الحافظ عنه في التقريب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح، انظر التهذيب (٣٨١/٢)، بل لقد قال الذهبي في الكاشف (٢٣٧/١): ثقة. ومحمود بن لبيد صحابي صغير روايته عن الصحابة، وفي الحديث تصريح بالسماع ممن حضر الحادثة.

عنك فلا يجترئون علينا - وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ، ما شاء الله، وحدث به نفسه[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾)[2].

لقد حار هؤلاء في أنفسهم وتخبطوا في مطالبهم.. فكل شيء حولهم يدينهم ويلوي أعناقهم.. هاهم في تخبطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ:

ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، نؤمن بك. قال رسول الله ﷺ: وتفعلون؟ قالوا:

نعم. فدعا، فأتاه جبريل فقال:

إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول:

إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. قال ﷺ: بل باب التوبة والرحمة)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وفضائل الصحابة والبيهقي واللفظ له (٣٥٣/١).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢/٢٠) وحدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، وعبد الرحمن هو ابن مهدي =

يا لرحمته ﷺ بهؤلاء الذين آذوه وقهروه وأذلوه.. إنه يطلب لهم الرحمة والتوبة.. فهو لم يبعث جباراً منتقماً.. إنه كما قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)[1] هذا هو محمد ﷺ.. أما أولئك.. فقد أنزل الله على نبيه سورة الأنعام وفيها يصفهم.. يفصح عن حقيقتهم التي ارتضوها لأنفسهم.. إنه العناد والعناد فقط فلا الآيات ولا المعجزات ولا غيرها تقنعهم.. يقول سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[2].

أما قومك يا محمد: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

= الإمام الحافظ الثقة الثبت العارف بالرجال والحديث. انظر التقريب (١/٤٣٩) والتهذيب (٦/٢٧٩) وسلمة بن كهيل تابعي ثقة (التقريب ١/٣١٨) وشيخه أيضاً ثقة، واسمه الصحيح: عمران بن الحارث السلمي، أبو الحكم الكوفي وهو من رجال مسلم (التقريب ٨٢/٢) والتهذيب (١٢٤/٨).

(١) حديث صحيح. انظر (٢٨٤/٢) من صحيح الجامع الصغير.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٤ـ ٦.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧ـ ١١.

ثم يخبره سبحانه مرة أخرى عن حقيقة هؤلاء مسلياً نبيه.. طارداً ذلك الوجوم الذي يخيم عليه من تكذيب قومه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾(١). ولو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى لسلب منهم الحرية والإرادة.. كما سلبها من سائر المخلوقات.. لكنه فضلهم وكرمهم بهذه الإرادة فهم يختارون طريقهم.. وسيحاسبون عليه.. لأنهم حملوا الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال.. وهي الإرادة.. هذه الحيوانات ستصير يوم القيامة تراباً لأنها مسلوبة الإرادة.. إنها جزء من هذا الكون المسخر للإنسان.. المعجون لابن آدم يتصرف فيه كيف يشاء.. ثم يحاسب في نهاية المطاف على تصرفه ذلك.. وهنا تنتصب الحقيقة ماثلة أمام الجميع: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٢).

مجاعة في مكة

حالة واحدة تخضع فيها قريش للحق.. هي البطش.. ونزع الحريـــة

(١) سورة الأنعام: الآيات ٣٣ــ٣٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

والاختيار منهم.. عندما يذوقون العذاب تتوه منهم إرادهم.. عندها ينحنون للحق معلنين التوبة والإنابة. يقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1].

لقد حدث ذلك من قريش كما أخبر سبحانه.. تنازلوا عن كل شيء.. ودسوا جباههم في التراب وانحنوا جوعاً وخوفاً وهزالاً.. حدث ذلك عندما (دعا رسول الله ﷺ قريشاً إلى الإسلام فابطأوا عليه، فقال ﷺ:

اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف [2]. فأخذهم سنة فحصت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع. قال الله عز وجل: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3].

فدعوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾[4].

[فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت.. فاستسقى فلما أصابتهم الرفاهية عادو إلى حالهم]. ثم عادوا في كفرهم[5].

ما أسرع نسيان قريش.. ويحهم أما تعلقوا بأستار الكعبة يوم ولد

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٠.

(٢) أي السبع العجاف التي مرت بقوم يوسف.

(٣) سورة الدخان: ١٠_١١.

(٤) سورة الدخان: ١٢_١٥.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٤/١٨٠٩ و ١٨٢٣.

رسول الله ﷺ هرباً من الفيل الحبشي وأصحابه.. ولتنشيط ذاكرهم تترل كلمات الله سبحانه.. تترل سورة الفيل هز قريش وترفع رأسها نحو السماء علها تفيق وتدرك ما يحدث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

وتترل سورة أخرى على محمد ﷺ.. هز ذاكرهم وسباهم مرة أخرى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[2].

لكنهم لا يفيقون.. إنهم خشب مسندة.. حجارة تتدحرج فتحطم ما تحتها.. إن كل محاولة للتذكير تعقبها سطوة من قريش وتنكيل.. والنتيجة جراح ودموع وأنين تضج بها دور المستضعفين.. ما الذي يرضي هؤلاء.. وماذا يريدون.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

قريش أهل فصاحة ومعرفة بلغة القرآن أكثر من غيرهم ممن جاءوا بعدهم.. لقد سحرهم هذا القرآن ببلاغته وبيانه.. واعترفوا بعجزهم عن أن يأتوا بمثله.. ورفضوا أن يكون هذا الكلام صادراً من بشر.. وماذا بعد؟ لا شيء.. إصرار على الموقف.. وحسد لمن اختاره الله نبياً.. ومحاولة

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

لتعجيزه ﷺ بكثرة الطلبات.. لكن الله سبحانه يترل آياته قاطعاً دابر العبث القرشي.. فالإيمان لا يحتاج إلى تلك المطالب الساذجة.. إنه فقط يحتاج قلباً مفتوحاً وفكراً سليماً.

الرسول ﷺ والتعجيز

يقول سبحانه عن مطالب هؤلاء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

ثم يذكر سبحانه مطالبهم لنبيه ﷺ لكي يؤمنوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

لكن الله يبين حقيقة رسوله ﷺ لهؤلاء الهمج.. إنه مجرد رسول.. بشر.. وليس عليه سوى البلاغ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2].

فتى قريش لا ييأس

مع كل هذا التعنت.. ومحاولات الهروب من حصار الحقيقة يستمر ﷺ في دعوته بلا يأس.. بلا كلل. كلما ضاقت به مكة تلمس الأتباع حولها.. لقد (لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في المواسم -مجنة- عكاظ - ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مصر أو اليمن، فيأتيه قومه، أو ذوو رحمه، فيقولون:

احذر فتى قريش لا يفتنك.

يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم)[1] والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب وهناك الساخر.. وهناك المشفق.. وهناك من قيده الخوف فهو يشير بقلبه.. وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ.. فقد عاد إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه.. وينام.. ومع كل صباح يعود من جديد إلى التبشير بدعوته.. لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله.. وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له يحملون الأذى بأيديهم وألسنتهم.. يُسْمِعونه ما يكره.. ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبوه.. فأصبحوا يقولون: (مذمماً) لا (محمداً) لكن ذلك لا يضره فالله يصرف عنه الأذى واللعن. يقول ﷺ:

(انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذمماً» ويلعنون «مذمماً»، وأنا محمد)[2].

ماذا لدى قريش من فكر.. ماذا لديها من عقيدة حتى تعاند كل هذا العناد.. ليس لديها سوى أكوام من الحجارة نصبتها فوق الكعبة.. ثم بايعتها على الألوهية.. فهل ستفيق قريش من غيبوبتها إذا رأتها نثاراً حول الكعبة؟ هل ستسأل نفسها: كيف تتحطم الآلهة أم أنها ستقول:

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حدث صحيح. رواه البخاري كتاب المناقب.

من حطم الأصنام؟

قريش تسأل غاضبة ولدى فتى الإسلام علي بن أبي طالب الجواب: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس نبي الله ﷺ، وقال:

اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه، فنهض بي، فإنه يخيل إلي لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صفر، أو نحاس، فجعلت أزاوله[1] عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال رسول الله ﷺ: اقذف به.. فقذفت به، فتكسر كما تنكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس)[2].

ولما استيقظت قريش وجدت آلهتها مسحوقة.. كالرمل كالرماد.. هل قالت قريش لنفسها: ما هذه الآلهة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها.. كيف نعبد رملاً.. نعبد رماداً؟ لم نتلق رداً من قريش.. لكنه الغضب لا شك.. لا بد أنهم أشاروا يتهمون محمداً ﷺ وأتباعه.. لقد

---

(١) أي باشره بيده ومارسه.

(٢) سنده جديد رواه أحمد (٢٢٤/٢٠) الفتح الرباني، حدثنا أسباط بن محمد حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي، أسباط بن محمد بن عبد الرحمن القرشي بالولاء، وهو ثقة، لكنه ضعيف في سفيان الثوري وروايته هذه ليست عن الثوري، أما شيخه نعيم بن حكيم فهو حسن الحديث إذا لم يخالف، انظر التقريب (٥٣/١) و (٣٠٥/٢) وأبو مريم قال النسائي: أبو الحنفي ثقة، وإن كان الثقفي فقد قال الذهبي في الكاشف: ثقة، والحديث رواه البزار وأبو يعلى. ثم وجدت أن أبا مريم ليس بالحنفي ولا بالثقفي بل هو الأسدي كما جاء عند الحاكم (٥/٢) فصح بذلك السند لأنه تابعي ثقة، وثقه العجلي والدارقطني وابن حبان (التهذيب ٢٢١/٥).

التهبت قريش واحمر حديدها وتوهج.. فالحدث لا يسكت عليه.. والقرار القادم لا بد أن يكون حاسماً ونهائياً لإيقاف سب الآلهة وتسفيه الأحلام.. وتحطيم الأصنام. اجتمعت قريش في مؤتمر محموم قرر فيه الجميع واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عنهم وعن أصنامهم هو بإزالة هذا المد الإسلامي لا بإيقافه.. ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على قائده وقتله.. فليقتل محمد حتى يتلاشى دينه ويشتت أصحابه.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة.. لقتل آخر رسل الله ومنقذ البشرية الأعظم.. (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله. فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك. فقال رسول الله ﷺ: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه، قالوا: هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم حصباً، وقال: شاهت الوجوه)[1]. وغادر المسجد.. فأفاقوا.. تحسسوا فإذا التراب يحشر أعينهم

(١) إسناده حسن رواه أحمد (٣٦٨/١) حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاهدوا.. وهذا الإسناد رجاله ثقات أثبات، إلا عبد الله بن عثمان بن خثيم، وحديثه لا يترل عن رتبة الحسن، فقد وثقه أئمة كبار، وليس في ترجمته جرح مفسر فالسند حسن. انظر التقريب (٤٢٢/١) فقد قال الحافظ: صدوق. وانظر كذلك لك التهذيب (٣١٤/٥).

وأنوفهم.. يغطي وجوههم عار لا يغسل إلا بالدماء.. عار ملأ خبره أرجاء مكة.. محاولة اغتيال رسول الله الفاشلة أثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب وكان أشدهم رأسهم أبو طالب.. فقرروا حماية رسول الله ﷺ من قريش والدفاع عنه.. فهو لا يزال من أبناء عبد المطلب زعيم قريش.. ولم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى والعذاب من قريش.. فكيف تقرر قريش قتله.. ذلك أمر مستحيل.. إن على قريش أن تزهق أرواح بني عبد المطلب فرداً فرداً قبل أن تصل إلى محمد ﷺ.. لذلك فقد أعرضت عن هذه المؤامرة مؤقتاً لكي تمارس قسوة لا تقل عن الاغتيال فماذا فعلت قريش.

حصار جماعي في الشعب

قرر طواغيت قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي على المؤمنين ومن يقف معهم من أقاربهم.. فلا مصاهرة ولا بيع ولا شراء معهم حتى يتم تسليم محمد عليه الصلاة والسلام إليهم لقتله والتخلص منه.. لذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته إلى مكان يقال له: شعب أبي طالب أو (المحصب) حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ.. وعن هذا الحصار المرير الذي لا أدري كم من الأعوام استمر, يقول ﷺ وهو يواعد أصحابه في ذلك المكان الحزين: (نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر, يعني ذلك المحصب, وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ)[1].

في مثل هؤه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوذيت في عز وجل وما يؤذي

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٦.

أحد, وأخفت من الله وما يخاف أحد, ولقد أتت على ثلاثة من بين يوم وليلة ومالي ولعيالي (ولا لبلال) طعام يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال) [1].

ويقول عتبة بن غزوان رضي الله عنه: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قيحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها) [2].

ويقول سعد بن أبي وقاص: كنا قوماً يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترمنا لذلك، وصبرنا له، وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه) [3].

يقول علي بن أبي طالب: (طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بردة له مرفوعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة وما هو فيه اليوم) [4].

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ وهذا سند صحيح على شرط مسلم حماد إمام ثقة من رجال مسلم وثابت وهو تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

(٣) الأثر الأول رواه ابن إسحاق ومن طريقه هناد في الزهد ٣٨٨/٢ حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد وفيه جهالة شيخ صالح لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٤) يشهد له ما قبله وقد رواه أبو يعلى ٣٨٧/١ وفي سنده جهالة التابعي.

هذه حال الرجال.. يا ترى ما هي حال النساء.. خديجة وفاطمة وزينب وأم كلثوم وأسماء.. كيف كانت حالة الأطفال.. كابن عمر.

يا صناديد قريش, لماذا.. أي جرم قارفوه.. أإذا ما أشرعوا الأبواب يوماً والنوافذ.. للهواء.. ولغيمات السماء.. لحداء الكون بالتوحيد سيقوا بالسلاسل.. وعليهم تتراكم.. قاسيات كالجرائم.. تصنع للحزن عام.

عام الحزن

من شقاء لشقاء.. بعد عام الشعب والأحزان كالمطر الأسود. هاهو رسول الله ﷺ والمرارة والكرب يلاحقانه في بيته.. عام للحزن جديد.. إنه يلقى نظرات الوداع الحائرة.. نظرات البث تفيض دمعاً على حبيبته.. وزوجته ورفيقة دربه الطيبة خديجة تموت.. وعند فراشها فاطمة تبكي.. ومعها أخواتها: زينب وأم كلثوم.. يبكين بحرقة على أمهن.. على خير نساء العالمين.. ربما كان لقريش سهم في سهام الموت التي أزهقت روحها.. وربما كان السن وحده.. لقد غادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها رسول الله ﷺ.. خائفة عليه تناضل دونه وتشده وتحنو عليه.. فعاشت في قلبه حية بالحب لم تحتل امرأة ما احتلته من قبل أبداً.. قال ﷺ وحياً.. قال حباً.. قال وفاء:

(ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء)[1].

---

(١) حديث ضعيف الإسناد عند أحمد ١١٧/٦، لكنه صحيح بدون لفظ ما أبدلني الله خيراً منها، شواهده عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

ويقول ﷺ: (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة)[1].

خديجة أول من أسلم.. خديجة أول من صدق.. خديجة أول امرأة في الإسلام.. خديجة أول زوج لرسول الله ﷺ.. وأول من بذل مالاً لمواساته ﷺ.. ترى كما بكاها من المسلمين والكافرين.. امرأة تحمل هذا القدر من الإخلاص والوفاء جديرة بالرثاء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب.. ناءت بثقل فتت أكتاف رجال.. فرحمها الله ورضي عنها.. وهنيئاً لها (بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[2].

لقد سافرت لتنال وعد الله.. أما زوجها ﷺ.. فتضاعفت مسؤوليته بعد أن انهد جدار كان يحميه.. ولباس كان يقيه.. ويد تمسح دمعه وتغسل جرحه.. وتدفعه للأمام.

كانت خديجة تزاحمه ﷺ وتزاحم قلبه بالذكريات الجميلة.. تقول إحدى أمهات المؤمنين: (ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها)[3] (كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت)[4].

ليت شعري كيف حزن فتاة طمس الكفار أخبارها.. خلف ذاك البحر غريبة.. في بلاد الأحباش معذبة شريدة.. تدعى رقية.. ابنة رسول الله ﷺ.. من يستشعر حزنها على أمها وأبيها وهي تموت بعيداً عنها.. لا

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤/١٨٨٦.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٢٨٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٧).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٨).

تستطيع رؤيتها.. لا تستطيع توديعها.. تتمنى أن تلقي عليها نظرة الوداع.. قبلة الوداع فلا تستطيع.. البحر أمامها والخوف وقريش.. كم هي قاسية أيام مكة على محمد وعلى آل محمد وعلى صحب محمد صلى الله عليهم جميعاً.

لم يلن قلب قريش.. استمروا بالأذى.. وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول الله ﷺ وآله الطاهرين وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة.. وتلتها للحزن موجة.. أغرقت شيخاً كبيراً.. حامياً درعاً حصيناً اسمه:

أبو طالب

بطل من أبطال قريش.. وسيد من سادتها.. هدَّته قريش كما هدته السنون والأحزان.. كان خلف رسول الله ﷺ يحميه.. يدفع عنه.. رضي بالعيش في السجن معه وقاسمه معاناته.. لكنها الأيام لا ترحم.. والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها.. جاءت الأقدار فسقط أبو طالب مريضاً على فراشه.. ما زال على كفره.. قد تشبع رأسه بعيب قريش.. كان يخشى النقيصة.. يخشى أن تعيره مكة بعد موته بأنه قد ترك دين آبائه وأجداده.. واشتد به المرض.. ولعل سجن الشعب من أسبابه.. ودنا الأجل (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ:

يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية:

يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة)[1] (قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك)[2].

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)[3] (فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد لـــــه تلـــك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب».

وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ:

«أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[4].

وأنزل الله تعالى في أبي طالـــب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾)[5].

بطل إلى النار

إنه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب.. لكنه رفض الحق.. جاء العباس أخوه.. وعم رسول الله ﷺ يوماً إلى رسول الله.. يسأل عن مصير أخيـــه البطل ويقول:

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٥٥).

(٣) صحيح. رواه البخاري ٣/١٤٠٩.

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

(٥) متفق عليه وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.

(يا رسول الله, هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كـــان يحوطـــك، ويغضب لك قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكـــان في الدرك الأسفل من النار)[1].

(نعم وجدته في غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح)[2] ويقول ﷺ:

(أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منـــهما دماغه)[3].

هذه هي حدود رسول الله ﷺ.. وهذا كل ما يستطيع فعله لـــــه قال ﷺ لمن حوله والحسرة في صدره:

(لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلـــغ كعبيه يغلي منه دماغه)[4] لكن أين تذهب أعماله.. أيـــن جـــزاء هـــذا البطل.. كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسلام رغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين.. لقد أحاط ابن أخيه ﷺ ودافع عنـــه.. وواجـــه قريشاً.. وشراسة قريش من أجله، فلماذا ولماذا..؟

العواطف الجياشة تفجر أسئلة ذاهلة.. تفجـــر مـــذاهب.. تبعثـــر الصفوف تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة.. لكنها ما ســـألت يوماً عن أبي طالب نفسه.. هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته.. هل خدم نفسه كما خدم الإسلام.. هل ارتقى بروحه كما ارتقى مـــن يدافع عنهم سنوات وسنوات وهو مع رسول الله ﷺ.. يشرح له يوضح

(١) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/١٩٤ـــ١٩٥).
(٢) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/١٩٤ـــ١٩٥).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ١/١٩٦.
(٤) رواه البخاري ٣/١٤٠٩.

الحق له.. يؤكد له أن وعد الله صادق.. ودين الله ماض سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أو لم يدافع.. انضم أو غادر.. كان أبو طالب يستمع إلى كلام الله.. وكان كلام الله يسيل في أذنيه منذ أشرق الوحي.. في أندية مكة في بيت ابن أخيه.. في بيته هو.. في شعبه.. في فراش الموت.. لقد منحه الله فرصة.. لقد منحه الله حرية الاختيار.. وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة.. لكنه خاف تعيير قريش وسبها له بعد موته.. ذلك لأنه لم يكن واثقاً من وعد الله.. وإلا لما وقفت كلمات قريش المحتملة عائقاً له عن الدخول في دين الله.. ما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة.. وثقة مزعزعة بوعد الله. إن من يدَّعون أن الإسلام جعل أبا طالب كبش فداء يحترق.. لم يدركوا أن الإسلام لله والتوحيد لله.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.. وما محمد ﷺ إلا رجل تلقى رسالة الله فأداها كما طلب منه.. ومن أجل هذا الرجل تحرك أبو طالب وقاتل أبو طالب.. أما الله فأين مكانه في قلب أبي طالب.. لا شيء.. لا مكان لله في قلب أبي طالب.. إن أول شرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله وتفرده والإخلاص له.. وأبو طالب رفض هذا الشرط رفض وحدانية الله.. رفض الإخلاص له.. رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل.. هو شهم وشجاع وكريم.. كعنترة.. كحاتم.. والإسلام يشطره مثلهم.. يؤيده في مواقف.. ويشجبه في مواقف.

كم تمنينا لو كان مسلماً.. لكن ماذا بأيدينا.. ماذا يفعل حزننا بالحقيقة هل سيغيرها.. إن حبنا لعلي لا يجب أن يطغى على حبنا لله..

فإن فعلنا ذلك فنحن نعبد علياً من دون الله.. أبو طالب مات بطلاً... لكن إلى النار.. ونهايته مأساة حزينة لكنه هو الذي اختارها.

الفتى الحزين علي

علي بن أبي طالب.. أول من أسلم من الفتيان.. لا شك أنه قد دعا يوماً أباه إلى الإسلام.. لا شك أنه يشعر بالأسى على أبيه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة.. لقد مات أبوه دون أن يسره بكلمة التوحيد.. فذهب يسحب خطاه نحو رسول الله ﷺ.. قد تشبع بالحزن حتى أثقله.. يقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه؟)[1].

سؤال غاضب من إصرار هذا الشيخ على الشرك.. سؤال يبكي هذا الشيخ الضال.. إنني أشعر بمرارتها في حلقه وهو يقول: الضال.. كمن يقولها بعد أن استنفذ كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار فأبى إلا الانتحار.. الكلمات بعد ذلك تخرج مزيجاً من الغضب والحزن والأسى.

لكن رسول الله ﷺ كان طبيباً للقلوب.. طبيباً للنفوس.. قال لعلي الحزين:

(اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني. يقول علي بن أبي طالب: فأتيته، فأمرني، فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء)[2].

---

(١) إسناده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وغيره فقال أبو داود (٢/٩٠): حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت علياً يقول: وأبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله الهمداني، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب (٢/٢٩٤).

(٢) إسناده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وغيره فقال أبو داود (٢/٩٠): حدثنا شعبة، عن

يا لعام الحزن هذا.. أبو طالب غاب وخديجة.. ماذا سيحل برسول الله ﷺ.. وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟ تقول عائشة رضي الله عنها:

(ما زالت قريش كاعة[1] حتى توفي أبو طالب)[2].

فلما توفي.. هجمت وسلت وازداد توحشها.. فهرب منها ﷺ عله يجد من يؤويه.. ينصره، لكن إلى أين؟

إلى الطائف

يشق الأودية والجبال.. على قدميه الدامتين المتعبتين.. بلا راحلة.. فقيرٌ لا يملك ثمنها.. يحمله حزنه يصعد جبال الطائف يفتش عن أمل.. يبحث عن معين.. يبحث عن يد حانية.. تحمل هذا الدين برفق.. تقدمه للتائهين.. للجائعين للمعدمين وحتى للمترفين.. يبحث عن بقية خير في قلوب خارج مكة.. عن أقوام تتمرد على هذه الأصنام والعادات والشرع الشركي الملوث. يقول عبد الله بن جعفر:

(لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)[3].

= أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت علياً يقول: وأبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله الهمداني، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب (٢/٢٩٤).

(١) متراجعة جبانة.

(٢) حديث صحيح. الإسناد رواه البيهقي (٢/٣٤٩): حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، قال: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبة المحي عن هشام بن عزوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: العباس حافظ ثقة. انظر التقريب (١/٣٩٨) وعقبة بن خالد المجدر صدوق صاحب حديث، التقريب (٢/٢٦) والبقية أئمة.

(٣) حديث حسن بشواهده سيمر معنا.

و(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة:

عبد ياليل بن عمرو بن عمير. ومسعود بن عمرو بن عمير. وحبيب ابن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف.

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم:

هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسل. وقال الآخر:

أما وجد الله أحداً يرسله غيرك. وقال الثالث:

والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يئس من خير ثقيف)[1].

قام ولهيب الحزن في كبده.. قام وحاله تتفطر لها القلوب.. جوع وعطش وسير بالليل والنهار.. وأحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها.. تذكره بخديجة وأبي طالب.. ودعوة مطاردة.. وأتباع تتخطفهم أيدي الطغاة.. قام ﷺ فالتفت إلى هؤلاء القساة لعل بقية من الإنسانية لا تزال عالقة في قلوبهم.. يرجوهم كتمان أمره حتى لا تشمت به قريش.. وتحمله من الضيم ما لا يطيق. قال لهم:

(إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني -كره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه

---

(١) سيأتي تخريجه.

عنه فيذئرهم[1] ذلك عليه- فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيـــدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كـــان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة[2] من عنب، فجلس فيه -وابنا ربيعة ينظـــران إليه ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف- وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بن جمح. فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال:

«اللهم أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلـــني: إلى بعيـــد يتهجمني. أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الـــذي أشـــرقت لـــه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تترل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت لـــه رحمهمـــا، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس. فقالا:

خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يـــدي رسول الله ﷺ. ثم قال له:

كل. فلما وضع رسول ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» ثم أكل. فنظـــر عداس في وجهه، ثم قال:

---

(١) يجعلهم يجترئون عليه.

(٢) الحبلة هي الكرم أو القضيب من الكرم.

والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال رسول الله ﷺ:

ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال عداس:

نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى[1]. فقال رسول الله ﷺ:

من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس:

وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ:

ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه:

أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له:

ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

وقال عداس:

يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له:

ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف)[2].

---

(١) قرية بالموصل في العراق.

(٢) حديث مرسل. رواه ابن إسحاق فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعبي القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعي ثقة، لكنه لم يذكر من شيخه هنا. لكن الحديث روي مرسلاً أيضاً عن الزهري، وعن عروة بن الزبير -وهو الحديث الذي بعده ـــ. ما عدا الدعاء في هذا الحديث، فشاهده عند الطبراني، وقد قال الهيثمي في المجمع (٦/٣٥) ورجاله ثقـــات وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، ثم وجدت الحديث عند الطبراني في الدعاء, وعند ابن

ويروي هذه القصة عروة بن الزبير فيقول:

(لما أفسد الله عز وجل صحيفة مكرهم، خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، فعاشوا، وخالطوا الناس، ورسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول:

لا أُكْرِهُ منكم أحداً على شيء من رضي الذي أدعوه إليه قبله، ومن كرهه لم أُكْرِهْهُ، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي، ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء. فلم يقبله أحد منهم، ولا أتى على أحد من تلك القبائل إلا قالوا: قوم الرجل أعلم به. أَفَترى رجل يصلحنا وقد أفسد قومه؟! -وذلك لما ادخر الله عز وجل للأنصار من البركة- ومات أبو طالب، وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة، فعمد إلى ثقيف، يرجو أن يؤوه وينصروه، فوجد ثلاثة منهم، سادة ثقيف وهم أخوة:

عبد يا ليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو.

فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء، وما انتهك قومه منه. فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً، لئن كنت رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك. وقال الآخر:

= عدي في الكامل وسنده هو: ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن.. وهذا السند ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشام من أقرانه وشيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ولا يقوي هذا الطريق ما عند ابن إسحاق فقد رواه دون سند -أي روى الدعاء دون سند-.

أعجز الله أن يرسل غيرك؟!

وأفشوا ذلك في مكة -أي الذين قال لهم- واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ، وقعدوا له صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة، وهم في ذلك يستهزئون، ويسخرون، فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان بالدماء عمد إلى حائط من كرومهم، فأتى ظل حبلة من الكرم، فجلس في أصلها مكروباً موجعاً، تسيل قدماه الدماء، فإذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما -لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله- وبه الذي به، فأرسلا إليه غلامهما «عداس» بعنب -وهو نصراني من أهل نينوى- فلما أتاه وضع العنب بين يديه، فقال رسول الله ﷺ «بسم الله» فعجب عداس، فقال له رسول الله ﷺ.

من أي أرض أنت يا عداس؟ قال عداس:

أنا من أهل نينوى، فقال النبي ﷺ:

من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس:

وما يدريك من يونس بن متى؟ فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يبلغه رسالات الله تعالى. قال عداس: يا رسول الله أخبرني خبر يونس بن متى. فلما أخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحي إليه من شأنه، خر ساجداً للرسول ﷺ، ثم جعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء. فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا. فلما أتاهما قالا له: ما شأنك سجدت لمحمد، وقبلت قدميه، ولم نرك فعلت هذا بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح، حدثني عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا،

يدعى: يونس بن متى، فأخبرني أنه رسول الله. فضحكا به وقالا:

لا يفتنك عن نصرانيتك، إنه رجل يخدع. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة)[1].

ترى كيف ستحمل هذا المكروب المسكين أقدامه وهي لا تزال تنزف حزناً ودماً.. كيف سيعود ولا أبا طالب بعد اليوم.. من يضمد جرحه وخديجة تحت الثرى.. من يا ترى يكف أفواه قريش عن الشماتة.. كانت أياماً لكن همومها أحالتها سنوات.. سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن أشد يوم مر به؟ فأشار إلى أيام الطائف وقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)[2].

إنه الهم الذي حمله ومشى به، حتى حنت عليه السحاب.. وأشفقت لمنظره الحجارة وأغصان الشجر.. واستعدت الرواسي الشم للانتقام له:

الجبال تنتقم

يقول ﷺ مواصلاً حديثه: (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال:

---

(١) إسناده مرسل رواه أبو نعيم (٢٩٥), وقد أوردت الحديث لا لصحته ولكن لأن سياقه ينسجم مع الحديث الصحيح الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أشد الأيام التي مرت عليه هي أيام الطائف ويدل على ذلك نزول ملك الجبال لينتقم منهم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق) ومسلم.

يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[2].

صلى الله عليك يا نهر الحنان.. في اليمين جبل.. وفي الشمال جبل.. لو كنت ممن ينتقم لنفسه.. لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم.. ولسالت من جبال الطائف دماء يراها أهل مكة.. لكنه ﷺ ما خرج لنفسه.. ولا أحضر شيئاً من عنده.. رفض الانتقام لأنه جاء ليجعل الحياة إيماناً وسعادة.. وفي قلبه يهتز أمل يتلألأ.. يقول: إن في الأصلاب ربيعاً قادماً يتنفس الإسلام.

وعاد الحبيب ﷺ مطروداً.. جريحاً.. منكسراً كما خرج..

فانسل إلى بيته الصغير.. حيث ابنته وريحانته فاطمة.. لا بد أنها بكت وارتفع نشيجها عندما رأت ذلك الشحوب في وجهه الكريم.. عندما رأت الدماء تتلألأ في جروحه.. فسارعت لمواساته ومواساة جراحه.. وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنته فذكرته بحبيبته خديجة.. وذكره بيته بها.. ففيه عاشا سوياً وهاهو الآن شوق.. بينه وبينها تراب على قبر خديجة.

ذكريات مصائب تترى فهل لهذه الأحزان من نهاية؟

لم تكن هناك نهاية.. أمراً عظيماً سيحدث.. وتسلية مذهلة.. ستمسح أحزانه السابقة.

---

(١) جبلا مكة.

(٢) بقية حديث البخاري.

ضغطت لـــه المسافات حتى رأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم.. بل وما خلف السموات.

جمع له الزمن حتى أصبح بين يديه ساعات يقلبها مراكب يبحر بها.

الإسراء والمعراج

يقول سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

متى كان ذلك؟

سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد.. لكنه أيام مكة الحزينة قطعاً.. أما في أي سنة كان ذلك.. في أي شهر.. في أي يوم.. فكل ذلك غير معـــروف على وجه الدقة.. ليس من دليل صحيح على ذلك.. إن تحديد ليلة معينـــة للإسراء رجم بالغيب.. والاحتفال بذكرى تلك الليلة يحتاج إلى دليلين.

كل ما نقطع به أنه حدث في ليلة من ليالي مكة.. ومـــا دام الأمـــر كذلك.. فدعونا منه.. دعونا نتسلل بهدوء من الضجيج المحيط بتوقيته إلى أحداث الإسراء والمعراج من بدايتها إلى مواجهة قريش بمـــا حـــدث.. فكيف كانت البداية.

شق للسقف. شق للصدر

ليالي مكة واحدة تكاد لا تتغير.. فيها يهـــدأ الجميـــع.. الصـــحابة متعبون من الأذى والمطاردة.. والمشركون متعبون أيضاً.. فقد أهـــدروا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

طاقاهم طوال النهار في التعذيب والمطاردة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يجعلون ليلهم مناجاة لخالقهم وهجداً وصفاء.. وفي ليلة غريبة.. في ليلة لا كالليالي.. جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى رسول الله ﷺ على غير عادته.

يقول ﷺ: (فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فترل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه)[1] شق للسقف.. وشق للصدر! لكن أين تم ذلك الشق الآخر؟ لقد كان عند بئر زمزم. لقد كان ﷺ نائماً في بيته ثم أُخِذَ للمسجد الحرام.. وكان في المسجد نيام.. أما رسول الله ﷺ.. فكان بين النائم واليقظان.. أُخِذَ أيضاً من بين الناس نحو بئر زمزم. يقول ﷺ:

(بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان -وذكر يعني رجلاً بين رجلين- فأُتيتُ بطست[2] من ذهب مليء حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق[3] البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً)[4].

هذا هو الشق الثالث له ﷺ.. استعداداً لرحلة عجيبة مدهشة معجزة.. لكن كم من الزمن ستستغرقه هذه الرحلة. ومن سيحمله فيها؟

البراق

دابة غريبة ركبها ﷺ.. ووصفها فقال:

---

(١) متفق عليه -البخاري كتاب الصلاة ومسلم -الإيمان -الإسراء.

(٢) الطست هو إناء نحاسي مستدير.

(٣) ما لانَ منه و رَقَّ.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق).

(وأُتيتُ بدابة أبيض، دون البغل، وفوق الحمار «البراق»)[1] ويقول أنس:

(أتي رسول الله ﷺ بالبراق ليلة أسري به، مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه.

فقال له جبريل عليه السلام:

ما حملك على هذا. والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه. فأرفض[2] عرقاً)[3].

أما سرعة هذا البراق.. فيقول ﷺ بأنه:

(يضع حافره عند منتهى طرفه).. والله أعلم بمنتهى طرفه.. لكنه يبدو طويلاً جداً.. يدل على ذلك أن زمن الرحلة كان قصيراً بحيث يعجز الإنسان عن قياس سرعة ذلك المخلوق العجيب. يقول حذيفة رضي الله عنه:

(أتي ﷺ بالبراق -وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل- فلم يزايلا ظهره هو وجبريل حتى انتهت إلى بيت المقدس)[4].

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) سال عرقه.

(٣) رواه الترمذي بإسناد صحيح. (تفسير سورة الإسراء) والبيهقي (٢/٣٦٣): عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس، وقتادة إمام لكنه مدلس ويخشى من تدليسه، لكن هذا الشك يزول بروايته للحديث قائلاً: حدثت عن رسول الله ﷺ، وللحديث شواهد ستمر معنا.

(٤) إسناده حسن، رواه أبو داود الطيالسي (٢/٩١) واللفظ له، والترمذي (التفسير) والبيهقي (٢/٣٦٤) من طريق عاصم بن بهدلة، وهو حسن الحديث وهو ابن أبي النجود أحد أئمة القراءة وهو ثقة في نفسه، عدل لكن في حفظه بعض الشيء، وشيخه هنا هو التابعي

هذا ما جاء عن البراق.. البراق الذي نسج حوله الكذابون الأساطير. فقالوا: إن لـــه رأس آدمي.. وعرفاً من اللؤلؤ.. وأذنين من الزمرد وغير ذلك من الأكاذيب. البراق باختصار هو: دابة أكبر من الحمار وأصغر من البغل أبيض اللون.. وخطوته تصل إلى آخر ما يستطيع مشاهدته.. وقــد ركبه ﷺ حتى أوصله إلى:

المسجد الأقصى

وفي طريقه ﷺ إلى المسجد الأقصى (مر على موسى وهو يصـــلي في قبره)[1] (فأوثق ﷺ الفرس - أو قال: الدابة في الخرابة)[2] وفي ذلك يقول ﷺ: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يـــربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعـــتين، ثم خرجـــت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل:

اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل. فقيل:

من أنت؟ قال:

المخضرم الثقة: زر بن حبيس الذي روى عن حذيفة. انظر التهذيب (٣٨/٥) والتقريب (٢٥٩/١).

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وغيره بلفظ: (مررت ليلة أسري بي على موسى قائماً يصلي في قبره).

(٢) رواه البيهقي (٣٦١/٢) وأبو يعلى (تفسير ابن كثير ٨/٥) من طريق معتمر بن ســـليمان ابن طرخان، عن أبيه، قال: سمعت أنس، وهذا الإسناد صحيح. فالرجلان ثقتان. انظـــر التهذيب (٢٢٧/١٠) والتقريب (٣٢٦/١).

جبريل. قيل:

ومن معك؟ قال جبريل:

محمد. قيل:

وقد بعث إليه؟ قال جبريل:

لقد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل:

من أنت؟ قال:

جبريل. قيل:

ومن معك؟ قال:

محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فترلت إلى موسى عليه السلام. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت[1] بني إسرائيل، وخبرهم.

فرجعت إلى ربي. فقلت: يا رب خفف على أمتي.

---

(١) جربت واختبرت.

فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى. فقلت: حط عني خمساً. قال موسى: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها تكتب سيئة واحدة. قال ﷺ: فترلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ - فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)[١].

ويقول ﷺ:

(.. ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا. قال جبريل لخازن السماء:

افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم. معي محمد ﷺ، فقال:

أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا. فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة[٢]، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/ الإسراء) عن أنس.

(٢) جمع من الناس.

هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمنه وشماله نسم[1] بنيه، فأهل اليمين منهم: أهل الجنة. والأسودة التي عن شماله: أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى: السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول. ففتح.

ويقول ابن عباس وأبو حبة الأنصاري: قال النبي ﷺ:

ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. قال أنس بن مالك قال النبي ﷺ:

..... ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيتها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك)[2].

ويقول مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

فأتينا على السماء السادسة. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه، مرحباً به ولنعم المجيء جاء. فأتيت على موسى، فسلمت، فقال: مرحباً بك من أخ ونبي، فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي.

فأتينا السماء السابعة. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أرسل إليه. مرحباً به، ونعم المجيء جاء. فأتيت على إبراهيم، فسلمت، فقال: مرحباً بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور،

---

(١) يعني أرواح أبنائه.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم. (باب الإسراء من كتاب الإيمان).

فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها[1] كأنه قلال هجر، وورقها كأنها آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل. فقال:

أما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران: النيل والفرات[2].

ترتيب الأحداث

تلك هي قصة الإسراء والمعراج فلنرتبها مع إضافة بعض الأحداث الأخرى التي أتت في أحاديث متفرقة صحيحة.

١- في بيت رسول الله:

ذلك عندما كان نائماً في بيته، فانشق سقف البيت ليدخل منه جبريل.

٢- في المسجد الحرام عند بئر زمزم:

عندما أخذ ﷺ من بين النيام.. وكان في حالة بين النائم والمستيقظ.. ثم أخذ إلى بئر زمزم حيث:

٣- شق صدره ﷺ:

فبعد إحضاره إلى بئر زمزم شق صدره الشريف للمرة الثالثة استعداداً لهذه الرحلة العظيمة.. وحشي إيماناً وحكمة.. وكأن ذلك تحضير لتلك الرحلة الخارقة.

---

(١) النبق: حمل السدر.

(٢) جاء معنى ذلك في الحديث الصحيح عند البخاري (عنصرهما).

٤- إحضار البراق:

وهو دابة حجمه فوق حجم الحمار.. وأصغر من حجم البغل.. أبيض اللون.. خطوته عند مد بصره.. له سرعة مذهلة لا يعلمها إلا الله. وليس هناك أحاديث صحيحة تقول: إن له وجه إنسان أو شعر فرس أو.. أو.. فكل ذلك من أكاذيب الوضاعين.

(وكان البراق كلما صعد عقبةً استوت رجلاه مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه) [١].

٥- ركوب البراق:

وقد وجد ﷺ صعوبة في ركوبه أول الأمر، شمس وامتنع البراق لكن جبريل قال له: (ما حملك على هذا، والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه فارفض عرقاً)[٢] وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل بيت المقدس. وهذا يدل على سرعته.. وعلى أنه قد سبق وأن ركبه غير رسول الله ﷺ.

٦- المرور بقبر موسى:

مر ﷺ بقبر موسى وهو في طريقه نحو المسجد الأقصى (وموسى يصلي في قبره)[٣] وصلاة موسى تختلف عن صلاتنا على ظهر الأرض.. لأن حياة القبر ليست كحياة الأرض (الدنيا).. والصلاة عند العرب

---

(١) سنده جيد رواه الحسن بن عرفة في جزئه (تفسير ابن كثير ١٧/٣) حدثنا مروان بن معاوية وهو ثقة عن شيخه الصدوق قنان بن عبد الله النهمي عن شيخه التابعي الثقة أبي جناب.

(٢) مر معنا وإنه حديث صحيح الإسناد.

(٣) مر معنا وإنه قد رواه مسلم.

معناها: الدعاء.. وحتى الدعاء في القبر.. لا ندري كيفيته.. وفي الكون مما لا يستطيع الإنسان إدراكه بحواسه ما لو علمه لذهل وطار صوابه وتحير. والقبر في جميع الأحوال.. إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة.

كيف يكون ذلك..؟ الله أعلم.

٧- الوصول للمسجد الأقصى:

حيث ربط الفرس أي البراق بالخرابة.. وربطها ﷺ (بالحلقة التي يربط به الأنبياء)[١] وهذا يدل على أن البراق قد ركبه الأنبياء من قبل أو بعضهم.. مما يدل على مشروعية بذل الأسباب مع التوكل وتفويض الأمر لله.. وهذا هو التوكل الصحيح على الله.. وإلا فالبراق لن يهرب والله قد أحضره لنبيه ﷺ.. ثم صلى النبي ﷺ في المسجد الأقصى ركعتين.

٨- الخمر واللبن:

وبعد أن صلى رسول الله ﷺ ركعتين خرج فاستقبله جبريل بإناءين.. في أحدهما لبن.. وفي الآخر خمر. وكان على رسول الله ﷺ أن يشرب أحدهما.. فاختار اللبن فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: (اخترت الفطرة)[٢] ولم يتضح معنى هذه الكلمة في عصر كما اتضح في عصرنا هذا.. فاسأل الأطباء. كما قال جبريل عليه الصلاة والسلام: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)[٣]. بعد ذلك ينتهي الإسراء ويبدأ المعراج.

---

(١) مر معنا وهو عند مسلم.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

(٣) حديث صحيح. متفق عليه.

العروج للسماء الدنيا

حيث صعد جبريل عليه السلام بمحمد ﷺ آخذاً بيده. يقول ﷺ: (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا)[1] وفي هذا الحديث إشارة إلى وجود خازن من الملائكة للسماء الدنيا. كما أن في بقية الحوار بين جبريل وخازن السماء الدنيا ما يدل على أن الملائكة لا تعلم الغيب.. ولا تعلم ما يحدث على وجه الأرض.. وذلك لأنهم يسألون جبريل في كل سماء فيقولون: وقد بعث إليه؟ أو: وقد أرسل إليه؟..

مَنْ مِنَ الأنبياء في السماء الدنيا

لقد شاهد ﷺ أبانا آدم عليه الصلاة والسلام. فسلم عليه رسول الله ﷺ.. ورد آدم عليه السلام.. كما شاهد ﷺ خلقاً كثيراً عن يمينه وخلقاً كثيراً عن شماله وكان آدم إذا نظر إلى يمينه ضحك مبتهجاً مسروراً.. وإذا نظر إلى شماله بكى حزناً وأسى.. فشد ذلك السلوك نبينا محمد ﷺ فسأل عنه جبريل فأجابه جبريل: (هذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسيم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله: أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[2] ثم ودع آدم رسول الله ﷺ بعد أن رحب به ودعا له بخير..

في السماء الثانية

جرى حوار كالحوار الأول بين جبريل عليه السلام وخازن هذه

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

السماء.. ثم دخل رسول الله ﷺ عليهما.. أما من كان مِنَ الأنبياء في السماء الثانية؟

فقد وجد عيسى بن مريم وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فرحبا به.

وقد وصف رسول الله ﷺ أخاه عيسى بن مريم عليه السلام.. فقال:

(رأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)[1].

(أحمر كأنما خرج من ديماس)[2].

السماء الثالثة

في هذه السماء.. شاهد رسول الله ﷺ أجمل خلق الله وجهاً.. يوسف بن يعقوب النبي الأمين عليه السلام.. قال عنه ﷺ: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن»[3]، وقال في حديث صحيح آخر: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)[4] وقد رحب به يوسف ودعا له بخير.

في السماء الرابعة

حيث رأى من قال الله فيه: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[5] إنه إدريس عليه الصلاة والسلام.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه. انظر صحيح الجامع (٥/١٠٨) والديماس هو الحمام.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه الحاكم. انظر صحيح الجامع (١/٣٥١).

(٥) سورة مريم: الآية ٥٧.

وفي السماء الخامسة

شاهد رسول الله ﷺ أخاه هارون.. خليفة موسى في بني إسرائيل.. ووزيره وأخوه صلى الله وسلم عليهم جميعاً. فرحب به ودعا له بخير.

وفي السماء السادسة

لقي ﷺ أخاه موسى عليه السلام.. وقد وصفه ﷺ فقال:

مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام: (رجل آدم، طوال، جعد، كأنه من رجال شنوءة)[1]. (فسلمت فقال: مرحباً بك من أخ ونبي)[2]. لكن موسى عليه السلام بكى بعدما صعد رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة.. فقيل لموسى ﷺ، ما أبكاك. قال: (يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)[3]. ولم يكن ذلك حسداً من موسى.. فالحسد يموج هناك على وجه الأرض.. أما موسى فيبكي متحسراً.. آسفاً لعناد أمته وتعنتها.. وقد كان يحب أمة محمد ﷺ ويعطف عليها.. يدلنا على ذلك حديث طويل جرى له مع رسول الله ﷺ حول عدد الصلوات المفروضة.. والتي بسبب موسى عليه السلام خفف الله الصلاة عن أمة محمد من خمسين إلى خمس صلوات.

في السماء السابعة

وهي آخر السموات.. وفيها شاهد أباه إبراهيم مسنداً ظهره إلى

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -الإسراء).

(٢) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟

(٣) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟

«البيت المعمور» وهو: بيت يطوف به ويصلي به سبعون ألف ملك كل يوم لا يعودون بعدها ودخل ﷺ هذا البيت وسلم على والده فرحب به.. وحمَّلَه وصية لأمته قال فيها: (يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التراب، عذبة الماء، وإنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[1].

أما وصف إبراهيم عليه السلام.. فقد قال رسول الله ﷺ:

(ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)[2] ويقول: (ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب من آرابه إلا نظرت إليه مني كأنه صاحبكم)[3].

«سدرة المنتهى»

وهذه السدرة العظيمة (إليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)[4] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ قال: (فراش من ذهب)[5]، ويصف ما حدث لها فيقول: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[6] جمال وألوان وثمار تقف لغات الدنيا ملجمة أمامها.. لا تستطيع مهما أوتيت من الإبداع

(١) حديث حسن رواه الترمذي. انظر صحيح الجامع (٥/٣٤).

(٢) متفق عليه.

(٣) إسناده حسن، رواه أحمد من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وهلال حسن الحديث. انظر المجموعة القصيمية (الإسراء والمعراج).

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (١/١٥٧).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/١٥٧).

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإيمان -الإسراء).

تجليتها ووصفها.. أو التعبير عن معاناة الوقوف أمامها وأسرها.. هذا هو رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم يقول: فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فكيف يكون جمال الجنة يا ترى؟ وفي أصل هذه السدرة (أربعة أنهار، نهران باطنان، نهران ظاهران)[1]. (أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)[2] أي عنصرهما.. وليس معناه أن النيل والفرات الآن متصلان بها.

ثم عرج به ﷺ لكن ماذا بعد السموات السبع.

صريف الأقلام

يقول ﷺ: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)[3] جبريل رفيق المعراج.. كيف كانت هيأته وهو في الملأ الأعلى.. لقد وصفه ﷺ بقوله: (مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله)[4] كان جبريل كالثوب الرقيق.. قد ذاب من خشية الجبار سبحانه وتعالى.

فرض الصلوات

صعد ﷺ هناك.. أعلى من السحب.. أعلى من الشمس والنجوم والمجرات والكواكب.. لقد اخترقها كلها.. إنه الآن فوق السموات السبع.. محمد ﷺ ينتظر شيئاً في هذه الأجواء الشفافة المتوهجة الطاهرة.. في هذا العلو المقدس.. أوحى الله إلى محمد ﷺ.. ما أوحى: خمسين صلاة

---

(١)حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (كتاب الصلاة -ومسلم كتاب الإيمان).

(٤) حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط. انظر صحيح الجامع (٥/٢٠٦).

في اليوم والليلة. رجع بها ﷺ مطيعاً كعادته.. لكنه وفي طريق النزول.. اعترضه موسى سائلاً.. فأجابه بأن الله قد فرض عليه خمسين صلاة.. فأرشده موسى إلى أن أمته تحتاج إلى تخفيف.. فصعد إلى ربه يسأله التخفيف.. وما زال يتردد بين المكان الذي يوحى إليه فيه وبين موسى حتى جعلها الرحمن الرحيم خمس صلوات في اليوم والليلة لكن لها أجر خمسين صلاة. تفضلاً منه سبحانه وتعالى.

آيات من تحت العرش

آيتان عظيمتان.. أعطاهما الله نبيه ﷺ من كنز تحت العرش.. وفي ذلك يقول ﷺ مبتهجاً بفضل الله عليه من بين الأنبياء بذلك العطاء: (أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي)[1] والآيتين هما (خواتيم سورة البقرة)[2]. أي قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ولذلك يقول ﷺ: (من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني والبيهقي. انظر صحيح الجامع (١/٣٥٠).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٢٥٧) قال عبد الله رضي الله عنه:... وأعطي خواتيم سورة البقرة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤/١٩١٤.

تفضل آخر

ومن فضل الله على رسول الله ﷺ وعلى أمته أيضاً.. ذلك الفيض الغامر رحمة.. عندما أبلغ رسوله ﷺ أنه قد: (غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات)[1]. كل هذا الفضل.. العطاء.. كان وحياً، أم كان خطاباً يسمعه رسول الله ﷺ كما سمعه موسى يا ترى.

هل رأى ربه وسمعه

كما سمعه موسى عليه الصلاة والسلام.. أما السماع.. فقد مر معنا أنه قد أوحي إليه وحياً.. وأما الرؤية.. فقد كفانا أبو ذر مهمة حمل السؤال لرسول الله ﷺ حيث قال رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى[2] أراه»)[3]، (رأيت نوراً)[4]. لكنه رأى الجنة ودخلها، ورأى فيها بشرى، ووصفها فكيف وصف:

دخول الجنة

لقد قال ﷺ: (أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[5].

حوار بين الأنبياء

حوار حول الساعة.. وأمرها ومتى تكون. يقول ﷺ: (لقيت ليلة

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) أي كيف أراه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/ باب نور أنى أراه)

(٤) حديث صحيح. المصدر السابق.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (كتاب الإيمان -الإسراء).

أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال ﷺ. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى عليه السلام. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله، ذلك وفيما عهد إلى ربي عز وجل: أن الدجال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله، حتى إن الحجر.. والشجر ليقول: يا مسلم.. إن تحتي كافر فتعال فاقتله، فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ثم يرجع الناس إلي، فيشكونهم، فأدعو الله فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوي الأرض من نتن ريحهم، فينزل الله عز وجل المطر، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ثم «ينسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم»[1].

ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتام التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً[2].

المسيح الدجال

ذلك القائد اليهودي.. الذي ذكره عيسى بن مريم ﷺ.. هل رآه

---

(١) ما بين الأقواس جزء من حديث صحيح الإسناد عند الحاكم (٢/٣٨٤). انظر تخريج ما بعده.

(٢) إسناده صحيح، رواه أحمد (١/٣٧٥) وابن ماجه، اللفظ لأحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، من جبلة بن سحيم، عن مؤثر عفارة، عن ابن مسعودة العوام بن حوشب بن يزيد الشيباني، ثقة ثبت فاضل من رجال الشيخ. (التقريب (٢/٨٩)، وجبلة بن سحيم تابعي ثقة. انظر الجرح والتعديل (٢/٥٠٨) وشيخه تابعي ثقة أيضاً. انظر ثقات العجلي (٤٤٣)، والحافظ لم ينقل توثيق العجلي في التهذيب ولذلك تأثر حكمه عليه في التقريب.

رسول الله ﷺ في رحلته العجيبة..؟ لقد قال ابن عباس أنه (ذكر الدجال)[١] وأنه (رأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس مناماً قال ﷺ: رأيته فيلمانياً[٢]، أقمر[٣] هجاناً[٤]، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة)[٥].

خازن جهنم

ملَك رهيب اسمه مالك.. لا يبتسم.. وصورته الحقيقية لا تسر.. ولا يستطيع بشر مهما كان قوي القلب الصمود أمامها.. ملك مخيف جداً يتطاير الرعب من قسماته ونظراته.. لا يعرف الشفقة.. ولا يرحم أحداً.. وكيف يرحم وهو خازن جهنم.. وممزق أعداء الله ومعذبهم.. رآه ﷺ أثناء الإسراء والمعراج. حيث (قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار. فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام)[٦].

ولم يرَ ﷺ خازن جهنم فقط بل رأى جهنم نفسها فجبريل عليه السلام أراه الجنة والنار (فنظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلاً أحمر أزرق، جعداً شعثاً إذا رأيته. قال ﷺ: من هذا يا جبريل؟ قال عليه

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان –الإسراء).

(٢) الفيلمان: العظيم.

(٣) الأقمر: الأبيض.

(٤) الهجان: الأبيض.

(٥) سنده حسن، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٦٣) وإسحاق بن سليمان (سيرة الذهبي ص٢٥١) من طريق هلال بن خباب وهو حسن الحديث، عن عكرمة عن ابن عباس، وليس في هلال كلام يضر.

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم.

الصلاة والسلام: هذا عاقر الناقة)[1] التي جعلها الله آية لنبيه صالح عليه الصلاة والسلام.. فكان بجريمته هذه أشقى قومه ثمود. وقد قص سبحانه وتعالى قصته على رسوله ﷺ فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾[2].

ومر ﷺ بأقوام تركوا ألسنتهم تزحف.. أفاعي تنهش الغافلين.. تنهش المجتمع.. واستمر زحفها حتى هوت في الجحيم وكبكبت أهلها فيها (مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس، يخشمون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال عليه السلام: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)[3].

أما في الجنة

في عالم الجمال والأنوار والفتنة.. والحب المتجدد في قلوب الحور حول المياه والخضرة الساحرة.. كان لبلال خشف هناك.. خشف لنعلي ذلك الشريد الذي تتقاذفه قبضات قريش.. فتحتضنه تجاويف الجبال وغيرانها.. يرجف يصبغها بالدماء والبكاء.. يقول ﷺ: (دخلت الجنة ليلة أسري بي، فسمعت في جانبها وجساً، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال)[4].

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٥٥) حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس. عثمان هو العيسى ثقة شهير، التهذيب (١٤٩/٧)، وجرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة صحيح الكتاب، أما قابوس فهو حسن الحديث أفرط ابن حبان في جرحه كعادته، وهو حسن الحديث إذا لم يخالف فجرحه غير مفسر، ووالده تابعي ثقة اسمه حصين بن جندب الجنبي.

(٢) سورة الشمس.

(٣) إسناده صحيح. رواه أحمد وأبو داود. انظر صحيح أبي داود (٩٢٣/٣).

(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير.

بلال في الأرض.. في مكة سلعة تباع وتشترى وتعرض في الأسواق.. لا يملك بيتاً.. ولا يملك نفسه.. لكن في أعماقه بلال آخر.. بلال مسلم متوثب مزق الشرك والخضوع.. يتبختر في القصور هناك في النعيم.. في الجنة حيث سَمعه ﷺ.. سيداً من سادات الأرض والإسلام.

في عالم الجنات حيث لا عين رأت مثل ذلك الحب والجمال والأنوار.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر شيء من ذلك في خيال بشر مهما هام وأبدع.. وتألق أو غاص عوالم الأحلام والأماني.. أشرع الله أبوابها للموحدين ونشر مفاتيحها في دروب الجميع فمن تخلف فلا يلومن إلا نفسه.

وصية

قالتها الملائكة.. لرسول الله ﷺ: (ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا كلهم يقول لي عليك يا محمد بالحجامة)[1].

العودة للمسجد الأقصى

بعد هذه الرحلة الممتعة.. في عوالم الخلود العلوية.. عاد ﷺ إلى المسجد الأقصى (فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)[2].

ثم ركب البراق فإذا هو في مكة في زمن يخرس الأرقام.. محمد يعود والناس نيام.. فماذا سيقول لهم غداً.. وأي كفر ذلك الذي ستشهده شمس الصباح؟

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١٥٥/٥).

(٢) إسناده حسن وقد مر معنا ويشهد له ما بعده. وهو حديث صحيح. رواه مسلم. (الإيمان -ذكر المسيح).

رسول الله حزين معتزل

يقول ابن عباس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: («لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكـــذبي، فقعد معتزلاً حزيناً»، فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال: كالمستهزئ: هل من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو جهل: ما هو؟ قال ﷺ: «إنه أسري بي الليلة». قال أبو جهل: إلى أين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إلى بيت المقدس». قال أبو جهل: ثم أصـــبحت بـــين ظهرانينا؟ قال ﷺ: «نعم». فلم يُرَ[1] إنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبو جهل: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي. فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدِّثْ قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينـــا؟! قـــال ﷺ: «نعم». فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأســـه متعجبـــاً)[2] (فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفـــاراً، فضـــرب الله أعناقهم مع أبي جهل. وقال أبو جهل: يخوفنا محمد شجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا)[3].

---

(١) أي تظاهر أبو جهل بأنه يصدق ذلك الخبر، ظاناً أن تكذيبه في هذا الوقت سوف يجعـــل رسول الله ﷺ يتراجع عن قول الحقيقة إذا اجتمع القوم.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

لكن أبا بكر لا يقول: كذبت

أبو بكر الصديق نبع الصدق.. خير من يعرف رسول الله ﷺ.. في صباه وبعد نبوته.. سمع بالخبر.. فجاء لرسول الله ﷺ. وقال: له: (أشهد أنك رسول الله)[1].

قريش تطلب الدليل

للتعجيز.. لإثبات أن رسول الله ﷺ يكذب ولو لمرة واحدة يلوثون بها تاريخه النقي كأنهار الجنة.. طلبت قريش دليلاً على ما يقوله ﷺ.. فأخبرهم بقافلتهم القادمة ووصفها لهم. لكن هذا الأمر يتطلب الانتظار.. فليصف بيت المقدس فهو لم يره قط. يقول رسول الله ﷺ: (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي. وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم «يعني نفسه» فحانت الصلاة فأممتهم)[2] ويقول ﷺ: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر.. فجلا الله لي بيت المقدس.. فطفقت

---

(١) حديث صحيح رواه البيهقي والبزار (٣٥/١) وقال البيهقي: إسناده صحيح وليس كما قال، بل فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وهو صدوق في نفسه إلا أنه كما قال الحافظ: يهم كثيراً، التقريب (٥٤/١)، وضعفه ليس بالشديد وله شاهد صحيح عند أبي يعلى (١٢٦/٧)

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)[1] ويقول ابن عباس: (قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. فقال رسول الله ﷺ: (فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه وكان مع هذا لم أحفظه). فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب)[2].

أما قافلة العير فساحت في بطحاء مكة.. تنشد الشعر والحداء.. محملة بأقوال تبشر بصدق معراجه. بصدق امتطاء البراق.

فابتهجت قلوب المؤمنين.. وتهللت وجوههم.. وانصرف الشامتون يجرون خيبتهم.. ويجترون جمراً.. إنهم لم يروا محمداً إلا متجدداً طاهراً نقياً لا شائبة فيه.

فرض الصلاة

كان ذلك بعد الإسراء مباشرة، نزل جبريل، وعلم رسول الله ﷺ أوقات الصلاة، عند الكعبة مرتين يقول ﷺ: («أمني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، وكانت قدر الشراك.

وصلى بي العصر حين كان ظله[3] مثله.

---

(١)حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٦٣/٢٠) من طريق عوف عن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس، وعوف هو ابن أبي جميلة، وهو ثقة كان يقال له: عون الصدوق (التهذيب ١٦/٨) وشيخه زرارة بن أوفى العامري الحرشي، تابعي ثقة عابد، مات فجأة وهو يصلي. التقريب (٢٥٩/١).

(٣) مثله في الطول أى في زاوية (٤٥°).

وصلى بي المغرب حين أفطر[1] الصائم

وصلى بي العشاء حين غاب الشفق.

وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم[2].

فلما كان من الغد: صلى بي الظهر حين كان ظله مثله.

وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه.

وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم

وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل.

وصلى بي الفجر فأسفرت[3] ثم التفت إلي وقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين »[4])[5].

وكانت الصلاة بمكة (ركعتين.. ركعتين)[6].. كل صلاة ركعتان إلا المغرب فثلاث ركعات.. حملها ﷺ إلى أصحابه.. علَّمَها إياهم زاداً مفروضاً يريحهم بها ساعات الضيق والضنك.. تعيد تنظيم أوقاتهم كما أعاد التوحيد نظام حياتهم. وكان ﷺ في بعض الأوقات يسير نحو الكعبة.. يعبد الله عندها.. ويؤدي هذه الصلوات هناك. لكن ذلك لم يعجب طواغيت قريش.. لم يرق لهم ما يفعله هذا النبي الجريء الذي يتحدى

---

(١) وقت غروب الشمس.

(٢) فيه فائدة حول وقت السحور. وكان ذلك في أول الأمر.

(٣) يقول ﷺ في الحديث الصحيح: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر». صحيح الجامع (٥/٢٣٧).

(٤) أي وقت كل صلاة ما بين الوقتين اللذين أداها بينهما.

(٥) حديث صحيح. انظر المصدر السابق (٥/٤٦٣).

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (١/١٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

بصلاته أصنامهم وحجارهم وأخشابهم التي يسموها آلهة. لقد حرك ذلك التحدي شهوة الانتقام لدى المشركين.. وجدد محاولاهم السابقة للإيذاء والتنكيل بل والقتل.. وقد تكفل بهذه المهمة طاغوت قريش وفرعون الأمة.

أبو جهل يمنع الصلاة

عندما نفخ صدره أمام أشباهه يوماً ثم نفث سماً قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنَّ على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل.. لأخذته الملائكة)[1].

ثم مشى ﷺ إلى بيت الله واثقاً من وعده.. وصلى وركع وسجد.. فعلم أبو جهل فمر برسول الله ﷺ فقال: (ألم أنهك عن أن تصلي يا محمد؟! لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني. فانتهره النبي ﷺ فقال جبريل: فليدع ناديه، سندع الزبانية، والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية العذاب)[2].

لكن أبا جهل كان حاقداً على النبوة.. حاقداً على صاحبها لأنه ليس من أهل بيته.. لأنها ليست فيهم.. فليحطمها.. وليحطم صاحبها.. أبو جهل كان طافحاً بالحقد.. مشوياً بجمر الحسد.. يكاد يختنق.. كأن محمداً ﷺ وأتباعه داخل صدره القاتم يمنعون عنه الهواء ويحطمون أضلاعه. عقد حاجبيه واسودت الدنيا أمامه (فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٩٦/٤).

(٢) إسناده صحيح، رواه البيهقي (١٩٢/٢) وأحمد والترمذي، من طريق: داود بن أبي هند عن عكرمة، عن ابن عباس، رواه ابن أبي هند القشيري بالولاة، مصري ثقة متقن بالتقريب (٢٣٥/١) وشيخه هو التابعي المعروف مولى ابن عباس وعكرمة.

على رقبته، فما فجئهم[١] منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل لـــه: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وأنزل الله عز وجل[٢]: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾[٣].

فامتثل ﷺ وسجد رغم أنف أبي جهل وأنوف من معه..

لقد كان ما حصل لأبي جهل رادعاً له لو كان له قلب.. لو كان يظن أن محمداً يكذب.. لكنه كان يشرك بالله عن علم ودراية.. عناداً وتجبراً وغروراً بما لديه من نسب ومال.. ولهذا وأمثاله جزاء رادع.. في يوم لا ينفع المال ولا البنون وفي أمثال هذا نزل الوحي من السماء: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾[٤].

يضعون السلا على ظهره

شاهدهم عبد الله بن مسعود فلم يستطع فعل شيء.. كان محطـــم

(١) باغتهم دون توقع لهذا التصرف.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب المنافقين).

(٣) سورة العلق.

(٤) سورة الهمزة.

القلب واليدين وهو يشاهد حبيبه ﷺ (يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور[1] بالأمس. فقال أبو جهل:

أيكم يقوم إلى سلا جزور «بني فلان» فيأخذه. فيضعه على كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم، فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر - لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ- والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت -وهي جويرية- فطرحت عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا.. دعا ثلاثاً، وإذا سأل.. سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ:

«اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش».

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ:

«اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع و لم أحفظه»)[2]. استنفذ ﷺ -دون يأس- كل الوسائل فـ:

لم يبق إلا الدعاء

قريش أصبحت جداراً.. أم القرى لهيب نار.. اليوم صوها رمضاء.. دروها عماء.. دروها حبال.. حصار فوقه حصار.. تلبد الحصار كالجبال كالمحال.. لكنه الإيمان.. نبض الموحدين يمضغ المحال.. وفي السماء قطرة

---

(١) الجزور من الإبل يطلق على الذكر والأنثى والمراد به هنا سلا الأنثى من الإبل.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والسير، والبيهقي (٢/٢٨) واللفظ له.

ستغسل الجبال.. ستزرع الحياة في القلوب.. في كل حبة من الرمال..

البحث عن الأنصار

بعد أن أصبحت قريش جداراً من العناد والحصار.. جد ﷺ في البحث عن أنصار يحملون دين الله بقلوبهم.. يفتش عن أرض وصدور أرحب.. ولذلك: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث.

فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم. فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن

يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[1].

إذاً فقد سمع الجن واستمعوا.. ورسول الله ﷺ لا يدري باختلاط الجن من حوله واضطرابهم.. ثم إنصاهم وخشوعهم.. فمع خيوط الفجر كانوا قد انحدروا.. ومع طيوره وأنسامه كانوا قد (هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن (ببطن نخلة).. فلما سمعوه قالوا[2]:

أنصتوا صه.. وكانوا تسعة أحدهم (زوبعة) فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا

(١) سورة الجن.

(٢) الفتنة: الامتحان والابتلاء.

قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

هذه الآيات نزلت.. ونزل غيرها فيما بعد تبشر رسول الله ﷺ بأن لـه أتباعاً لا يراهم ولا يسمعهم.. ليسوا من الملائكة.. ولا من البشر.. بل هم من الجن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[2].

ومحمد ﷺ نبي للإنس والجن، وقد أمره الله بأن يلتقي بوفد من الجن.. في ليلة بحث الصحابة فيها عن حبيبهم ﷺ فلم يجدوه.. ووجدوا الحزن والخوف في كل مكان يفتشونه.. في كل مكان يقصدونه.. حتى ظنوا أن أيدي المشركين تخطفته وفتكت به.. تلك ليلة كالحداد.. تحدث عنها ابن مسعود فقال:

(كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة.. ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب.. فقيل: أستطير؟! اغتيل.

فبتنا بشر ليلة بات بها قوم, فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. فقلنا:

فقدناك فطلبناك, فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن.

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ -٥٨.

فانطلق ﷺ بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد.. فقال ﷺ:

كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً(1)، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم..

قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بها فإنهما طعام إخوانكم»(2). هذه ليلة لم يحضرها أحد، لم يشهد أحداثها سواه ﷺ، لكن هناك ليلة أخرى.. أحب ﷺ أن يكون له فيها رفيق من صحابته. فكان عبد الله بن مسعود الذي يقول:

(قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل.

فلم يحضر منهم أحد غيري.. فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطاً.. ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن.. فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط. ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني، فقال: ما فعل الرهط قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم)(3).

---

(1) أي إن العظام التي يذكر اسم الله عليها عند أكل لحمها تعود كما كانت للجن.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم.

(3) حديث حسن، رواه ابن جرير (تفسير ابن كثير ٤/١٦٤) من عدة طرق عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري عن ابن عثمان بن شبة. والصحيح: ابن سنة كما قال الحافظ عن ابن مسعود، وفي هذا الإسناد علتان، الأولى: رواية يونس عن الزهري، فيونس وإن كان ثقة إلا أن روايته عن ابن شهاب فيها وَهْمٌ قليل، والتابعي ابن سنة لم يوثق، لكن له طريقان يرتقي بهما إلى درجة الحسن، هما: جرير عن قابوس عن أبي ظبيان عن أبيه عن =

هذه هي قصته ﷺ مع الجن.. سمعوه وهو يصلي في طريقه إلى عكاظ.. ثم التقى بهم مرة.. وأخرى.. وربما ثالثة ورابعة.. لقد أُمر ﷺ بإرشادهم.. بإنقاذهم من عوالم الشرك التي تموج ولا نراها.. لكنه لم يؤمر بالاعتماد عليهم.. ولا بإقامة علاقة بينهم وبين أصحابه.. فكلٌّ يدعو في مجاله.. وكل يتوهج في ميدانه.. هنا عالم للإنس وهناك عالم للجن.. وما يهمنا هو عالمنا.. فماذا فعل ﷺ بعد أن فرغ من صلاته متجهاً نحو عكاظ؟

في عكاظ

وصل ﷺ إلى عكاظ تتبع القبائل.. دخل خيامهم وبشرهم ودعاهم.. كل القبائل دون استثناء.. بني عبس.. وكندة.. وبكر بن وائل.. وبني عامر بن صعصعة.. وبني حنيفة.. وغيرهم.. فكانت بعض القبائل تصرفه بلطف.. والبعض بعنف.. وهناك من يشتمه ويسبه ويتهمه.. وكان خلف ذلك الرفض أكوام الوصايا تحذر من فتى قريش ﷺ. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الحاج في منازلهم، في المواسم: مجنة، وعكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مصر، أو من اليمن، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه، فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك. يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله

=

ابن مسعود، وهذا الطريق حسن لذاته وقد مر معنا تخريجه.. كذلك طريق آخر عند أبي نعيم. انظر تفسير ابن كثير (١٦٤/٤) وانظر تخريج الأحاديث التي جمعتها في تخريج أحاديث السيرة.

عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب)[1].

عشر من السنين يرفع الخباء.. يشع في الخيام كالشموس كالضياء.. يحط كالأمطار كالربيع والظباء.. لينعم الجميع.

كان ﷺ لطيفاً ليناً في حديثه.. يحترم من أمامه.. ويدعوه بأحب الأسماء إليه. ها هو في لقاء مع رجل من:

همدان

فبينما (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل، فاتاه رجل من همدان، فقال الرسول ﷺ: ممن أنت؟

فقال الرجل: من همدان.

قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟

قال الرجل: نعم.

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل، قال ﷺ: نعم. فانطلق)[2].. أهذه

---

(١) هو قطعة من حديث صحيح سيمر معنا عند لقاء الأنصار.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (الفتح ٢٠/٢٦٨) وأصحاب السنن والحاكم وأبو نعيم من طريق: إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر. وسالم ثقة تابعي سمع من جابر. انظر جامع التحصيل (٢١٧) والتقريب (١/٢٧٩) وعثمان بن المغيرة، الثقفي بالولاء، قال أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، والنسائي، والعجلي، وابن نمير، وعبد الغني بن سنيد كل هؤلاء قالوا عنه: ثقة. التهذيب (٧/١٥٥) وإسرائيل بن يونس ثقة معروف. التهذيب (١/٢٦١).

الدرجة بلغ الخوف من القوم؟! ألهذه الدرجة صحراء العـرب موحشـة وقاسية على هذا النبي ﷺ وعلى أصحابه المساكين؟! كأنهم سـيتحالفون مع الموت.. مع الفناء.. أما لهم عقول!.. أم تحولوا إلى صخور؟ ومع ذلك لا يأس.. يعود ويداه خالية منهم.. وهمُّ العالم يدور برأسه.. يعود إلى بيته حيث لا خديجة.. لا زوجة تمسح الجراح.. تبادله الحب والحنان.. يتذكر خديجة في بيته الذي يفتقدها.. يتذكر خمسة وعشرين عاماً مـن الحـب عاشها معها.. ولا يعرف من تلك الطاهرة إلا ما يثلج صدره ويبهجه.. ما ذكر امرأة غيرها.. ولا طرق باباً للزواج بعدها.. كأنها لم تمت.. لكن إرادة الله كانت وحياً في المنام.. ورؤيا الأنبياء وحي ينتصب حقيقة على الأرض.. فما الذي جرى في المنام.

فتاة وحرير

كان ﷺ نائماً.. فجاءه في المنام رجل مرتين.. يحمل ابنـة صـاحبه الصديق أبي بكر عائشة رضي الله عنها. يحملها (في سرقة من حريـر[1] فيقول: هذه امرأتك. فأكشفها فإذا هي أنت[2]. فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه)[3].

الزواج بعائشة وسودة

كانت هذه الرؤيا وحياً من الله مَنَّ به على رسول الله ﷺ.. فضـلاً منه لم يسع إليه ﷺ.. بل ساقه إليه.. تقول عائشة رضي الله عنها: (لمـا

---

(١) قطعة حسنة من الحرير.

(٢) يخاطب ﷺ في هذا الحديث زوجته عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (١٩٥٣/٥). ومعنى يمضه: أي يتمه.

ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون. قالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال ﷺ: «من؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال ﷺ: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال رسول الله ﷺ: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول. قال ﷺ: «فاذهبي فاذكريها علي».

فدخلت بيت أبي بكر، فقالت:

يا أم رومان[1] ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة. قالت أم رومان:

وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت أم رومان:

انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر. فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل عليكم من الخير والبركة. قال: وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال أبو بكر:

وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك. قال ﷺ: «ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي». فرجعت فذكرت ذلك. قال أبو بكر: انتظري -وخرج- قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

بكر رضي الله عنه على مطعم بن عدي، وعنده امرأته -أم الفتى[1]- فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصب[2] صاحبنا - مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر للمطعم بن عدي:

أقول هذه تقول؟ قال المطعم: إنها تقول ذلك[3]. فخرج من عنده، وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ. فدعته، فزوجها إياها -وعائشة يومئذ بنت ست سنين- ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة، فقالت: ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة. قالت سودة: وما ذاك؟ قالت:

أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه، قالت: -وودت- ادخلي إلى أبي فاذكري ذاك له -وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن قد تخلف عن الحج- فدخلت عليه، فحييته بتحية الجاهلية[4]. فقال:

من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم. قال:

فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة. قال:

كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قلت:

---

(١) أي أم الفتى التي خطبت له عائشة.

(٢) الصابئ عند المشركين هو من ترك دينه وقد خافت أم الفتى أن يدخله أبو بكر في الإسلام بعد زواجه من عائشة.

(٣) جاء في رواية أن المطعم (أقبل على امرأته فقال لها: ما تقولين، فأقبلت على أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليك تصبئه وتدخله في دينك؟ فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟ فقال المطعم: إنها لتقول ما تسمع. فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء. انظر سيرة الذهبي (٢٨١).

(٤) في رواية عند الذهبي: فقلت له: أنعم صباحاً.

تحب ذاك. قال: ادعيها إلي. فدعيتها. قال: أي بنية إن هذه تـزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم. أتحبين أن أزوجك به؟ قالت سودة: نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله ﷺ إليه، فزوجها إياه. فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجعل يحثي في رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة)[1].

ودخلت سودة بنت زمعة بيت رسول الله ﷺ، أول امرأة بعد خديجة.. وكانت مثل خديجة قد سبق لها الزواج برجل قبل رسول الله ﷺ، وربما كانت أسن منه.. أما عائشة رضي الله عنها فقالت:

(تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بسنتين وأنا بنت سبع سنين)[2]. ودخل ﷺ على سودة.. لكنه لم يدخل على عائشة في مكة أبداً.. أما سودة فالتحقت ببيته ﷺ.. تصلح من شأنه وترعاه وتزيح عنه الكدر والأذى الذي يلاحقه في شوارع مكة كظله.

عروس ولكن

أصبح ﷺ عروساً يبتهج بحياته الجديدة كما تبتهج زوجته به.. لكنهما عريسان للكفاح.. للنضال.. يريدان جعل الأرض كلها أعراساً

---

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (الفتح ٢٠/٢٣٧). محمد بن عمرو، قال: حدثنا أبو سلمة ويحيى قالا: وظاهره الإرسال لكنه جاء متصلاً كما في سيرة الذهبي حيث قال يحيى بن عبد الرحمن بن خاطب: قالت: عائشة. وهو ممن روى عنها وروى عن غيرها من الصحابة وسبب كون الإسناد حسناً هو محمد بن عمرو بن علقمة فهو حسن الحديث. وقد جاء الحديث متصلاً عند الطبراني (٢٣/٢٤).

(٢) تزوجها في مكة لكنها لم تزف إليه ﷺ إلا في المدينة، والحديث رواه البخاري ومسلم.

وأفراحاً.. لكن كيف يتم ذلك والأصنام أطناب خيمة تمنح السواد.. عن الأرض تمنع الضياء.. تحرم العباد نشوة الحياة.. تملأ الطريق نحو الله بالوحوش.. وبالغيلان والهوام.

حمل ﷺ ثياب عرسه واتجه نحو تجمعات القوم من جديد.. فلن يكون للعرس لذة والناس محرومون من لذة الإيمان فالتوحيد كالماء كالهواء.. لا بد أن يدخل كل بيت ويعمر كل قلب.. وعلى حامله أن يحفر القناة بمعوله بيديه بأظفاره فالناس عطاش والأرض جفاف.

اتجه ﷺ إلى قبائل العرب.. يرافقه أبو بكر الصديق.. وابن أخيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.. فكانت هذه القصة المنسوجة بالأشعار والأنساب:

في خيام ربيعة

يقول علي رضي الله عنه:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، وأنا معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم، أبو بكر وكان مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نسابة - فسلم، وقال: ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال أبو بكر: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها، أي من لهازمها[1]؟

فقالوا: من الهامة العظمى.

---

(١) اللهزمة عظم في اللحى تحت الحنك. أي من أشرافها.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وأي هاماها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر؟ قال أبو بكر:

منكم عوف الذي يقال له: لا حر بوادي عوف؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم جساس بن مرة، حامي الذمار[1] ومانع الجار؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم الحوفزان، قاتل الملوك، وسالبها أنفسها؟ قالوا:

لا. قال: فمنكم المزدلف، صاحب العمامة الفردة؟ قالوا:

لا. قال: أخوال الملوك من كندة؟ قالوا:

لا. قال: أصحاب الملوك من لخم؟ قالوا:

لا. قال: فلستم من ذهل الأكبر، أنتم من ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام من بني شيبان يقال له «دغفل» حين تبين وجهه فقال:

إن على سائلنا أن نسله والعبو لا نعرفه أو نجهله

يا هذا.. قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً، فممن الرجل؟

قال أبو بكر: أنا من قريش.

فقال الفتى: بخٍ.. بخٍ أهل الشرف والرياسة. فمن أي القرشيين أنت؟ قال أبو بكر: ولد تيم بن مرة.

فقال الفتى: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أمنكم قصي[1]

(١) أي ما يحمي كالأهل والعرض والمال.

الذي جمع القبائل من فهر، فكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال أبو بكر:

لا. قال: فمنكم هشام[2] الذي هشم الثريد لقومه، ورجال مكة مسنتون عجاف. قال: لا. قال: فمنكم شيبة الحمد: عبد المطلب[3] مطعم طير السماء الذي كان وجهه القمر يضيء في الليلة الداجية؟ قال أبو بكر: لا.

قال: فمن أهل الإفاضة[4] بالناس أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل الحجابة[5] أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل السقاية[6] أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل النداوة[7] أنت؟ قال: لا.

قال: فمن أهل الرفادة[8] أنت؟ قال: لا.

فاجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام الناقة، راجعاً إلى رسول الله ﷺ، فقال الغلام:

صادف در السيل دراً يدفعه   يهضبه حيناً وحيناً يصدعه

=

(١) جد النبي ﷺ.

(٢) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٣) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.

(٤) انصراف الحجاج من عرفات.

(٥) حجابة الكعبة.

(٦) السقاية: حياض كانت على عبد قصي توضع بفناء الكعبة. يسقى فيها الماء العذب للجميع.

(٧) دار الندوة التي كانت قريش تقضي فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من غير أولاد قصي إلا من بلغ أربعين سنة.

(٨) الرفادة: أموال تخرجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج.

أما والله لو ثبت لأخبرتك من قريش، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال علي: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. قال أبو بكر:

أجل يا أبا الحسن، ما من طامة، إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق.

وعند مفروق وقومه

قال علي رضي الله عنه:

ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم.

فقال: ممن القوم؟ قالوا:

من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر الناس، فيهم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته[1]، وكان أدنى القوم مجلساً، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق بن عمرو:

إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر:

كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال المفروق:

إنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد،

---

(١) عظم الصدر.

والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدلنا[1] مرة، ويـــدلي علينـــا أخرى، لعلك أخا قريش؟

فقال أبو بكر: قد بلغكم أنه رسول الله؟ ألا هو ذا. فقال مفروق:

بلغنا أنه يذكر ذاك، فإلى ما تدعو يا أخا قريش، فتقدم رسول الله ﷺ، فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقام رسول الله ﷺ:

«أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله لا شريك لـــه.. وأن محمـــداً عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله الغني الحميـــد». فقال مفروق ابن عمرو:

وإلامَ تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ[2] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال مفروق بن عمرو:

وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ فقال مفروق:

دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمـــال،

---

(١) أدل الإنسان بحجته: احتج بها وأحضرها.

(٢) الفقر.

ولقد أفك[1] قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا. فقال هانئ بن قبيصة: لقد سمعت مقالتك يا أخا قريش، إني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر أنه زلل في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن يعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر، وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى بن حارثة: سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب في جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتك على دينك، وإنا إنما نزلنا بين صريين اليمامة والسمامة، فقال رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان. فقال المثنى:

أنهار كسرى، مياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه مغفور، وعنده مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا قرشي مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب. فعلنا، فقال رسول الله ﷺ:

ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم. أتسبحون الله وتقدسونه، فقال النعمان بن شريك:

اللهم فلك ذلك. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا

---

(١) كذب.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1]. ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر وهو يقول:

يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم، قال علي رضي الله عنه:

فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا، حتى بايعوا رسول الله ﷺ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وقد سر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنساهم)[2].

إذاً

ففي خيمة المفروق لا عطاء.. لكن مجلس المفروق كان آخر الأحزان.. لم يحث في الوجوه.. شتماً ولا تراب.. رطباً طرياً كان مجلس

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٢) إسناده جيد، رواه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٢) واللفظ له، وأبو نعيم (٢٨٢) من طرق عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:.. وأبان بن تغلب الربعي، أبو سعد الكوفي، ثقة قال أحمد بن حنبل: ثقة، وقال ابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: ثقة، وقال النسائي: ثقة، لكنه قد عرف بالتشيع، وتشيعه من النوع الذي يقول عنه الحافظ: (التشيع في عرف المتقدمين: اعتقاد تفضيل علي على عثمان.. ثم قال: وأما التشيع في عرف المتأخرين فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافض الغالي ولا كرامة) وهذا الرجل ليس من الرافضة، بل ممن ينطبق عليهم التعريف الأول، ولذلك قال الحافظ نفسه عنه في تقريب التهذيب (١/٣٠): أبان بن تغلب أبو سعد الكوفي ثقة تكلم فيه للتشيع. انظر التهذيب (١/٩٤) وشيخه عكرمة مولى ابن عباس: ثقة مر معنا كثيراً.

وقد تكلمت عن الحديث وطرقه بأطول من هذا في (تخريج أحاديث السيرة) عند تخريجي له. وقد قال الحافظ في الفتح: وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن. انظر فتح الباري (١٥/٧١) وقول القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن.

المفروق.. يوحي بأن في الصحراء.. قلباً وماءً.. نبعاً يرطب العـــروق.. يشدها نحو السماء.

لقاء الأنصار

دفع ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى خيام الأوس والخزرج.. القادمين من حرة يثرب.. فكان لقاء الغرباء بالغرباء.. جـــدد الـــدنيا.. وحـــول التاريخ.. وأعاد إلى الإنسانية مكانتها وقيادتها التي كادت تهلك دونها. (لما لقيهم رسول الله ﷺ. قال لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجـــل، وعـــرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانـــت الأوس والخزرج أهل شرك، وأصحاب أوثان فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالت اليهود: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عـــاد وإرم[1]. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم اعلموا والله أن هذا الذي توعدكم به يهـــود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لمّا دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منـــه مـــا عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجـــل أن يجمعهـــم الله بـــك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

---

(١) أرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة كبيرة لهم. وهذه العبارة لا تزال موجـــودة في تـــوراة اليهود حتى اليوم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا)[1]. ولما وصلوا إلى يثرب.. تسللوا إلى قلوب بعض قومهم.. فاستجابوا لهم وأسلموا.. فصار في تلك الديار من يعبد الله وحده لا شريك له.. ويصلي على رسول الله ﷺ.. فلما كان موسم الحج التالي قدمت مطايا يثرب من المشركين تحج مكة.. وكان بين الركب مطايا للموحدين.. وفد يثرب من الأنصار مشوا إلى رسول الله ﷺ بعد انقضاء شعائر الحج.. غسلوا أيديهم من دماء الثارات والعنف الجاهلي بماء زمزم الطاهر.. غسلوها ومدوها لرسول الله ﷺ طاهرة.. يبايعونه ليلاً.. وعيون مكة نائمة عما يجري على أرض العقبة.

العقبة الأولى

وعندما رأى ﷺ أيديهم تصل إليه إذعاناً وامتثالاً لله ورسوله.. قال لهم: (تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)[2].

فبايعوه وشدت الأيدي للنهوض بالحق وبذله للجميع لشعوب الأرض جميعاً. والرجال المبايعون في العقبة الأولى كانوا قليلاً.. يقول

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه البيهقي (٤٣٣/٢) وأبو نعيم (٢٩٨) والطبراني قال ابن إسحاق: حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه: لما لقيهم، وهذا يعني أن الأشياخ هم الذين قابلوا رسول الله ﷺ أي أنهم من الصحابة، وعاصم بن عمر روى عن بعض الصحابة، وهو تابعي ثقة. فالإسناد صحيح.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري -مناقب الأنصار، ومسلم (الحدود).

أحدهم وهو عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً)[1] حملها الأنصار وابتهجوا بها، وكانت فخرهم عندما يلوح الرجال بإنجازاتهم أمام الجميع.. يقول أحدهم وهو كعب بن مالك: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)[2].

وممن شهد العقبة: جابر بن عبد الله الأنصاري القائل: (أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة)[3] والقائل: (شهد بي خالاي العقبة)[4].

تلك بيعة حطمت جدراناً سوداء تحجب عن الدنيا أنواراً للآخرة.. بيعة توقظ.. بيعة تهز هذا الإنسان الرث الملتحف بقشور السنين المظلمة.. تقول له: هذا ربك فاعبده وحده.. وأنت خليفته وسيد كونه. فاجعله ربيعاً يبتسم. وهذا مالك منثور في كل مكان.. ابحث عنه والتقطه.. ودع غيرك يبحث ولا تمدن يديك إلى ما في أيدي الغير.. حتى تكون خليفة حقاً.. وسيداً للكون أيضاً. وتزوج فالحب أنفاس الحياة.. فلا تلوثها برائحة البغايا المنتنة.

---

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢/٥٧) حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي، عن عبادة بن الصامت، وفي هذا السند صرح ابن إسحاق والسماع من شيخه والثقة الفقيه يزيد وليد (تهذيب ١١/٣١٨) وشيخه مرثد تابعي ثقة فقيه (التهذيب ١٠/٨٢) وابن عسيلة رحمه الله رحل إلى رسول الله ﷺ فوجده قد مات، وقد وثقه العجلي (التهذيب ٦/٢٢٩).

(٢) حديث صحيح. (البخاري -مناقب الأنصار).

(٣) حديث صحيح. رواه (البخاري -مناقب الأنصار).

(٤) حديث صحيح. رواه (المصدر السابق).

إنها بيعة تلاحق ذلك الرجل المتجه كالغضب نحو المقابر.. تمسك به وتهز كتفيه وتصرخ في وجهه:

ويحك قف ما هذا الذي تحمله على ظهرك قاصداً به نحو المقابر.. ويحك قف إنه ما زال حياً.. إنها ابنتك ونبض قلبك.. شريانك ودمك.. ماذا جنت حتى تهيل التراب عليها وهي شاخصة تبلل لحيتك وقبرها بدموع.. تناشدك شيئاً من حنان.. مبادئ عظيمة قبض عليها الأنصار بأيديهم وحملوها إلى يثرب.. فلما أروها بعض قومهم قدموا إلى مكة طمعاً في مثلها فكان:

(يأتيه الرجل، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام)[1]. ويبتهجون بتلك المبادئ التي غرسها في أعماقهم هذا الدين المدهش حفظت لهم أعراضهم وأموالهم.. وأطفالهم وأذابت ما بينهم من صدأ الجاهلية.. كحبات المطر يمتزجون سيلاً يغيث الصحراء.. لا فرق بينهم جميعاً.. لكن أكرمهم عند الله أتقاهم ومع ذلك كانوا بحاجة إلى معلم يقرأ عليهم كتاب الله.. فكان:

مصعب بن عمير في يثرب

لقد (بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، فيدعو الناس بكتاب الله، فإنه أدنى أن يتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ «مصعب ابن عمير» أخا بني عبد الدار، فنزل في «بني غنم» على أسعد بن زرارة،

---

(١) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد (٢٠/٢٦٩ الفتح الرباني) والبيهقي (٢/٤٤٢) من طريق: ابن خثيم عن أبي الزبير أن جابر حدثه: أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس ثقة من رجال الشيخين وهو مدلس لكنه سمع من جابر هنا وعبد الله بن عثمان بن خثيم ثقة. قاله النسائي وابن سعد والعجلي وزاد ابن معين: حجه.

فجعل يدعو الناس سراً، فيفشو الإسلام ويكثر أهلـه، وهـم في ذلـك مستخفين بدعائهم)[1].

غربة مصعب

لم تخل حياة هذا المعلم الغريب من المعاناة.. فهو بعيد عن مكـة.. بعيد عن رسول الله ﷺ.. ظهره مكشوف للجميع.. لا يملك شـيئاً.. لا أهلاً.. ولا مالاً.. ولا سلاحاً.. كل ما يملكه رسالة ربه.. هي زاده وهي سلاحه.. يقتحم الأهوال بها.. لا يأبه إن ضرب أو مات فما خرج مـن مكة يبحث عن حطام الدنيا.. بل كـان يتحسـس حطـام القلـوب والأرواح.. ليجمعها من جديد.. كان يحمل الحياة في هـوة المـوت.. يردمها.. ثم يزرعها للجميع.. خضراء أشرقت يثرب بمصعب بن عمير.. لكن من يحملون في صدورهم صخوراً.. ساءهم تلك البهجـة وذلـك الاخضرار.. فأخبروا سيداً لهم ليضع للأمر حداً.. ولمصعب ومن معه نهاية يقفون عندها.. وكان اسم سيدهم هذا (سعد بـن معـاذ، فأتـاهم في لأْمَتَه[2] معه الرمح حتى وقف عليهم فقال لأسعد بن زرارة: علام تأتينـا في دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب، يسفه ضـعفاءنا بالباطـل، ويدعوكم إليه، ولا أراكم بعدها بشيء من جوارنا. فرجعـوا. ثم إنهـم عادوا الثانية لبئر مرق[3] أو قريباً، فأخبر بهم سعد بن معاذ.. فتواعـدهم

---

(١) حديث حسن بالشواهد وتخريجه في الحديث الذي يليه فهو جزء منه.

(٢) عدة الحرب.

(٣) بئر من آبار المدينة، وبداية هذا الحديث عند هذا البئر كما جاء في أول القصة: إن أسعد ابن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرق، أو قريباً منه، فجلسا هناك، وبعثا إلى رهط من أهل الأرض، فأتوهم مستخفين، فبينا مصعب بن عمير يحـدثهم ويقـص عليهم، وأخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته، الرمح.. إلخ.

توعداً دون الوعيد الأول. فلما رأى أسعد بن زرارة منه ليناً قال: يا ابن خالة اسمع من قوله، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه. فقال سعد:

ماذا يقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف. فرجع وقد هداه الله تعالى، ولم يظهر لهم الإسلام حتى رجع إلى قومه، فدعا بني الأشهل إلى الإسلام، وأظهر إسلامه، وقال: من شك فيه من صغير أو كبير، أو أنثى أو ذكر، فليأتنا بأهدى منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر لتحزَّنَّ فيه الرقاب.

فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، إلا من لم يذكر، فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرهم، ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة، فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكانت المسلمون أعز أهلها، وصلح أمرهم، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ[1].

عاد المقرئ إلى معلمه ونبيه ﷺ يبشره بأن يثرب قد ملئت دروبها بحطام الأصنام.. يبشره بأن أبوابها مشرعة للشمس والهواء.. للقلوب المحبة

(١) سنده مرسل عند أبي نعيم (٣٠٦) وهو مرسل عروة، وروى مرسلاً عن الزهري, لكن للخبر شاهد عند ابن إسحاق (ابن هشام ٦٠/٢): حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وهذان تابعيان ثقتان ولبعض الخبر شواهد صحيحة مر بعضها.

المبتسمة.. للأيدي تصافح.. يبشره بأن التوحيد - يغمر أجواء يثرب.. فلقد عادت الحياة إليها من جديد.

أما قريش فقد كانت أسوأ مما تركها عليه.. لقد تحولت في وجه رسول الله وصحبه إلى سدود حديد صلبة.. وأقفال لا مفاتيح لها.. كان المشركون صمتاً مخيفاً يفوح مكيدة وخبثاً.. أما الموحدون فكانوا صمتاً متفائلاً ينتظرون لقاء الأنصار في العقبة الثانية.

حيرة بين الأقصى والكعبة

حان موعد الحج.. فتداعى الحجيج وسالوا من كل فج نحو بيت ربهم.. لكن الكعبة لم تكن تنتظر إلا وفداً قادماً من حرة يثرب.. فهم لا يحملون أصناماً.. ولا يعلقون تمائم.. إنهم يحملون توحيداً يغسل الكعبة مما علق بها من أرجاس الشرك.. الشاعر كعب بن مالك أحد هؤلاء الموحدين يحمل شعراً يحمل طهراً ويحدثنا فيقول: (خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا «البراء بن معرور» كبيرنا وسيدنا، حتى إذا كنا بظاهر «البيداء» قال: يا هؤلاء تعلمون أني قد رايت رأياً، والله ما أدري توافقون عليه أم لا، فقلنا: وما هو يا أبا بشر؟ قال: إني قد أردت أن أصلي إلى هذه البنية[1]، ولا أجعلها مني بظهر، فقلنا: لا والله لا تفعل، والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام. قال البراء بن معرور: فإني والله لمصل إليها، فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء بن معرور: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعته في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي. فخرجنا

---

(١) يعني يريد استقبال الكعبة عندما يصلي.

نسأل عن رسول الله، فلقينا رجلاً بالأبطح. فقلنا: هل تدلنا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقال: فهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه -ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ- فقال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب؟ فقلنا: نعم. وقد كنا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة - فقال: فإذا دخلتما المسجد فانظرا العباس، فهو الرجل الذي معه. فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا، ثم جلسنا، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال العباس: نعم. هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال العباس: نعم. فقال له البراء: يا رسول الله إني قد كنت رأيت في سفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه. قال ﷺ: «وما ذاك؟» قال البراء: رأيت أن أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها. فقال له رسول الله ﷺ: قد كنت على قبلة. لو صبرت عليها. فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ)[1].. ورجع هو ومن معه إلى رحال قومهم..

وفي أواخر أيام الحج هذه تجهز الأنصار لموعد رسول الله ﷺ السرِّي في ليلة:

العقبة الثانية

يقول كعب بن مالك:

(وقد واعدنا رسول الله ﷺ العقبة أوسط أيام التشريق، ونحن سبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام «أبو جابر» وإنه لعلى

---

(١) انظر تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

شركه، فأخذناه فقلنا: يا أبا جابر، والله إنا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غداً حطباً، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله ﷺ للبيعة.

فأسلم وطهر ثيابه، وحضرها معنا، فكان نقيباً، فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا[1]، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله ﷺ، وعمه العباس، ليس معه غيره، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فكان أول متكلم، فقال العباس: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وهو في منعة من قومه وبلاده، وقد منعناه، ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشيرته وقومه. فقلنا: قد سمعنا ما قلت. تكلم يا رسول. فتكلم رسول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به والتصديق له، وقلنا له: يا رسول الله خذ لربك ولنفسك. فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم. فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم، والذي بعثك بالحق ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة.. ورثناها كابراً عن كابر، فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا أقواماً حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فقال

---

(١) نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

رسول الله ﷺ: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم»، فقال البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً». فأخرجوهم له.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة.

وكان نقيب بن سلمة: البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام.

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع.

وكان نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت.

وفي الأوس من بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان.

ونقيب بن عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة.

فكانوا اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج.. وثلاثة من الأوس. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا)[1] فامتزجت القلوب والأيدي في مهرجان حب وولاء، تلك الأيدي كانت في تمازجها تخنق مخلوقاً مخيفاً لا يُرى ولا

---

(١) انظر تخريجه في نهاية هذا الخبر، وهو حديث صحيح.

يُسمع، حشته بيعة العقبة الثانية جمراً محرقاً، فصرخ يدعو جيوشه المشركة لتطفئ ما به من حريق، لقد كان ذلك الصارخ هو عدو الإنسانية كلها:

الشيطان يصرخ

يحاول إيقاف غطيط المشركين علهم يتنبهون لما يجري حولهم. يقول كعب بن مالك: (فصرخ الشيطان على العقبة بأبعد -والله- صوت ما سمعته قط، فقال: يا أهل الجباجب[1]، هلاً لكم في مذمم[2] -ما يقول محمد- والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ:

«هذا أزب[3] العقبة.. هذا ابن أزيب.. أما والله لأفرغن لك، ارفضوا[4] إلى رحالكم». فقال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلة من قريش، فيهم: الحارث بن هشام فتى شاب وعليه نعلان جديدان، حتى جاءوا في رحالنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم، فانبعث من هناك من قومنا من المشركين، يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر بن عبد الله بن عمرو بن

(١) أسماء منازل بمنى، وسميت به لأن كروش الأضاحي تلقى فيها أيام الحج. اللسان.

(٢) هكذا كان الحاقدون المشركون يسمونه ﷺ، فيقولون مذمماً بدلاً من محمد.

(٣) شيطان اسمه أزب العقبة.

(٤) ارفضوا، أي تفرقوا إلى رحالكم.

حرام -وهو صامت- وأنا صامت. فلما تثور القوم لينطلقوا، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام:

يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا، وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

فسمعه الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إلي، وقال: والله لتلبسنهما. فقال أبو جابر: مهلاً أحفظت لعمر الله الرجل -يقول أخجلته- أردد عليه نعليه. فقلت: والله لا أردهما، فَأْلٌ صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنه)[1].

أما جابر بن عبد الله الأنصاري فيقص أحداث العقبة الثانية فيقول:

(بعثنا الله عز وجل له ﷺ من يثرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله عز وجل وائتمرنا واجتمعنا - سبعين رجلاً منا، فقلنا: حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده، فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟

قال ﷺ: «بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى

---

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٤٤٤): حدثني معبد بن كعب ابن مالك بن القين، أخو بني سلمة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك، قال: خرجنا في الحجة.. وهذا الإسناد صحيح شيخ ابن إسحاق، ثقة من رجال الشيخين فقد وثقه العجلي (٤٣٣)، وأخوه ثقة. انظر التقريب (١/٤٤٠). فقد قال الحافظ: ثقة يقال له رؤية.

النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً سناً، فقال: رويداً يا أهل يثرب. إنا لم نضرب إليه أكباد المطايا إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم: مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم[1] السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله عز وجل، فقلنا: أمط[2] يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة)[3].

شمس جديدة كالذهب.. وصباح منعش كالمطر.. ورواحل الأنصار تودع البطاح.. تحمل عهداً.. تحمل حباً لمحمد.. تنثر منه للتلال للكثبان.. تنعش به الأجواء.. تبشر به التائهين على صفحة الأرض كلها.

أما قريش فالأيام تزيد في جنونها، وطغاتها حارت بهم الدروب..

---

(١) أي تضربكم وتشد عليكم.

(٢) أي أبعد.

(٣) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٣٣٩) والبيهقي (٢/٤٤٢) من طرق عن: عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير: محمد بن مسلم أنه حدثه جابر بن عبد الله.. وهذا الإسناد صحيح ابن خثيم ثقة. انظر التقريب (١/٤٣٢) وأبو الزبير تابعي مدلس لكنه صرح بالسماع من جابر وهو محمد بن مسلم بن تدرس وحديثه صحيح.

كلما أغاروا على مسلم ضعيف لم يجدوه.. لم يجـدوا في بيتـه سـوى الجدران.. سوى الرياح تنوح داخله باكية تبحث عن أحبتها فلا تجدهم، أما الأبواب فكانت تصطفق تضطرب كقلب عاشق مهجور.. فلن تعانق بعد اليوم تلك الأيادي المتوهجة بالوضوء. ما الذي حدث يا مكة.. ماذا فعلت بك تلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ:

رؤيا

رآها ﷺ، فأسر بها إلى أصحابه المثقلين بقيود قريش. قـال لهـم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان[١].. فهاجر مـن هاجر قِبَلَ[٢] المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينـة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة. فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجـو أن يؤذن لي». فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال ﷺ: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلـف[٣] راحلتين كانتا عنده: ورق السمر[٤] -وهو الخبط- أربعة أشهر)[٥].

جاءت هذه الرؤيا تبعث الأمل من جديد.. بعد أن ضـاقت مكـة واصطكت جبالها على الموحدين.. بعد أن أصبح الموت يتلصص عليهم.. يرقبهم في الزوايا والممرات متوثباً يريد الفتك بهم وبدينهم.. فلم المكوث في هذا الاختناق.

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار.

(٢) نحو..

(٣) أطعمها العلف.

(٤) شجرة الطلح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

هجرة عمر بن الخطاب
وعياش وهشام

يقول رضي الله عنه:

(اتعدت لما اجتمعنا للهجرة أنا و «عياش بن أبي ربيعة» و «هشام ابن العاص»: الميضأة[1] -ميضأة بني غفار- فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه.

فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف[2]، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة -وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما- حتى قدما علينا المدينة، فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرق لها.. فقلت له: يا عياش.. والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت. قال عياش: إن لي هناك مالاً فآخذه. قلت:

والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما فأبى إلا أن يخرج معهما. فقلت له لما أبى علي:

أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول[3] فالزم ظهرها، فإن رابك[4] من القوم ريب فانج عليها. فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطرق قال أبو جهل بن هشام:

---

(١) أي تواعدنا في مكان يقال له (الميضأة).

(٢) أي أرض قباء.

(٣) سهلة الانقياد.

(٤) أصابك الشك.

والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه. قال عياش: بلى. فلما أناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عديا عليه وأوثقاه، ثم أدخلاه مكة، وفتناه، فافتتن، فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] قال عمر بن الخطاب: فكتبتها في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى، أصعد بها وأصوب[٢] حتى فهمتها، فألقي في نفسي أنما نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت، فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة)[٣].

يأس كاد أن يقضي على اثنين من رجال الإسلام.. كان عمر فيهما بطلاً.. شهماً.. بعيد النظر.. يعرف من يكون طاغوت قريش الملقب بـ (أبي جهل) وما هي ألاعيبه.. لذلك مد يديه مفتوحتين يتناثر منهما ماله.. يبذله بسخاء افتداءً لأخيه من المجهول المخيف.. لكنَّ أخاه كان

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) صعد النظر أي نظر إلى أعلاه وصوبه أي خفضه.

(٣) رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٤ـ٢/٨٥) فقال: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال: اتعدت إنما أردتا الهجرة..
وهذا الإسناد صحيح ورجاله ثقات أعلام معروفون، وابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه نافع.

رقيق القلب تجاه أمه فصدق ما قيل لـــه.. فترل عمر عن راحلته ليركب أخوه عليها.. فإنها سريعة متى ما أحس بحاجـــة إلى الهـــرب.. وتمـــت التمثيلية.. ووقع عياش في الأسر والحزن.. وحاصرته جبال مكـــة حـــتى اقتربت من أضلاعه.. وطوته الأيام بالهموم والضياع.. حتى نزل الفـــرج من الله.. كلمات تشرح الصدور وتغرس فيها الآمال من جديـــد.. ولم يكن عياش وهشام وحدهما المأساة.. فـــ (أم سلمة) كانت حزناً يزحف في طريق الهجرة.. أم سلمة كانت غربة تبحث عـــن أرض كالحـــب.. كالأمان تحقق انتماءها عليها.. أم سلمة امرأة حزينـــة.. هامـــت علـــى وجهها تبحث عن حياة حقيقية تليق بمسلمة مثلها لا ترضى بالـــذل ولا بالتخلف معها. ركبت البحر إلى الحبشة بصحبة زوجهـــا العظـــيم (أبي سلمة رضي الله عنهما).. وركبته ثانية عائدة إلى مكة بعـــد أن لاح في الأفق أمل للحرية في أجواء مكة.. عادت وزوجها.. فوجدا مكة أكثـــر ظلمة.. وأكثر أنياباً.. ولما سمعا بأن في حرة المدينة أذرعاً وقلوباً مفتوحة وشمساً مشرقة.. التفتا إليها لعل هذا الهم ينفض عن قلبيهما.. وسارا نحو مدينة الإسلام الجديدة لا يعلمان ماذا تخبئ الجبال خلفها.. ولا أي حزن كانت تغطيه رمال الطريق.

مأساة هند

تقول رضي الله عنها:

(لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني «سلمة بن أبي سلمة» في حجري، ثم خرج بي يقـــود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قـــاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيتك صاحبتك هذه، علام نتركك

تسير بها في البلاد؟ فترعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد «رهط أبي سلمة»[1] فقالوا:

لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.. فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.. ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني.. فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي: سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة:

ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. فقالوا لي:

الحقي بزوجك إن شئت. ورد بنو عبد الأسد - أي عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.. أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان[2] بن طلحة بن أبي طلحة -أخا بني عبد الدار- فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا. قال: والله ما لك من مترك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المترل أناخ بي.. ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت أستأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها،

---

(١) أي قومه.

(٢) أسلم هذا الشهم فيما بعد.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله ثم استأخر عـــني، وقـــال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حـــتى ينزل بي. حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو ابـــن عـــوف بـــ (قباء) قال:

زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة بها نازلاً- فادخليها علـــى بركة الله، ثم انصرف. فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول:

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب أبا سلمة، ومـــا رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة)[1]. في غربة الـــدروب والأسفار لا طفل.. لا حبيب.. لا ظل.. لا أشجار.. عام بلا نهار.. عام بلا نهار.. في الأبطح المزروع بالرماح والقضبان.. هند تموت.. في كـــل ساعة تموت.. والشرك شرطة تحاصر الأنفاس.. وترفض العبـــور تقفـــل المكان.. وتفسح الطريق عبر غابة الأكفان. للحزن والرمضاء والزمـــام.. عثمان يخطف الزمام.. وينقش الشهادتين والوعود.. كي يعود.. لأنهـــر الحياة والإسلام.. لا بد أن يعود..

فإن بين جوانح هذا الشهم إسلاماً مكتوف اليـــدين.. يحتـــاج إلى شرارة تحرق قيده.. وتزيح ركام الجاهلية الجاثم على أنفاسه.

---

(١) رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢/٨٠) وقد صرح بالسماع من والده فقال: حـــدثني أبي يسار، عن سلمة بن عبد الله عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، قالت: في هذا السند والد ابن إسحاق وهو إسحاق بن يسار وهو ثقة.. انظر التقريب أما سلمة فهو تـــابعي وثقه ابن حبان فيحتاج إلى مزيد من التوثيق وقد أوردته لأن سلمة تابعي روى عنه عدد من ثقات التابعين وأعلامهم ومنهم: الثقة الثبت عمرو بن دينار، وعطاء بن أبي رباح وهو ثقة فقيه فاضل وكذلك والد ابن إسحاق وهو تابعي ثقة. انظـــر التهـــذيب (٤/١٤٨). ولأنه يروي هذا الحديث عن جدته.

مأساة كانت أم سلمة.. مآسي كانت دروب الفرار من الاضطهاد إلى بلد الحرية المفتوح.. لكن ماذا عن سيد المهاجرين.. هل سيبقى وحيداً في مكة وبيوت أصحابه خالية إلا من بكاء الريح. ترى متى سيهاجر.

رسول الله يؤمر بالهجرة

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ بمكة، فأُمِر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)[1].

وبعد نزول هذا الأمر الكريم اتجه ﷺ نحو صاحبه أبي بكر في سرية تامة.. متلثماً، في وقت يلوذ فيه الناس ببيوتهم وتخف وطأهم على الطرقات والدروب لشدة الحر والرمضاء.. في هذا الوقت الذي يتجول فيه السموم واللهب وحدهما في الطرقات كان ﷺ يطرق باب أبي بكر الصديق بحذر شديد.. تقول عائشة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[2] -في ساعة لم يكن يأتينا فيها- فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعةإلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر:

«اخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول

---

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (تفسير ابن كثير ٣/٥٨) فقال: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، وهذا الإسناد حسن وقد مر معنا تخريجه، وقال ابن كثير بعد أن ذكره: قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) متغطياً بثوب متخفياً عن أعين قريش.

الله. قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: «الصحابة»[1] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»)[2]. أي سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله رسول الإسلام ﷺ.. أما أعداء الإسلام والحياة.. طواغيت قريش فكانوا في تلك الأيام في شغل وهم ومكائد ينسجون خيوطها في مكان يقال له:

دار الندوة

حيث تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسمة إلى حمم من الغضب.. دار الندوة تحولت إلى بركان ثائر يريد رأس رسول الله ﷺ بأي ثمن.. فقد أيقنت قريش بأنه لا محالة خارج إلى مدينة الإسلام الجديدة متلحقاً بأصحابه.. الوضع مخيف جداً.. قريش يخيفها مستقبلها المجهول إن انتصر عدوها محمد ﷺ.. لذلك اجتمعت في يوم أسمته (يوم الزحمة) الذي تحدث عنه ابن عباس فقال: (لما اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت[3] له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح،

---

(١) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٣) البت: هو الكساء الغليظ.

قالوا: أجل، فادخل. فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة.

من بني عبد شمس: شيبة وعتبة ابنا ربيعة.. وأبو سفيان بن حرب. ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي.. وجبير بن مطعم.. والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام.. وزمعة بن الأسود بن المطلب.. وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.. ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج. ومن بني جمح: أمية بن خلف.. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.. فقال بعضهم لبعض:

إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان، وما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا. ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهيراً، والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي:

لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا.. ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره ثم تشاوروا، فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا، فإذا خرج فوالله ما نبالي إلى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي:

والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا. فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل[1] كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي لا رأي لكم غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)[2] ذلك ما أسفر عنه يوم الزحمة.. أما بيت أبي بكر.. فلم

---

(١) أي الدية.

(٢) حديث حسن بطرقه، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه رواه الطبري (٢/٣٧٠) من عدة طرق، صرح فيها بالسماع، فقد سمعه من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الطريق لا يفرح به لأن فيه الكلبي وهو تالف، أما الطريق الثانية: الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس. والحسن هذا متروك، أما الطريق الثالثة فرجالها ثقات: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس، ومجاهد إمام تابعي ثقة معروف وعبد الله بن أبي نجيح ثقة، لكنه ربما دلس أي أنه قليل التدليس، وللحديث شواهد تجعله حسناً لا شك، فقد رواه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة (٥/٣٨٩) مرسلاً وهذا شاهد يكفي، كذلك له شاهد آخر من طريق الواقدي: عدة أسانيد عن علي وعائشة وسراقة. والواقدي متروك.

يكن أقل نشاطاً مما يحدث في دار الندوة.. فالكتمان والصمت والعمل الدؤوب شعار للجميع. تقول عائشة:

(فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين)[1]، فتاتان من فتيات الإسلام يواجهن الموت ليل نهار.. يردن بذلك وجه الله.. ينشرن أذرعهن طريقاً لمدينة الإسلام.. هاتان الفتاتان ليستا وحدهما من بين شباب الإسلام.. كان هناك شاب عظيم طرح للموت جسداً باعه لله.. يفتدى به رسوله ﷺ ذلك هو:

علي بن أبي طالب على فراش الموت

فعندما اتفق الطغاة على تحديد ليلة ينكسون فيها سيوفهم في ذلك الجسد الطاهر.. ثمانية سيوف وربما أكثر تتلمض تريد أن تستحم بدمائه ﷺ وتشب.. يريدون ليطفئوا نور الله.. والله متم نوره.. ولو كان فوق كل حبة رمل سيف لأعدائه.. أرسل الجبار سبحانه وحياً يحمله جبريل (فأتى جبريل رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كان العتمة من الليل اجتمعوا على بابه، فترصدوه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، واتشح[2] ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري، وقد مر معنا أوله.

(٢) أي تغط.

(٣) جزء من حديث طويل مر معنا وهو عن اجتماع دار الندوة وهو حسن بالشواهد.

وامتثل الفارس الشاب لأمر سيده ﷺ.. واتشح بالبرد.. وكان على استعداد ليتشح بالدماء.. فقد علمه الإسلام كيف يبذل روحه لله وحده.. علمه كيف يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه.. وخرج رسول الله ﷺ متسللاً.. وبعد خروجه (جاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، فقال: يا نبي الله. فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار، وجعل علي يُرْمَى بالحجارة كما كان يُرْمَى نبي الله ﷺ وهو يتضور[1]، قد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشف رأسه، فقالوا: إنك للئيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك)[2].

إذاً فقد حدث تغيير بسيط في خطة الهروب بعد أن علم ﷺ بالمؤامرة فلم ينم على فراشه.. وتسلل ﷺ بعد تخطيط محكم وخدعة بارعة انطلت على جميع الأغبياء والأذكياء منهم.. على كل سيف صلت قد انتصب خلف باب ينتظر الجريمة.. ولم تكتشف أكداس الكفر خلف الجدار ما حل بهم إلا بعد أن تنفس الصبح في وجوههم يوقظهم ليسخر منهم.. علي بن أبي طالب كان فتى يعدل أمة.. ويخدع طواغيتاً قد ركمهم الحقد وحنطهم الغل حول الباب.. بينما كان رسول الله ﷺ يأخذ بيد صاحبه أبي بكر عند بئر ميمون ويواصلان المسير على عجل.. يدفعان الجبال عنهما دفعاً.. بالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. لقد كانا مسرعين

(١) يتلوى.

(٢) إسناده لا بأس به، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣/١١٨) من طريقين، عن أبي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس: وأبو عوانه اسمه: وضاح بن عبد الله اليشكري، وهو ثقة ثبت. التقريب (٢/٣٣١) وشيخه اسمه: يحيى بن سليم وحديثه حسن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشهور وثقة عابد. التقريب (٢/٨٠).

يقصدان جبلاً عيَّناه وحدداه ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطة الهروب.. وهما الآن يعجان إليه.. لكن أبا بكر الصديق لم يكن طبيعياً.. كان مرتبكاً.. طريقة سيره توحي بذلك.. فهو يحمل روحه في إحدى يديه.. ويحمل باليد الأخرى خمسة آلاف درهم هي كل ما يملكه من مال.. لكن حركته واضطرابه لا توحي بأنه خائف على روحه ولا على ثروته فماذا هناك؟

ماذا دهاك يا أبا بكر

أتدرون ماذا كان يفعل (يكون مرة أمام النبي ﷺ مرة.. وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى[1] من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك)[2] واستمر أبو بكر في تصرفه حتى عندما لامست أقدامه صخور الجبل.. وعند الصعود فعل ذلك (حتى انتهى إلى الغار من ثور).

عندها فعل أبو بكر ما لا يفعله غيره (قال أبو بكر: كما أنت[3]. حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك)[4].

(١) أي تهاجم وتصاب.

(٢) حديث حسن بالشواهد: رواه البغوي (سيرة ابن كثير ٢/٢٣٧) وابن هشام، حدثنا داود الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة ورجال هذا الإسناد ثقات، انظر داود الضبي في التقريب (١/٢٣٣) حيث قال عنه: ثقة، وراجع ترجمة نافع بن عمر في التقريب (٢/٢٩٦) حيث قال عنه: ثقة ثبت، وابن أبي مليكة تابعي ثقة أدرك ثلاثين صحابياً واسمه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة، إذاً فالنص مرسل، لكن يشهد له حديث عمر، وسند آخر جاء عن عمر. انظره في دلائل البيهقي (٢/٤٧٧) وسند مرسل أيضاً عن الحسن البصري رواه ابن هشام فالحديث حسن.

(٣) أي قف مكانك.

(٤) هو جزء من الحديث السابق.

لقد كان أبو بكر طيفاً من الحنان.. سحابة من الحب تظل رسول الله ﷺ كأني به يود لو صنع من جسده درعاً يحمي به رسول الله ﷺ حتى يصل إلى أحبابه المنتظرين في حرة المدينة وبين نخيلها.

فلا عجب أبداً بعد هذا أن يحمر وجه عمر بن الخطاب غضباً على رجال فضلوه على أبي بكر.. لقد كان عمر يعرف من هو أبو بكر.. فقد (ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر، فقال رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة خلفي، وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب[1] فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد[2] فأمشي بين يديك. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال رضي الله عنه: نعم. والذي بعثك بالحق، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى استبرئ، فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله. فترل ثم قال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر)[3].

ذاك جسد لأبي بكر باعه لله.. وتلك دماء تشخب منه تنقش على

---

(١) من يسيرون خلفه طلباً لدمه.

(٢) أي من يترصدون له في طريقه.

(٣) إسناده صحيح لولا الانقطاع، فقد رواه البيهقي (٤٧٦/٢) أخبرنا موسى بن الحسن بن عباد، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا السري بن يحيى، حدثنا محمد بن سيرين قال: وكل هؤلاء ثقات لكن التابعي الإمام محمد بن سيرين لم يدرك عمر، لكن الحديث حسن بما قبله، وبأحاديث ستأتي إن شاء الله.

جدران الغار حب الله وحب رسوله ﷺ: (لقد كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر، فقال:

إن أنت إلا إصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت)[1]

ذاك جسد أبي بكر.. أما مال أبي بكر.. كل ماله فهو منثور بي يدي رسول الله ﷺ في الغار.. حمله أبو بكر كله.. وقدمه لرسول الله ﷺ كله.. حتى صار بيت أبي بكر في مكة خالياً إلا من الإيمان.. وفتيات رباهن الإسلام وأبو بكر.. هذه إحداهن.. المجاهدة العظيمة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر تقول: (لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف -فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي: أبو قحافة[2]- وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم[3] بماله مع نفسه. قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة[4] في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكت هذا الشيخ بذلك)[5].

---

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق: حدثني يحى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه عباد حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.. ويحى وعباد ثقتان، انظر تهذيب التهذيب (١١/٢٣٤)(٥/٩٨) وابن إسحاق لم يدلس فقد صرح بالسماع من شيخه يحى.

(٢) اسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، مات ابنه أبو بكر قبله وقد أسلم.

(٣) آلمكم وآذاكم، أي أنه لم يترك لكم لا نفسه ولا ماله.

(٤) الكوة: الخرق في الجدار.

(٥) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق فقال: حدثني يحى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه =

إهن بنات أبي بكر.. والذهن شريد طريد، قابع فوق أحد الجبال.. مختبئ بدينه ونبيه ﷺ.. وهذه هي أحوال الدعاة بين مهاجر بعيد عن الأهل والمال.. وأسير تفتك به أظافر قريش.. ومطارد لا يدري ماذا تطوى له التلال والدروب. أما قريش فـ:

قريش غاضبة

تفجرت كالشظايا.. في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين الجبال والدروب.. تقلب الصخور وتفتح الأبواب وتهز أغصان الأشجار.. وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة.. تتمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال.. تبحث عنك يا رسول الله تتمنى لو وقعت في قبضتها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[1] يقول ابن عباس: (تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق -يريدون النبي ﷺ- وقال بعضهم: بل اقتلوه.

وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً - يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري.

= عباداً حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر. وهذا الإسناد صحيح: ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه يحيى بن عباد، وشيخه يحيى ثقة، انظر التقريب (٢/٣٥٠) والتهذيب (٢٣٤/١١) ووالده: عباد، كان قاضي مكة زمن أبيه، وخليفته إذا حج، وهو تابعي ثقة. انظر التقريب (٣٩٢/١) والتهذيب (٩٨/٥).

(١) سورة الأنفال.

فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)[1].

وعن غضب قريش يحدثنا حفيد أبي بكر فيقول:

(إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه، وإما أن يسجنوه، وإما أن يخرجوه، وإما أن يوثقوه، فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

وبلغه ذلك اليوم الذي أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبي بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه، وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قِبَل الغار بثور، وهو الغار الذي ذكره الله عز وجل في القرآن، وعمد علي بن أبي طالب فرقد على فراشه، يواري عنه العيون)[3]. وقد وصل المشركون ورسول

---

(١) رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس: قال ابن كثير: هذا إسناد حسن، وليس كما قال رحمه الله، ففي الإسناد: عثمان الجزري، وحديثه حسن بالشواهد فيحتاج إلى شاهد.. وهذا الشاهد جاء عن الحسن البصري مرسلاً ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٣٩)، أما ذكر الحمامتين اللتين باضتا على فم الغار فلم أعثر له على سند قوي.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٣) إسناد مرسل ويشهد له ماسبق، ويرفعه إلى درجة الحسن. انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٤٦٥)، وانظر كذلك مغازي عروة للعلامة الأعظمى (١٢٨).

الله ﷺ نائم على فراشه وكانوا ينتظرون خروجه.. وللتأكد كانوا يرمونه بالحجارة فلا يتحرك.. ثم أمر ﷺ علياً أن يرقد في فراشه فكانت هذه القصة التي يرويها ابن عم رسول الله ﷺ وابن عم علي رضي الله عنهم حيث يقول:

(شرى عليٌّ نفسه، ولبس ثوب ا النبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه بردة، وكانت قريش، تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، -فنظروا- فإذا هو علي فقالوا:

إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك)[1] (فسألوه عن النبي ﷺ، فأخبرهم أنه لا علم له به، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبوا في كل وجه يطلبونه، وبعثوا إلى أهل المياه يأمروهم، ويُجعلون لهم الجُعل العظيم[2]. وأتوا على ثور الذي فيه الغار، الذي فيه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، حتى طلعوا فوقه، وسمع النبي ﷺ أصواهم، فأشفق[3] أبو بكر عند ذلك، أقبل على الهم والخوف، فعند ذلك قال له النبي ﷺ:

---

(١) سنده حسن. رواه الحاكم (٤/٣) وأبو داود الطيالسي وأحمد (١١٨/٢٣) كلهم من طريق أبي عوانه عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس واسم أبي عوانة: الوضاح وهو ثقة ثبت التقريب (٣٣١/٢) وشيخه حسن الحديث فهو صدوق ربما أخطأ وليس هناك من لا يخطئ، التقريب (٤٠٢/٢) وهو تابعي صغير، أما عمرو بن ميمون فهو ثقة مخضرم مشهور. التقريب (٨٠/٢) وقد مر معنا قبل قليل.

(٢) أي جائزة عظيمة مقابل ذلك.

(٣) أي خاف، ومعروف خوف أبي بكر وأنه على رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً كما مر معنا.

«لا تحـــزن إن الله معنا». ودعا، فترلت عليه سكينة من الله عز وجل: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

إذاً فقد حامت الأقدام حول فم الغار.. لحظات تحـــبس الأنفـــاس وتتقلب فيها القلوب والأبصار.. ويهجم الخوف والرعب مـــن شـــقوق الغار.. من سيوف الطغاة ومن العيون التي تتطاير إجراماً وشرراً لكن:

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة، ويحدث الجميع بما جرى من حوار هامس بينه وبين حبيبه ﷺ فيقول: (كنت مـــع رســـول الله ﷺ في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصـــرنا تحـــت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)[2].

إذا كان الأمر كذلك فوالله لو سار مع قـــريش كـــل الأحيـــاء.. وتشققت المقابر فخرج الأموات يسحبون أكفانهم خلـــف أبي جهـــل.. يقلبون معه حجارة الأرض.. ويجتثون أشجارها.. ويزحزحون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما.. فكيف تقدر قريش.. هذا أمر لن يحـــدث أبـــداً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

---

(١) سورة التوبة. وانظر ما بعده وما قبله فهو به حسن لأنه مرسل عـــروة عنـــد البيهقـــي (٤٧٨/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد اللفظ لأحمـــد. انظـــر الفـــتح الربـــاني (٢٨٢/٢٠).

عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وانحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث.. وتتصبب عرقاً وهزيمة.. تدحرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها.. وأعلنت لمن حولها عن هزيمة قاسية تلقتها من محمد ﷺ.. وأعلنت عجزها وضعفها.. وحاولت الاستنجاد وطلب العون من أي شخص كان ليقبض على محمد ﷺ فهو:

مطلوب حياً أو ميتاً

وقد فتحت قريش صناديق الحلال والحرام.. وعرضت الهدايا والهبات أمام الجميع.. تقدمها لمن يحضر رسول الله حياً.. أو يسحبه ميتاً.. أو يحمل رأسه ورأس صاحبه إلى قريش.. أحد الذين سمعوا بالجائزة.. أحد الذين فركوا أيديهم طمعاً فيها رجل اسمه: سراقة بن مالك.. يحدثنا فيقول: (جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل واحد منهما، من قتله أو أسره)[2].

إذاً فقريش قد استنفرت رجالاتها وأموالها وتوجهت إلى كل العرب ضد رسول الله ﷺ تستحثهم وتغريهم.. لكن رسول الله ﷺ كان أذكى من الجميع وقد أعد خطة محكمة لتذهب ضربات قريش في الهواء.. خطة تجعلها لا تجني من ركضها سوى الغبار والعرق.. أما تنفيذ هذه الخطة فقد بدأ حالما انحدرت قريش من جبل ثور.. فرسول الله ﷺ لم ينحدر بعدها لقد قرر أن يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.. هذه الأيام الثلاثة

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا. رواه البخاري.

ستكون محمومة بالبحث والتفتيش.. وهي كفيلة بالفتِّ من عزيمة الكفار وتسريب الإحباط إلى نفوسهم.

لكن كيف سيعرف رسول الله ﷺ وصاحبه ما يجري.. كان الجواب شاباً من أبناء أبي بكر الصديق أيضاً.. ملأه الإيمان حباً.. وحماساً وبذلاً.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم يكلمهم. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم ثم يحملها إذا جن المساء.. فيصعد بها الجبل.. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه.. وقبيل طلوع الشمس عند الفجر.. وبعد أن يؤدي الصلاة مع رسول الله ﷺ ينحدر إلى مكة ثانية ليقوم بمهمته من جديد.. وعبد الله لم يكلف في هذه المرحلة إلا بمهمة واحدة.. هي حمل الأخبار فقط.. حتى لا يثير شك من يصادفه في طريقه.

أما الطعام.. فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضاً.. إنه أحد رعاة الغنم.. واسمه: عامر بن فهيرة.. كان يسوق غنماته ويسيح معها في نزهة خارج مكة.. وهذا أمر طبيعي لا يلفت الانتباه أبداً.. فهو راعي غنم ومهمته تقتضي أن يكون خارج المدينة.. فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء.. ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضاً. تقول عائشة رضي الله عنها:

(فَكَمِنا[1] فيه ثلاث ليال، ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر -وهو غلام شابّ، ثقف[2]، لقن[3]- فيدلج[4] من عندهما بسحر[1]، فيصبح مع

---

(١) اختفيا في الغار.

(٢) حاذقاً: خفيفاً.

(٣) ذكي.

(٤) الإدلاج: هو السير أول الليل، والمراد هنا إنه يسير من عندهما وقت السحر.

قريش بمكة كبائت[2]، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة -مولى أبي بكر- منحة[3] من غنم، فيريحها[4] عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل -وهو لبن منحتهما ورضيفهما[5]- حتى ينعق[6] عامر بن فهيرة بغلس[7]، يفعل ذلك في كل ليلة من الليالي الثلاث)[8].

إذاً هناك بطلان: أحدهما يكشف تفكير العدو. والآخر يحمل الطعام. لكن هل سيدوم الحال على هذا الوضع؟ لقد اشترى أبو بكر راحلتين فأين هما.. أعند عبد الله.. أم بين أغنام عامر بن فهيرة؟ وكيف سيحصلان عليهما وعيون قريش تدور.. تتلصص في كل مكان؟

لم تكن الإجابة صعبة على رسول الله ﷺ.. فقد أعد لذلك خطةً محكمة.. هذه الخطة تقضي بألا تكون الراحلتان عند عبد الله بن أبي بكر ولا عند عامر بن فهيرة.. فلو كانتا عند أحدهما لارتبات قريش وزرعت شكها عيناً تلاحقهما حتى تظفر بما تريد.. ورسول الله ﷺ يدرك ذلك

---

(١) السحر: هو قبيل الصبح.

(٢) أي كأنه نائم في مكة.

(٣) عطية.

(٤) المراح: هو ما تأوى إليه الإبل والغنم بالليل.

(٥) اللبن الذي رضفت فيه الحجارة المحماة بالنار لينعقد ويثخن وتزول رخاوته.

(٦) النعق: صوت الراعي بغنمه.

(٧) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٨) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

كله ويدرك ما هو أبعد من ذلك.. لذلك استخدم كل الوسائل المباحة المتاحة في أرجاء الكون الفسيح له.. فاسند لهذه المهمة رجلاً مشركاً لكنه كان أميناً.. واعده ﷺ الليلة الثالثة كي يحضر الراحلتين.. وكان هذا الرجل من أعلم الناس بطبيعة الطريق ومسالكه.. يعرف كيف يتسلل بهما بعيداً عن حوافر الشرك ورماحه.. تقول عائشة:

(واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل -وهو من بني عبد بن عدي- هادياً خريتاً. والخريت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاصي بن وائل السهمي -وهو على دين كفار قريش- فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، بعد ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل)[١].

على دروب السواحل

على دروب السواحل.. الفجر سار يناضل.. والليل صار مخيفاً.. والخوف كان الرواحل.. فهذه الرحلة يحدد نجاحها قيام دولة للإسلام في يثرب.. أو موت حلم ثم البدء من جديد.. والبحث من جديد.. يقول الصديق رضي الله عنه:

(أدلجنا من مكة ليلاً، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا[٢]، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا صخرة، فانتهيت إليها، فإذا بقية ظل لها، فسويته، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض[٣] ما حولي

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) وقت الظهر.

(٣) أتحسس وأحرس وأراقب المكان.

هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي نريد -يعني الظل- فسألته، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش فسماه، فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفض كفيه - فقال هكذا، فضرب إحدى كفيه على الأخرى- فحلب لي كثبة[1] من لبن، وقد رويت معي لرسول الله ﷺ أداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته وقد استيقظ فقلت: أتشرب يا رسول الله؟ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. قال: لا تحزن إن الله معنا. فلما أن دنا منا، وكان بيننا وبينه قيد رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله - وبكيت. فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك.

فدعا عليه رسول الله ﷺ: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها. ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا.. وكذا..، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) قليل.

«لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا لـــه رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ)[1].

مَن سراقة هذا وما الذي أتى به خلف رسول الله ﷺ.. وكيف عرف أنهم يسلكون طريق السواحل؟

سراقة يتحدث

ويقص كيف علم بمسلك رسول الله ﷺ بعدما أخـــبره رجـــل لمحهـــم يسيرون بقرب الساحل.. وكان ذلك الحديث في مرابع بني مدلج (قوم سراقة) فيقول: (جاء رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر «ديـــة» كل واحد منهما: من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس مـــن مجـــالس قومي -بني مدلج- أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقـــال: يـــا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه)[2].

سراقة يبحث عن الدماء والدية

فحالما سمع حديث الرجل انتصبت في مخيلته (مائة مـــن الإبـــل)[3] تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ وصاحبه.. تخيـــل سراقة تلك الإبل المائة وهي تسيل بين الأودية نحوه ليضمها ويلحقها بمـــا يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة في طريق المدينة. لذلك حاول إخـــراس ذلك المتكلم.. وتثبيط عزيمة السامعين من قومه حتى لا يلحقوا بالمهاجرين فيخسر الإبل الجائزة. لقد قال سراقة لذلك الرجل: (إنهم ليســـوا بهـــم،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٢/٤٨٣) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى رأيت أشخاصاً قرب الساحل.

(٣) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي (٢/٤٨٧).

ولكن رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم)[1]، ويواصل سراقة حديثه فيقول:

(ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فـأمرت جـاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[2]، فتحبسها علي، وأخذت رمحـي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه[3] الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام[4]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الـذي أكـره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسـول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات. ساخت يدا فرسـي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان[5] ساطع في السـماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له:

إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى ذهبوا يبحثون عن شـيء ضاع لنا.

(٢) الأكمة: هي التل.

(٣) الزج: هو الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٤) جمع الزلم، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً دخل يده فيه وأخرج سهماً (أي زلمـاً) فـإذا خرج ما فيه الأمر استمر في عمله وإن خرج العكس رجع عنه.

(٥) هو الدخان أو الغبار.

وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[1]، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن.. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ)[2] بعد أن أعطى الأمان لذلك الباحث الذي يريد قتله وحز رأسه، معجزة مخيفة ورادعة ما حدث لسراقة، إذاً فرسول الله ﷺ في حصن حصين لن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول لسراقة: أخف عنا.. لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشد من الخوارق، والجنود التي لا يعلمها إلا الله؟

إنه يقولها لأنه رسول جاء بمنهج من عند الله للبشر، وعلى البشر مهمة نشره هنا وهناك، فبجهدهم ينتشر، وعلى البشر أن يركضوا هنا وهناك بحثاً عن الأسباب الموصلة للنجاح، ورسول الله ﷺ في هجرته يرسم خطاً لا يمكن أن ينتشر الإسلام إلا بالسير عليه، لقد هاجر ﷺ بعد أن خطط ورسم، وتكتم وتلثم، وسار في الليل والناس نيام، ثم جعل نتائج كل ذلك إلى الله سبحانه، إنه لم يتحدث لأبي بكر قبل الهجرة عن معجزات ستحصل في الطريق، لأنه فعل الأسباب كما طلب منه، ثم فوض أمره إلى الله، إن الهجرة تطبيق عملي لقوله ﷺ:

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[3] فإذا أتقنه فقد انتهى دوره.. وهذه طاقة البشر لا يكلفهم الله فوق طاقتهم.. فإن قبض عليه المشركون وقبضوا على صاحبه.. فقد أديا ما طلب منهما ولا شيء عليهما وإن أكرمهم الله بمعجزة أو خارقة فذلك فضل من الله.. لكن المسلم يأثم إن لم يتقن عمله أملاً في حدوث معجزة أو كرامة تقلب

---

(١) أي لم يأخذا منه شيئاً.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٣) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (١٤٤/٢).

الأوضاع وعليه أن ينتظر النكسة في أية لحظة تطرق بابه.. لقد استوعب رسول الله ﷺ وأصحابه المستضعفون هذه الحقيقة.. فدعوا وأسروا واختفوا ولاقوا ما لاقوا في سبيل ربهم.. ولما أقفلت قريش أبواب مكة كلها في وجوههم تركوها لهم.. غادروها وهي أحب البقاع إلى الله وإليهم.. لقد وقف ﷺ يوماً (بالحزوراء في سوق مكة فقال: إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت وقال: علمت إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)[1].

غادرها ﷺ بعد أن ضاقت به.. وغادرها الصحابة كلهم نحو مدينة مفتحة الأذرع والأبواب.. للهاربين للخلاص.. للحاملين سورة الإخلاص.. غادروها إلى مدينة عطوف.. يحن فيها كل شيء.. حتى الجذع يحن إلى رسول الله ﷺ.. حتى الحجارة فيها بادلت الصحابة عشقاً.. ألم يلتفت ﷺ إلى جبل أحد فيقول: (أحد جبل يحبنا ونحبه)[2] إن الهجرة ترافق الشمس كل صباح تحيي الغرباء وتقول لهم: إذا أتقنتم أعمالكم تحولت مدن العالم إلى مدائن للحب والأنصار.. وشغفت جبال الدنيا بكم.. كما شغف جبل أحد بأسلافكم.

وواصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير.. وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام وشاهدا بينهما الراعي.. فطلبا منه السقيا.. فقال: (ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخرجت، وما بقي لها لبن، فقال ﷺ:

---

(١) إسناده صحيح. رواه البيهقي (٢/١٧ــ٥١٨) من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزوراء في سوق مكة وهذا الإسناد صحيح وهو المحفوظ كما قال البيهقي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري. انظر صحيح الجامع (١/١١٤). وأُحد جبل في المدينة.

«ادع بها». فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب[1] وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط؟

قال ﷺ: «أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»)[2].

هذا الراعي المسكين نشأ في الصحراء حتى صار قطعة منها تهتز ربيعاً وجمالاً عندما يغشاها المطر.. ولقد اهتز إيماناً عندما رأى المعجزات وحسن الأخلاق تهز عقله ليفيق من سبات الافتراءات التي أوصلتها إلى مسامعه قريش.. هذه الماعز التي لم يكن في ضرعها سوى الجفاف.. درت حليباً وأنزلت.. أما هذا الرجل المطارد المتهم الذي حلبها فلم يشرب رغم عطشه.. لقد أسرت هذا الراعي أخلاق لم يعهدها.. يحلب وهو نبي الله ويسقي منهم دونه ثم يشرب آخرهم وهو الذي لو أراد لأدار الله له هذه الأرض ينتقي منها ما يشاء.. فأسلم الراعي وآمن وقرر ترك الصحراء والغنم ما دام بصحبة نبي.

لكن خلق النبي ﷺ الكريم وخوفه على أتباعه من الاضطهاد جعله يريثه إلى أجل لا يعلمه إلا الله. وامتثل هذا الراعي وصبر رغم شوقه ولهفه. هذا الراعي أظنه.

---

(١) الذي حلب هو رسول الله ﷺ، ثم سقى الجميع ثم شرب آخرهم.

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي وأبو يعلى، وانظر تخريج الذي بعده فهو هو.

أبو معبد

الذي صادفه رسول الله ﷺ في طريق الهجرة، فإنه (لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ: «فما تلك الشاة؟» فأتي بها. فدعى رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عساً[1] فسقاه، ثم شربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ قال رسول الله ﷺ: «لا». حتى تسمع أنا قد ظهرنا)[2].

وتجاوز رسول الله ﷺ غنمات أبي معبد، بعد أن ترك أبا معبد ظلاً.. تركه فيئاً يستظل به المتعبون، ربيعاً بعد أن كان حقلاً من الجفاف، تركه مرشداً بعد أن كان يخبط في الظلام، وتحرك ﷺ ليلتقي بعد مسافة ليست بالقصيرة بـــ:

خيمتا أم معبد

(أم معبد الخزاعية، وكانت برزة جلدة[3] تحتبي[4] بفناء القبة ثم تسقي

(١) العس: هو القدح الكبير.

(٢) إسناده صحيح. رواه البزار (كشف الأستار ٢/٣٠١) وهو والحديث السابق من رواية: عبيد الله بن إياد بن لقيط، قال: سمعت إياداً يحدث عن قيس بن لقمان، قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان... لكن سند الحديث السابق هو: عبيد الله بن إياد عن قيس بن لقمان، إذاً فالرواية واحدة، لكن هناك خطأ في السند الأول. عند البيهقي (٢/٤٩٧) فقد ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٦٤): حدثنا عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس، وهذا هو الصواب، فقيس صحابي، وعبيد الله ليس بتابعي، فهو لم يسمع من قيس، وهو ليس ضمن شيوخه الذين ذكرهم الحافظ في التهذيب (٤/٧) بل ذكر أباه ضمن شيوخه ورواية البزار خير شاهد، إذاً فالخطأ متأخر وعنه نشأ بعض الاختلاف في ألفاظ الروايتين.

وبعد فعبيد الله صدوق (التقريب ١/٥٣) ووالده تابعي ثقة (التقريب ١/٨٦).

(٣) هي التي لا تحتجب كالشابات رغم عفافها، ومعنى جلدة أي قوية أو جزلة.

(٤) الاحتباء: هو الجلوس مع ضم الفخذين إلى البطن بواسطة الذراعين.

وتطعم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين[1]، مسنتين[2]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[3]، فقال: ما هذا الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال ﷺ: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال ﷺ: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، نعم. إن رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها بيده، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شأنها، فتفاجت[4] عليه ودرت واجترت، فدعا بإناء يريض الرهط[5]، فحلب فيها ثجاً[6]، حتى علاه البهاء[7]، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا[8]، ثم حلب ثانياً بعد حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها، ثم ارتحلوا عنها)[9].

عودة أبي معبد

بعد رحيل هؤلاء الأطهار (ما لبثت إذ جاء زوجها أبو معبد يسوق أعتراً عجافاً[10]، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال:

---

(١) أي نفذ ما عندهم كأنهم لصقوا بالرمل.

(٢) أصابتهم سنة أي القحط.

(٣) أي جانب الخيمة.

(٤) أي فرجت ما بين رجليها للحلب.

(٥) يريض: أي يروي.

(٦) ثجاً: أي لبناً سائلاً كثيراً.

(٧) هو بريق رغوة الحليب.

(٨) أي شربوا عللاً بعد نهل أي الشرب الثاني.

(٩) انظر تخريجه في نهاية الخبر.

(١٠) هزيلة.

من أين هذا والشاة عازب حائل[1].. ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله: كذا.. و كذا.. فقال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة.. أبلج[2] الوجه، حسن الخلق.. لم تعبه ثجلة[3].. ولم تزر به صعلة[4].. وسيم قسيم، في عينه دعج[5].. وفي أشفاره عطف[6].. وفي صوته صهل[7].. وفي عنقه سطع[8].. وفي لحيته كثاثة[9].. أزج أقرن[10].. إن صمت فعليه الوقار.. وإن تكلم سماه وعلاه البهاء.. أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه من قريب.. حلو المنطق.. فصل لا نذر ولا هذر، كأنه منطقه خرزات نظم تحدرن، ربعة[11]، لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر[12]، غصن بين غصنين، هو أنظر الثلاثة منظراً.. وأحسنهم قدراً.. له رفقاء يحفون به.. إن قال أنصتوا لقوله.. وإن أمر تبادروا إلى أمره.. محفود محشود[13].. ولا عابس ولا معتد. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره. ما ذكر بمكة «ولقد هممت بأن أصحبه» ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) أي لم تحمل.

(٢) مشرق الوجه مسفر.

(٣) ضخامة البطن واسترخاؤه.

(٤) النحافة.

(٥) اشتد سوادها وبياضها.

(٦) الأشفار: طرف جفن العين التي ينبت منها الشعر، أي إنها طويلة حتى انعطفت.

(٧) وقيل: صحل أي أنه حاد الصوت.

(٨) سطع: أي طال عنقه.

(٩) اجتماع وكثرة.

(١٠) أي لا قليل ولا كثير.

(١١) وسيط القامة.

(١٢) أي لا تتجاوزه العين إلى غيره احتقاراً.

(١٣) مطاع في قومه يسرعون لخدمته.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يدرون من صاحبه:

جزى الله رب البيت خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيال قصي ما زوى الله عنهم ... به من فعال لا تجازى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شائها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحاً صرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

وأصبح صوت بالمدينة بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون من يقوله)[1].

سمع شاعر الحياة الجديدة حسان بن ثابت تلك الأبيات، فهاجت

---

(١) رواه أبو نعيم في الدلائل -واللفظ له -(٣٣٧/١) والحاكم (٩/٣) والطبراني (مجمع الزوائد ٥٨/٦) وابن سعد (٢٣٠/١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو يعتبره صحيحاً لأسباب هي قوله:

إن نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد، وإن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها أنه له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها إن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي رويناه بسياقه: الحديث عن الكعبين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة، وقد علونا في حديث الحر بن الصباح هذا ما قاله الحاكم رحمه الله. لكن هناك ملاحظات على قوله رحمه الله منها: أن الحديث حسن لكن ليس بهذا النص لشدة ضعف طرقه... خاصة حديث الحر بن الصباح ففي سنده متهم.

ومنها: أن الشعر المذكور وأن قائله من الجن يحتاج إلى طرق أخرى تقويه لكن الحديث حسن برواية البيهقي والبزار اللتين ذكرهما ابن كثير في السيرة (٢٥٨/٢) وهي رواية مختصرة.

شاعريته، وأطلق الشعر يخطف ما لدى كفار قريش من فضائل ويحملها أنواراً نحو مدينة الإسلام الجديدة:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسرى إليه ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم فأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمايتهم هاديه كل مهتدي
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم
نبى يرى ما يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد
ليهن بنى كعب مقام فتاهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وبعد أن ودع ﷺ أم معبد أحث السير وربما صادفه في مسيره آخرون.. فكان يواجه كل شخص بأسلوب مناسب.. فإن كان المار ممن يخشى منه تسرب الأخبار.. تكفل أبو بكر بالإجابة. ولذلك يقول أنس رضي الله عنه: (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير)[1] الذي يصل الدنيا بالآخرة، ويحطم الأبواب بينهما، فتشع أنوار الجنة في قلوب المؤمنين ودروبهم أينما حلوا أو ارتحلوا.

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. رواه البخاري (٣٩١١).

محطات

مر ﷺ ورفقته بمحطات عديدة تذكرها عائشة جيداً فتقول رضي الله عنها وهي تتحدث عن زوجها وأبيها بعد أيام الغار: (هـدأت عنـهما الأصوات، وأتاهما أن قد سكت عنهما، جاءهما صـاحبهما ببعيرهمـا، فانطلقا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكـر ويعقبه على رحله، ليس معهما إلا عامر بن فهيرة وأخـو بـني عـدي يهديهما الطريق، فأجاز بهما «في أسفل مكة»، ثم مضـى بهمـا حـتى «حاذى بهما الساحل أسفل من عسفان» ثم استجاز بهما حتى عـارض الطريق بعدما جاوز «قديداً» ثم سلك «الخرار»، ثم أجاز علـى «ثنيـة المرة» ثم أخذ على طريق يقال لها «المدلجة بين طريـق عمـق وطريـق الروحاء» ثم توافوا طريق «العرج» وسلك ماء يقال لـه «الغابر عن يمين ركوبة» حتى يطلع على بطن «رئم» ثم جاء حتى قدم المدينة على «بـني عمرو بن عوف» قبل القائلة)[1] إذاً فنهاية تلك المحطات هي محطـة بـن عمرو بن عوف لكن لماذا لم يذهب ﷺ إلى يثرب مباشرة.. لماذا مال إلى بلدة بني عمرو بن عوف المشهورة بـ (قباء).. ما هو شـعور الأنصـار وهم ينتظرونه على مشارف يثرب فتأتيهم الأخبار أن نبيهم في قباء الآن.. أسئلة ملحة والإجابة عند نبي الله ﷺ.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن جرير بسند صحيح (٢/٣٧٥): حدثنا علي بن نصر وحدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قالا: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبان بن العطار، حدثنا هشام بن عروة عن عروة عن عائشة، وعلي وعبد الـوارث ثقتـان. التقريـب ٢/٠٠...) و (١/٥٢٧) وعبد الصمد صدوق (١/٥٠٧) وأبان ثقة (١/٣١) وبقية السند معروف وقد توبع هشام ومن بعده عند الحاكم بلفظ فيه اختلاف بسيط (٢/٨).

النبي ﷺ يودع مكة

وَدَّع حبيبته وهي لا ترد.. ولو أجابت لأبكت من حولها.. ودع حبيبته.. تركها وهو كاره.. حالت الجاهلية بينه وبينها.. لم يستطع البقاء بين أبياتها وجدرانها.. فحملها في قلبه وارتحل.. وتمر أيام وأعوام.. ويكبر ذلك الحب.. ويزداد به الشوق.. فيقسم بالله لها أنه ما زال يحبها..

(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخرِجتُ منك ما خرجت)[1]. (ما أطيبك من بلدٍ وأحبَّكِ إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2].

لم يستبدل ﷺ حباً بحب.. بل أضاف حباً إلى حب.. إنه يتجه الآن إلى يثرب.. يثرب!! لا إنها ليست يثرب.. فلا يثرب بعد اليوم.. لقد وهبها قلبه.. ووهبها اسماً جديداً.

اسم جديد

فما هو ذلك الاسم.. يقول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب!.. وهي «المدينة» تنفي الناس[3] كما ينفي الكير خبث الحديد»[4] إذاً فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة).. المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق..

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه (سيرة ابن كثير ٣٨٥/٢) من طريق شعيب وعقيل وصالح بن كيسان كلهم عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه. وأبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان جليلان.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٩٧١/٢).

(٣) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم والبيهقي (٥١٩/٢).

أما أهلها.. فعلى طريق مكة يترددون.. ينتظرون (يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)[1].. فرحوا بأصحابه واستقبلوهم.. وفتحوا لهم بيوتهم وصدورهم.. و (لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا[2] قدومه.. كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا.. وذلك في أيام حارَّة)[3].. هذه هي المدينة المشتاقة وهؤلاء هم أهلها..

أما رسول الله ﷺ، فما زال على الرمضاء يسير.. وفي مسيره ذلك يلتقي بشاب يحبه، يلتقي بشاب من أبطال الإسلام، إنه زوج (ذات النطاقين) زوج أسماء بنت أبي بكر الصديق واسمه: الزبير بن العوام، فهل كان قادماً من المدينة؟.. لا.. لقد كان في الشام، سافر مع قافلة من قوافل الصيف ثم عاد.. لقد (لقي رسول الله ﷺ في ركب من المسلمين كانوا تجاراً بالشام قافلين إلى مكة، فعارضوا رسول الله ﷺ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً)[4].. قبل ﷺ الهدية من ابن عمته، ولبس وصاحبه الثياب، وأقبلا على المدينة.. يختلط بياض ثيابهم ببياض السراب.. لكن بعد أن أحرقت الشمس المنتظرين، فعادوا بعد انتظار طويل..

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) أي توقعوه وسألوا عنه.

(٣) سنده قوي. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٢٦٨) حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة عن رجال من الصحابة. ومحمد ثقة (التقريب ٢/١٥٠) وعبد الرحمن ولد على عهد النبي ﷺ وروايته عن الصحابة ويشهد له ما قبله.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

أقبل رسول الله ﷺ وأبو بكر فلم يرهما أحد من الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين.. ولا حتى من المشركين عابدي الأوثان.. لكن يهودياً رآهما.. كان فوق حصن قومه.. واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حاراتٍ مغلقة عليهم وما زال جزء منهم كذلك إلى أيامنا هذه.. ربما كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأن بقية البشر لا يستحقون شرف الاتصال بهم.. سندع اليهود وما يعتقدون لنتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى.. ماذا فعل.. وماذا جرى للأنصار بعد ذلك.. وهل دخل ﷺ المدينة أم تريث أم..؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشرة.. هل خاف من يهود؟ هل كان خائفاً من شيء.. لا.. لكنه مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء) ونزل على أناسٍ من الأنصار يقال لهم (بنو عمرو بن عوف) وهذه هي القصة:

(سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة.. فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أُطم[1] من آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[2] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب.. هذا جدكم[3] الذي تنتظرون.

(١) الأطم: هو الحصن.

(٢) أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير.

(٣) أي حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/٣٨٤).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.. فقام أبو بكر للناس.. وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار -ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[1]..

أما الأنصار.. فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ تقله تظله.. وتتوهج من حوله، أما قباء فـ:

كيف كانت قباء

كانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه.. تبشر به من حولها.. فانتشر الخبر، وشاع حتى وصل إلى يهودي آخر فلم يصبر، لقد أطلق قدميه للريح والفزع.. يتجه بهما نحو ابن عم له كان يجلس بين نخلٍ له فقال:

(يا فلان قاتل الله بني قيلة[2].. والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي)[3].

لا أعرف ما حدث لليهودي لكنني أعلم ما حدث لأحد عبيده.. كان عبده الكادح الحزين فوقه.. فوق نخلة في رأس عذق يعمل يتصبب منه العرق والخوف.. لقد سمع الخبر فأخذته رعدةٌ هزته وهزته حتى كاد يسقط من على العذق لكنه تماسك حتى انحدر منها.. وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر فقال له:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.

(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(ماذا تقول.. ماذا تقول..؟)[1] صمت اليهودي الذي حمل الخبر و لم يجبه.. لكن سيده أجابه عن هذا السؤال إجابةً مؤلمةً.. أجابهُ لكمةً شديدة ثم قال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)[2]. تجرع العبد المسكين الآلام والقهر وأخرج من صدره اعتذار المساكين المغلوب على أمرهم وقال: (لا شيء إنما أردت أن أستنبئه عما قال)[3].

وعندما خيم الليل على مرابع بني عمرو بن عوف وقباء.. كان شبح ذلك العبد المسكين يتسلل كالظلام في الظلام.. متخفياً خائفاً.. يتسلل حتى ظفر بمجلس رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره.. كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره.. وتوشك أن ترتحل أو يرتحل.. دخل هذا الكادح على رسول الله ﷺ ثم قال:

(إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

كلوا وأمسك[4] يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة)[5].

ثم انصرف ذلك الرجل الغريب وعاد من حيث أتى.. عاد إلى سيده اليهودي.. ترى هل أرسله سيده.. أم أنه ذهب من تلقاء نفسه؟ وما معنى

---

(١) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٢) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

(٤) أي كف يده و لم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.

(٥) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.

قوله: هذه واحدة؟ ولماذا انصرف بهذه السرعة.. لغز محير هذا المسكين القادم من العبودية والمجهول.. ولعل الأيام تكشف لنا مزيداً من أسراره..

ذهب المسكين، وذهب الليل وراءه.. ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة.. وأسس المسجد.. وصلى فيه رسول الله ﷺ)[1] وصلى فيه أصحابه.. وبشر كل من يأتي إلى هذا المسجد ببشرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)[2].

بقي ﷺ أربع عشرة ليلة في قباء بين قلوب أهلها.. ولما تحرك قلبه نحو المدينة بعث رسولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدومه فجاءوا متزينين بالفرحة والسلاح..

يقول أحد الأنصار: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم: «بنو عمرو بن عوف» فأقام فيهم «أربع عشرة ليلة» ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)[3].

ويقول أبو بكر رضي الله عنه: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار أخوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رسول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)[4] كانت أمسيةً صاخبةً

---

(١) حديث حسن عدا المحذوف رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٢/٥٠٦).

بالهتاف للأضياف.. أمسية صاحبة فشمس محمد تجوب شوارع المدينة.. المدينة تعانق هذا النور المنساب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال... وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ.. أشرقت الشمس بعد أن نهض الجميع للصلاة.. أشرقت الشمس والأطفال بوجه محمد ﷺ حيث كان يتحرك نحو المكان الذي أمر به.. كان صباحاً منعشاً وجميلاً.. وكان موكبه ﷺ يتهادى بين القلوب والبيوت... الأطفال يركضون.. يقفزون.. يهتفون.. وتلك العيون البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة.. كان الأطفال لوحة من مطر وبراءة.. أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال يصف فرحته وشغفه وركضه معهم فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد..

وأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد..

فأسعى.. ولا أرى شيئاً.

حتى جاء النبي ﷺ وصاحبه، فكمنا في بعض جدر المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالوا:

انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟..

فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ)[1] ويقول رضي الله عنه: (شهدت

---

(١) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد (الفتح ٢٠/٢٩١) حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس بن مالك... وهاشم يلقب بـ قيصر وهو ثقة =

يوم دخل النبي ﷺ فلم أرَ يوماً أحسن ولا أضوأ منه)[1].. وعبر أنس عن ذلك اليوم بحروف تنبض بالمشاعر فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء)[2].

مشاعر.. مشاعر

المدينة في تلك اللحظات كانت تتبختر بالمشاعر.. تتزين بالإسلام كانت مدينة منورة بلقاء الحبيب الذي طال الشوق إليه.. أحقاً رسول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شوارعها وتصافحه قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مسلم أن يعيشها.. وأن يسكب في حضرتها شيئاً من الدموع..

لقد كان الموكب يتحرك ببطء فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع.. وابتسامات الأطفال والتفاتاتهم البريئة السعيدة.. أبو بكر كان أسعد الناس وأحظى الناس بعد رسول الله ﷺ بهذا الحب والاحتفال.. يحدثنا فيقول:

(ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأناجير[3]، واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون:

الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمد)[4].

=

(التهذيب ١١/١٨) وسليمان بن المغيرة ثقة... وثابت البناني تابعي ثقة. والحديث صححه الذهبي في سيرته (٣٣٣).

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي (٢/٥٠٨) وأحمد (٣/٢٤٠) واللفظ للبيهقي من طريق حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجة (١/٢٧٣) للإمام الألباني.

(٣) السطوح.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه ورواه أحمد واللفظ له.

(جاء رسول الله.. جاء رسول الله..

الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء محمـــد)[١].. أحـــد المبتـــهجين يتحدث.. البراء بن عازب طفل من الأنصار يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به.. حتى رأيت الولائد[٢] والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله)[٣].

وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشي عن فرحهم بمحمـــد ﷺ بأسلوب مميز.. أنس بن مالك ذلك الطفل السعيد.. طاف المدينة وطاف حول الموكب.. وشاهد فرح أهلها.. ووصف فرح الصحابة مـــن أهـــل الحبشة فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبـــت الحبشـــة بحـــرابهم فرحـــاً بقدومه)[٤] ولم يكن الرقص هو الأسلوب الوحيد في التعبير كان هنـــاك الغناء بمحمد ﷺ وبجوار محمد..

الغناء والدفوف والمشاعر شاهدها ﷺ فماذا فعل وماذا قال ﷺ لتلك الفتيات.. أنس بن مالك أيضاً يحدثنا عن ذلك فيقول: (مر رسول الله ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف [ويتغنين ويقلن]:

---

(١) جزء من رواية البخاري ومسلم.

(٢) أي البنات.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري.

(٤) صحح إسناده الإمام الألباني في صحيح السنن (٣/٩٣٠) ورواه أحمد في مسنده (الفـــتح الرباني ٢٠/٢٩٠) من طريق عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس وهذا الســـند رجاله ثقات لكن فيه ضعفاً لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابن معين: معمر عن ثابت ضعيف، وقال مرة: إذا حدثك معمر عن العراقيين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس.. فأما أهل الكوفة وأهل البصرة فلا... وقال مرة: حديث معمـــر عـــن ثابـــت وعاصم وهشام وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشيخ ناصـــر طريق أخرى فهو ضعيف.

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال النبي ﷺ: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»[1] يا لهذا النبي ما أعظمه.. وما أبسطه وما أرق مشاعره.. التي يعلنها للصغير وللكبير في البيوت وعلى الطرقات.. بل إنه يعلن حبه حتى على الجبال القاسية من حوله.. يمر ﷺ من عند جبل أُحد بالمدينة فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[2] نبي الله يحب المدينة وأهلها.. والمدينة وأهلها.. أشجارها وجبالها يحبون الله ورسوله.. الكرم يسيل.. و الدماء تسيل فرحاً به ﷺ يقول أحدهم: (لما قدم ﷺ المدينة نحرتُ جزوراً)[3].

ويواصل موكب الحب مسيره في شوارع المدينة وسط مهرجان من السعادة.. زحامٌ من البهجة يحيط برسول الله ﷺ.. اشتد الزحام (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون:

يا محمد.. يا رسول الله.. يا محمد.. يا رسول الله)[4].

في المدينة كانت القلوب بيوتاً.. وكانت البيوت قلوباً.. كانت الأيدي تمتد إلى الزمام.. والعيون البراقة شاخصة تحتضنه وتعانقه.. تحاول الارتواء منه فتزداد عطشاً ولهفةً.. وتواصل الركض والنداء حتى..

---

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي (٥٠٨/٢) وابن ماجة (الصحيح ٣٢٠/١) واللفظ للبيهقي عدا ما بين المعقوفتين فلابن ماجة... وسنده هو: عيسى بن يونس، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة عن أنس.. وعيسى ثقة. انظر التقريب (١٠٣/٢) وعوف بن أبي جميلة ثقة أيضاً. التقريب (٨٩/٢) وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٢) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٩١/٢٠) حدثنا وكيع، حدثنا شعبة عن محارب ابن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

توقفت الناقة

(فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري.. وهذا بابي. فقال ﷺ:

«اذهب فهيئ لنا مقيلاً».. فذهب فهيأ لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلاً.. قوما على بركة الله فقيلا)[1].

وحل ﷺ في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثمن الشرف الذي حل بين جدران مترله.. المدينة كلها إلا عيوناً كانت تتأمل من بعيد.. وقفت كما وقف عمر بن الخطاب وهو يرقب مشهد النازحين إلى أنهار الحبشة.. لكن هذه العيون المتلصصة لم تكن حزينة كحزن عمر.. ولا نادمة كندم عمر.. إنها منغمسة في دبق الأحقاد الأسود.. من هذه القلوب قلب رجل اسمه:

عبد الله بن أُبي بن سلول

من عبد الله هذا.. وما هي قصته..؟

كان بين الأوس والخزرج حروب مريرة وثارات أوشكت على إفنائهم.. وكان بين تلك الحروب فترات من التعب والهدنة والفتور.. تنطمر معها جمرة الحرب تحت رماد من التعقل أحياناً والملل أحياناً.. أو التحفز للانقضاض.. وكانت السنوات التي بايعوا فيها الرسول ﷺ سنوات من الركود.. كانت المدينة فيها ترقد على بركان هادئ من الثارات والدماء.. في تلك السنوات تصالح الطرفان على تتويج رجل اسمه عبد الله بن أبي بن سلول ليكون زعيماً ليثرب.. لكن شيئاً من ذلك لم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ للبيهقي (٢/٥٢٨).

يحدث.. فرغم الاحتفاء بالهدنة وحقن الدماء.. إلا أن المدينة كانت لا تتنفس ابن أبي سلول في هوائها.. فهو مجرد هدنة هشةٍ لا أكثر.. وقد سئموا الهدن الهشة..

لقد كانت أجواء المدينة مشبعة بالقادم.. مرطبة بالانتظار.. المدينة وَثَنِيُّوها ويهودها يشعرون بغدٍ هابط لا يحمل على جناحه رجلاً مؤقتاً كابن سلول.. أما اليهود فكانوا ينتظرون نبياً يفنون به العرب والوثنيين.. ويخلصهم من هذا الشتات المخيف.. تأثر بهم بعض الوثنيين من أهل المدينة فكانوا ينتظرونه.. ويريدون أن يسبقوا اليهود إليه.. حتى ولو اضطروا إلى مزاحمة اليهود في حصونهم.. وكان من هؤلاء المنتظرين ثلاثة من بني هذل هم:

أسد وأسيد وثعلبة

ثلاثة من الشباب ليسوا من اليهود.. انصهروا مع اليهود ليفوزوا معهم بهذا النبي القادم كالصباح.. يحدثنا عنهم رجلٌ من بني قريظة رجل عاش مع أسد وأسيد وثعلبة في حصون يهود بني قريظة.. يحدثنا ويحدث رجلاً جالساً بقربه اسمه عاصم فيقول له:

(هل تدري ما كان علامة إسلام ثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد - نفرٌ من بني هذل ليسوا من بني قريظة ولا بني النضير، [كانوا فوق ذاك] نسبهم من بني [هذل] أتوا بني قريظة، كانوا معهم في الجاهلية ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال عاصم: قلت: لا. قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام يقال له: ابن الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بـ [سنتين] فحل بين أظهرنا والله

مارأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له: يا ابن الهيبان قم فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فيقولون: كم؟ فيقول: صاعاً تمراً، [أو مدين من شعير] عن كل إنسان. فنخرجها، فيخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه حتى يمر السحاب السراح سائلة، ونسقى به، ففعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، ثم حضرته الوفاة، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قلنا: الله أعلم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحدٌ)(1).

وسبق الأنصار اليهود فأسلموا ودعوا رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقبلوه استقبالاً كالحلم.. فانهارت آمال عبد الله بن أبي بن سلول بالزعامة.. بعد أن أدرك أهل المدينة أن وحدتهم لن تدوم بزعامته.. ولن تمتد تلك الزعامة في الأعماق والزمان إلا برسالة يخلع الجميع كل ما عليهم ليلبسوها.. فتنحوا عن ابن سلول وامتدت الأيدي والقلوب إلى الله ورسوله..

وكأني بابن سلول يتمنى لو لم يطل به العمر ليرى هذا الاحتفال.. وموقف ابن سلول هذا موقف قاصر.. فقد كان بإمكانه أن يصبح زعيماً

---

(1) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/٨١) واللفظ له عدا ما بين المعقوفين.. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة... وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وعالم جليل من رجال الشيخين.. التقريب (١/٣٨٤) وشيخه صحابي من بني قريظة.

وعظيماً وخالداً لو صافح رسول الله ﷺ لكنه أبى وتولى.. هذا هو ابن سلول.. فهل هناك من يشاركه هذا الشعور؟.

أجل.. هناك اليهود الذين تركوا أرض الخمر والخمير من أجله.. فهم ينتظرونه منذ سنوات وسنوات.. لكن ما الذي حدث.. كيف ينتظرونه.. فإذا رأوه وتحققوا أنه هو رفضوه وعادوه؟. طفلة بريئة لم تلوثها أحقاد اليهود اسمها صفية بنت حيي بن أخطب تحدثنا عن موقفهم وسبب عداوتهم..

والدها زعيم من زعماء يهود.. وعمها أيضاً زعيم.. أما هي فكانت أحب أولادهم على الإطلاق.. يهشون للقائها.. يبشون في وجهها ويبتسمون إلا في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تذكره صفية جيداً.. فتقول: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحدٌ أحب إليهما مني.. لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رسول الله ﷺ قباء ونزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي «أبو ياسر بن أخطب» مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى[1]، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي:

أهو هو؟ قال: نعم.. والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟. قال: عداوته والله ما بقيت)[2] ولكن

---

(١) مشيٌ فيه فتور وضعف.

(٢) في سنده ضعف، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم والبيهقي (٥٣٣/٢) وفي سنده جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم

لماذا هذه العداوة.. لماذا هذا الفتور والإحباط؟.. إنها العنصرية. فهذا الرجلان يمثلان خطاً يسلكه معظم اليهود.. اليهود المغضوب عليهم.. وقد غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وينكرونه.. جاءهم عيسى فأنكروه بل حاولوا قتله.. وها هو محمد ﷺ بين أيديهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يرفضونه.. إن محمداً عربي ليس من أبناء إسرائيل.. ليس من سلالة يهود إذاً فهو مرفوض وكما رفض حيي بن أخطب وأخوه الدخول في الإسلام فقد عاند وكابر يهودي آخر مثلهما تنصل من كل وعوده السابقة لليهود ولأهل المدينة فما هي وعوده السابقة.. وكيف تنصل منها؟ تلك قصة حضرها طفل مضطجع بفناء أهله.. حفظها لنا ثم قصها علينا بعد قدوم رسول الله ﷺ للمدينة.

يوشع يرفض الإسلام

يقول سلمة بن سلام بن وقش:

(كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.. فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل -وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليَّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي[1] - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار.. فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موقم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟

=

وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمد بن عمرو بن حزم وله رؤية وليس له سماع إلا من الصحابة (التقريب ١٩٥/٢) وحفيده تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (٤٠٥/١ التقريب) وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٥٣٢/٢).

(١) المتكلم هو سلمة بن سلام.

قال: نعم.. والذي يحلف به، [لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي، وأني أنجو من النار غداً[1]][2].

قالوا: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟

قال: نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن.

قالوا: متى تراه؟

فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا[3]، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويحك يا فلان.. ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به [وكان يقال له يوشع][4].

ويقول محمد بن سلمة رضي الله عنه:

(لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له «يوشع» فسمعته - وإني لغلام في إزار يقول:

---

(١) أي من شدة نار جهنم أعاذنا الله منها يتمنى أن يوضع في أعظم فرن في الدنيا ثم يطبق عليه ويحرق فيه أهون عليه من دخول نار جهنم.

(٢) ما بين المعقوفين لفظ البيهقي.

(٣) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٧٨) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة بن سلام رضي الله عنه: وشيخ ابن إسحاق تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (التقريب ١/٣٥٨) ويشهد له ما بعده.

قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت، ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه.. فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً)[1] ولم يقتصروا على ذلك بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. وطمسوا أسماءه المكتوبة في التوراة.. لكن تبقى فيها عبارات قوية لا تنطبق إلا عليه مثل هذه العبارة الموجودة حتى الآن في التوراة المحرفة.. تقول التوراة:

(وحي يأتي من بلاد العرب.. في الوعر في بلاد العرب.. قابلوا الهارب بخبزه فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد.. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب.. وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)[2].. لقد ظن اليهود أن هذا النبي القادم من أرض العرب الوعرة الشديدة الوعورة -وهي مكة -.. ظنوا أنه سوف يفني أبناء عدنان وهم العرب على أيدي اليهود.. ولكن عندما تبين أن هذا النبي من أبناء عدنان العربي حسدوه.. لكن لماذا يحسدونه؟ السبب موجود في هذه القصة التي تروي انتقال النبوة من أبناء يعقوب -وهو إسرائيل- جد اليهود إلى أبناء عدنان -واسمه في التوراة: قيدار- وهو جد العرب فكيف انتقلت النبوة..

إبراهيم وأبناؤه

كان لإبراهيم ﷺ ولدان إسماعيل وهو الأكبر وإسحاق.. وهما نبيان

---

(١) ذكره الإمام ابن كثير في سيرته (٢٩٣/١) فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا الجزء من الإسناد صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٢) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٣).

عليهما الصلاة والسلام.. إسماعيل هو جد العرب، وإسحاق هو والد يعقوب جد اليهود وليعقوب ابن إسحاق ﷺ اسم آخر هو إسرائيل.. رزق يعقوب أو إسرائيل باثني عشر ولداً أحدهم نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام.. وعندما صار يوسف عليه الصلاة والسلام وزيراً عند عزيز مصر انتقل والده وإخوته إلى هناك.. فيوسف وإخوته هم أبناء إسرائيل والذين تحولوا إلى اثنتي عشرة عائلة وتزايدت أعدادهم في مصر.. حتى جاء زمن الطاغية فرعون ومن أبناء إسرائيل ولد موسى وأخوه هارون عليهما الصلاة والسلام.. وقد بعثه الله نبياً بالتوحيد لإنقاذ بني إسرائيل من الشرك والاضطهاد.. ثم تولى القيادة من بعد موته في سيناء تلميذه النبي: يوشع عليه الصلاة والسلام.. ثم جاء أنبياء كثيرون من أبناء إسرائيل من بينهم داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام.. حتى جاء الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه الصلاة والسلام وهو أيضاً من أبناء إسرائيل.. كل هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل جاءوا لإعادة قومهم إلى التوحيد وترك الشرك والبدع والانحراف.. ومع ذلك استمر انحراف اليهود -بني إسرائيل- حتى وصل بهم الأمر إلى اغتيال وذبح بعض الأنبياء كما حدث لنبي الله زكريا وابنه يحيى وهما في زمن عيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام.. بل حاولوا اغتيال عيسى ولما رفعه الله تعقبوا أتباعه بالقتل والتشريد.. وكان من أشرس اليهود الذين فتكوا بأتباع عيسى ﷺ رجل اسمه «شاءول»[1] هذا الطاغوت أحس بأن الاضطهاد لا يفني الأديان ولا يفني أتباعها بل يزيدهم رسوخاً وثباتاً وتصفية.. لذلك بحث هو وأشرار اليهود عن طريقة للقضاء على تعاليم الله لعيسى بن مريم فاكتشف أن محاربة الدين من الداخل أجدى من محاربته من الخارج..

---

(١) واسمه الذي يشتهر به عند النصارى وفي الإنجيل المحرف هو: (بولس أو بول).

فأظهر لأتباع عيسى بن مريم أنه قد تاب وندم على ما قام به من قتل وتعذيب.. وأظهر لهم الرهبنة والتنسك.. وبعد أن تأكد من اقتناع من حوله بتوبته وبعد مرور زمن على ذلك بدأ بتنفيذ مخططه اليهودي الخبيث.. فقد ادعى أنه رأى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في البرق بين السحاب وأنه قد منحه حق النبوة.. ثم جاء بالطامة الكبرى فادعى أن عيسى بن مريم هو ابن الله.. وأن عيسى بن مريم نفسه أوحى له بذلك.. ثم تحول إلى تعاليم عيسى فنسخ كثيراً منها.. كالختان وأكل لحم الخنزير.. وأدخل الوثنية إلى تعاليم نبي الله عليه الصلاة والسلام.. وأفسدها إلى اليوم.. فإذا كان اليهود قد فعلوا كل هذا وأكثر مع أنبياء من اليهود أنفسهم.. من إخوتهم.. فهل يُتوقع أن يستقبلوا محمداً ﷺ بالأحضان والقلوب المبتسمة.. وهو ليس من أبناء اليهود؟ الإجابة معروفة.

فاليهود ينتظرون نبياً منهم ليسحقوا به العرب وسائر الأمم لا ليهدوا به العرب.. فكيف يؤمنون بنبي يجعل من هؤلاء العرب سادة الدنيا وقادة العالم.. حسدُ بني إسرائيل يقول: لا.. وألف لا.. لكن عالماً من يهود.. لا يقول: لا

عبد الله بن سلام لا يقول: لا

.. رجل من بني إسرائيل.. من اليهود.. عالم ومثقف كبقية علماء اليهود لكن صدره أبيض كالثلج.. واسع المدى.. متلهف للحقيقة كالضياع كالعطش.. عالم اسمه عبد الله بن سلام.. صادق اسمه عبد الله ابن سلام.. كان يحدث من حوله فيقول:

(لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل[1] الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ.. فجئت في الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال:

يا أيها الناس:

أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[2].

كلمات قليلة تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر.. أي مجتمع سيولد في المدينة.. مجتمع تفشو بين أهله التحايا والهدايا والسلام.. مجتمع يمد يديه للمحتاج.. ويشق الطرقات بين الأقارب والأرحام.. وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه.. وتسكن الطيور في الأوكار.. تحلق أرواحٌ مؤمنة إلى ربها تناجي وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرحيم.. أيقن ابن سلام أن هذا الرجل ليس بكذاب.. ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحب والسلام..

لكن أين كان ابن سلام عندما قدم رسول الله ﷺ؟ أنس بن مالك يقول إنه كان في نخلٍ لأهله يخترف لهم الرطب.. فجاء وأدوات الاختراف بيديه نسي أن يتركها من شدة ذهوله.. يقول أنس:

(وقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ، فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله.. فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب..

---

(١) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

(٢) سنده صحيح. رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي (٥٣١/٢) من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة من رجال الشيخين عن زرارة بن أبي أوفى العامري وهو ثقة عابد وتابعي من رجالهما (التقريب ٨٩/٢) و (٢٥٩/١).

فإنه ليحدِّث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها، فجاء وهي معه.. وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله..

وقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري.. وهذا بابي.. قال ﷺ:

«انطلق فهيئ لنا مقيلاً»، فذهب فهيأ ثم جاء.. فقال: يا رسول الله ﷺ قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا)(١).

لقد ذهب عبد الله بن سلام.. سمع وعاد فمتى أسلم وكيف أسلم؟ يقول أنس: (فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال:

أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق، ولقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم.. فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئت بحق أسلموا» فقالوا: ما نعلمه)(٢). ترى هل أسلم هذا العالم المثقف لمجرد رؤيته رسول الله ﷺ دون استفسار.. دون سؤال أو حصول على علامة وبيان..؟ هذا ما لا يفعله عادة المثقفون والعلماء وعبد الله بن سلام منهم.. فهو لم يسلم مباشرة.. أنس بن مالك مرة أخرى يتحدث.. مرة أخرى يخصص حديثه عن ابن سلام.. فيقول:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٢/٥٢٨).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٢/٥٢٨).

(سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ... فأتى النبي ﷺ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي:

ما أول أشراط الساعة[1]؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما يترع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟

قال ﷺ:

«أخبرني بهن جبريل آنفاً».. قال ابن سلام: جبريل؟! قال ﷺ:

«نعم».. قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.. ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولد.

قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت[2]، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسلهم عني بهتوني، فجاءت اليهود إليه.. قال ﷺ:

«أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا..

---

(١) علامات الساعة، وعلامات الساعة كثيرة... منها بعثة رسول الله ﷺ لكن لها علامات كبرى عجيبة مفاجئة للعالم هذه أولها ومنها خروج اليهودي المسيح الدجال ونزول المسيح عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من جهة المغرب...

(٢) أقوام يفترون ويكذبون ويلصقون في المرء ما ليس فيه.

وسيدنا وابن سيدنا.. قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك..، فخرج عبد الله، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا:

شرنا وابن شرنا.. وتنقصوه[1]. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[2].

هذا هو الفرق بين اليهود والنصارى بل وغير النصارى غالباً فالنصارى ضلوا الطريق فسماهم الله (الضالين).. أما اليهود فهم يعرفون الحق ويتركونه ولذلك وصفهم الله بـ: (المغضوب عليهم) والتاريخ يحدثنا عن اليهود كثيراً وعن رفضهم وقتلهم الأنبياء والمصلحين.. بل إنهم سبب ضلال النصارى[3] وبعدهم عن الحق.. فلا غرابة ولا عجب أن رفضوا رسالة الإسلام، لا سيما وأن النبي ﷺ ليس منهم.. هؤلاء يهود.. وغبي كل الغباء من يظن أنهم غير ذلك.. والتاريخ شاهد والواقع على طرقاتنا يتلو علينا كل صباح مؤامراتهم..

فلننصرف عنهم كما انصرفوا عن رسول الله ﷺ.. ولندخل مع رسول الله ﷺ إلى دار أبي أيوب.. الذي أصبح مقراً مؤقتاً لرسول الله ﷺ ريثما يجد له منزلاً مستقلاً به وبزوجته القادمة سودة رضي الله عنها.. فتحنا الباب فوجدنا أبا أيوب رجلاً من كرم.. رجلاً من شعور.. مهذب وحساس ومحب لله ولرسول الله ﷺ وللإسلام أكثر من نفسه.. كان صدره أفسح من بيته.. وكانت يداه غيمتين.. جدران بيت أبي أيوب

---

(١) عابوه.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٢/٥٢٩).

(٣) كما مر معنا في قصة بولس أو شاءول.

تحكي لنا هذه القصة.. تروي لنا كم كان أبو أيوب مسلماً.. كم كان عظيماً.. يقول أبو أيوب:

(لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو.. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال ﷺ:

«يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت». فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب[1] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده[2] فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فرده رسول الله ﷺ، فلم أر ليده فيه أثراً.. فجئته فزعاً، فقلت:

يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه.. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة»)[3] وما دام ﷺ يكره رائحتها

---

(١) وعاء يوضع فيه الماء كالزير والجرة.

(٢) أي بحثوا عن مواضع أصابعه وقصدوها.

(٣) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق وصرح بالسماع من شيخه يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي حدثني أبو أيوب، ويزيد ومرثد فقيهان ثقتان وأبو رهم هو كلثوم بن الحصين أحد الصحابة رضي الله عنهم. انظر سيرة ابن كثير (٢/٢٧٧).

فأبو أيوب يكرهها كذلك، لقد قال لرسول الله ﷺ (فإني أكره ما تكره)[1].. ومع ذلك لم تسكن نفس أبي أيوب، لم يجد للراحة مكاناً.. لم يجد للراحة طعماً رغم شدة فرحه برسول الله ﷺ داخل بيته.. لماذا؟.. لماذا؟

أبو أيوب مُحرج

لو رأيته وهو يسير في مترله لأشفقت عليه.. فهو لا يتحرك إلا في مساحة ضيقة من بيته.. كأن الجن والأشباح تترل في البقية الباقية.. لقد حدد له زاوية من المترل يتحرك فيها وينتقل وينام.. أما البقية الباقية فلا.. ذلك لأن الإسلام صنع منه قلباً وحساً مرهفاً.. فهو لا يريد أن يمشي فوق رأس رسول الله ﷺ.. فقد (انتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!!

فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ يعني في ذلك فقال ﷺ: "السفل أرفق بنا ".. فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل)[2].. لن تستغرب الدنيا ما قام به أبو أيوب رضي الله عنه فهو ابن سحابة هتون تحوم في سماء الإيثار والكرم.. ابن سحابة اسمها الأنصار.. الأنصار الذين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].. هذه شهادة الله لهم تتترل عليهم من فوق العرش تعبر السماوات سماءً سماءً يتغنّى بها الأنصار.. يتغنى بها بنو النجار أخوال رسول الله ﷺ وأبو أيوب من الأنصار.. وأبو أيوب من بني النجار ولإن

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي (٥٠٩/٢).

(٢) حديث صحيح.رواه مسلم والبيهقي (٥٠٩/٢).

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

كانت (خير دور الأنصار بني النجار)[1] فـإن (في كـل دور الأنصـار خير)[2]... فالله جعل (آية الإيمان حب الأنصار، وآيـة النفـاق بغـض الأنصار)[3]... فـ (لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منـافق، فمـن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله)[4].

الأنصار الآن يتوافدون.. يتتابعون نحو رسول الله ﷺ.. يسـلّمون.. يثلجون صدورهم بالقرب من حبيبهم.. كانوا يحملون الـولاء والحـب وشيئاً من الطعام.. كلٌ حسب ما يجد.. لكن أحد الفقراء المعدمين الذين لا يملكون حتى ثيابهم كان على الباب ينتظر..

كانت هيئته رثةً تدمي القلب.. وتدمع العين.. ومع ذلك اسـتطاع بعد جهد وعرق أن يحصل على شيء من طعام لا ليأكله.. لا ليتصدق به بل ليهديه.

فمن هذا الشخص الغريب؟

أتذكرون ذلك المسكين الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو في قبـاء وقدم له صدقة من طعام فأكل الصحابة منه ولم يأكل رسـول الله ﷺ.. قباء تذكره.. وأنتم؟.. هاهو يأتي مرة أخرى يحمل هدية من طعام تحملها يدان تشققتا من العبودية والكدح والشقاء.. تحمله أقدامه دامية.. عصفتها الدروب والثلوج والرمضاء والرياح.. وما إن وقف ذلك المسكين أمـام رسول الله ﷺ حتى قال له:

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) متفق عليه وهو آخر الحديث السابق.

(٣) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٤).

(٤) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٣).

(إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها... فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه)[1].

فقال ذلك المسكين في نفسه: (هاتان اثنتان)[2] ثم خرج من عند رسول الله ﷺ وهو أحر شوقاً مما كان عليه.. عاد لسيده اليهودي يكدح ويكدح.. وينتظر النهار بين نخيل المدينة.. فمن أجل النهار جاء.. جاء من مكان بعيد.. جاء سيداً.. جاء مبتسماً وباكياً.. جاء عبداً مقيداً.. جاء من مر السنين.. ولن تضيره أيام قليلة من الانتظار.. فربما طلع النهار وانزاح ليله الدامي الطويل.

أما رسول الله ﷺ فمكث ما شاء الله له أن يمكث في ضيافة أبي أيوب.. ولم يكن هناك من مسجد للصلاة فـ (كان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم)[3].

لكن المدينة اليوم عاصمة للإسلام.. وهي تتسع كل يوم بالوافدين والمهاجرين.. وكان لا بد لها من مسجد.. وقرب بيت أبي أيوب لمح رسول الله ﷺ حائطاً لبني النجار.. لم يرَ رسول الله ﷺ أنسب منه مكاناً لمسجده.. فكانت هذه القصة:

قصة بناء المسجد النبوي

لقد جاء الأمر (ببناء المسجد.. فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال:

يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا..؟ فقالوا:

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٢٨).

والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل.. قال:

وكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل.. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع... فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضاديته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»[1]

لم يكن رسول الله ﷺ قاعداً.. يكحل عينيه بمشهد السواعد تشتد أمامه وتعرق.. بل كان يعرق مثلهم ويحمل مثلهم.. لقد ساهم ﷺ في بناء مسجده وبناء مسجد قباء كما ساهم وهو شاب في بناء مسجد الله الحرام في مكة التي طرد منها ومن كعبتها.. وفي المدينة كان الصحابة يتدفقون نشاطاً وبناءً.. هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يتميز عن بقية الصحابة..

.. يحدثنا عما قام به عمار صحابي اسمه أبو سعيد الخدري فيقول: (كنا نحمل في بناء المسجد لبنة.. لبنة، وعمار يحمل لبنتين.. لبنتين.. فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه)[2] ثم يقول ﷺ وحياً.. يقول غيباً.. يقول: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)[3] أما عمار فكان رغم استبشاره بهذه الشهادة.. يخشى على أمة

---

(١) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٢/٣٠٧) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة. أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٣) حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٢/٣٠٧) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة.
=

الإسلام.. يخشى عليها فيقول: (أعوذ بالله من الفتن)[1] ثم ينصـــرف إلى عمله والصحابة حوله حركة نشطة.. هذا أحدهم.. يغــوص في الطـــين بمهارة.. ويعالجه بطريقة مدهشة أعجبت النبي ﷺ فقال لمن حوله ممتدحاً فعل ذلك الرجل الماهر بعمله الوافد من اليمامة ليكتب الله لـــه شـــرف المساهمة في بناء المسجد النبوي.. يقول ﷺ: «قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم بناءً»[2].

وتم بناء المسجد كما أراد ﷺ: مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمـــده من خشب النخل)[3].

لكن ما قصة هذا اليمامي

طلق بن علي اليمامي يحكي قصته.. يرويها بنفسه يفخر بها وحق له أن يفخر.. يقول رضي الله عنه: (بنيت مع النبي ﷺ مسجد المدينة فكان يقول:

=

أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنـــه وأصحابه.

(١)حديث صحيح. رواه البيهقي بإسناد صحيح (سيرة ابن كثير ٣٠٧/٢) والبخاري ولكن بدون زيادة تقتله الفئة الباغية، لكنها زيادة صحيحة فقد رواها أبو سعيد عن أبي قتادة. أمـــا الفئـــة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٢) سنده صحيح. رواه النسائي والبيهقي واللفظ له (٥٤٢/٢) وابن حبان (٤٠٥/٣) مـــن طريق ملازم بن عمرو وهو يمامي صدوق (التقريب ٢٩١/٢) حدثنا عبد الله بن بدر وهو يمامي ثقة (التقريب ٤٠٣/١) وشيخه هو قيس ابن الصحابي طلق الذي ساهم في البنـــاء وهو تابعي ثقة (التقريب ١٢٩/٢) وقصة الوفادة عند الطبراني (٣٩٩/٨) وابن حبـــان (٤٠٤/٣) بالسند نفسه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٥٤١/٢).

مكنوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم له مساً)[1].

ويحكي هذا الصحابي قصة قدومه فيقول:

(خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ، فأخبرناه أن بأرضنا بيعة[2] لنا.. واستوهبناه من فضل طهوره، فدعا بماء فمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وقال:

اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم[3]، وانضحوا مكانها من هذا الماء، واتخذوا مكانها مسجداً فقلنا:

يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف.. قال ﷺ: «فمدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيباً»... قال: فتشاححنا على حمل الإداوة أينا يحملها، فجعلناها نوباً بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلما قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا، وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي، فنادينا للصلاة.. فقال الراهب: دعوة حق ثم هرب فلم يرَ بعد)[4] هذا ما حدث في أرض اليمامة أما في المدينة.

فبعد أن تم بناء المسجد.. وعُمِّرَ بالصلاة والحياة.. وضع لرسول الله ﷺ جذع نخلة يخطب عليها.. لكن الوفود تكثر كل يوم... والمهاجرون في ازدياد.. والناس تريد أن تستمع إلى خطب رسول الله ﷺ.. إلى وحي ربها.. فلا بد من بناء منبر مرتفع يمكن الحاضرين من الاستماع

---

(١)سنده صحيح. رواه النسائي والبيهقي واللفظ له (٥٤٢/٢) وابن حبان (٤٠٥/٣) من طريق ملازم بن عمرو وهو يمامي صدوق (التقريب ٢٩١/٢) حدثنا عبد الله بن بدر وهو يمامي ثقة (التقريب ٤٠٣/١) وشيخه هو قيس ابن الصحابي طلق الذي ساهم في البناء وهو تابعي ثقة (التقريب ١٢٩/٢) وقصة الوفادة عند الطبراني (٣٩٩/٨) وابن حبان (٤٠٤/٣) بالسند نفسه.

(٢) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٣) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٤) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وهو صحيح.

والرؤية.. وافق ﷺ على هذا الاقتراح.. لكن شيئاً محزناً حدث فأحزن من في المسجد وأبكاهم.. شيء غريب ومؤثرٌ حقاً..

عند صنع المنبر

أحد الذين حضروا تلك الدموع.. صحابي اسمه: سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول:

(كان رسول الله ﷺ يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس وكثروا قيل له: يا رسول الله لو جعلت منبراً تشرف على الناس منه؟

فبعث إلى النجار فانطلق.. فانطلقت معه حتى أتى الغابة فقطع منها أثلاً.. فعمله وهيأه ثم أتينا نحمله، فكان «درجتين» والثالثة مقعد لرسول الله ﷺ.. فوالله ما هو إلا أن قعد عليه رسول الله ﷺ.. فتكلم، وفقدته الخشبة.. فخارت كخوار الثور لها حنين حتى فزع الناس.. وكثر البكاء مما رأوا بها، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة»)[1]. تأثر ﷺ بذلك الحنين وهو على المنبر (فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت)[2] كأن هذا الجذع متفرع من جذور الحب.. كأنه أحد

---

(١) حديث حسن. رواه أبو نعيم في الدلائل (٤٠٣)، أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة عن عمارة بن غزية أنه سمع عباس بن سهل يخبر عن أبيه وهذا سند صحيح لولا اختلاط ابن لهيعة لكنه لم ينفرد فقد رواه البيهقي من طريقين عن أبي بكر بن أويس عن سعد بن سعيد بن قيس عن عباس عن أبيه (٥٥٩/٢) وعلته سعد بن سعيد وحديثه حسن بالشواهد فهو صدوق سيئ الحفظ.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري والبيهقي (٥٦٠/٢).

المهاجرين والأنصار.. كأنه مكة.. مكة التي تفتقد إلى وجه ابنها وحبيبها ﷺ.. كأنه تلك الحجارة التي كانت تسلم عليه ﷺ كلما مر بها.. وتبادله حباً بحب وشوقاً بشوق.. هذا الجذع بكى لأن رسول الله ﷺ لن يخطب عليه بعد اليوم.. لن يحظى بدفء جسده بعد اليوم... وسوف يفتقد إلى ذكر الله يفوح عطراً وهدايةً من رسول الله ﷺ.. لقد عبر ﷺ عمّا بأعماق هذه الشجرة عندما قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها)[1] إنها تغبط:

امرأة من الأنصار وغلامها تبرعا بالمنبر

فالأنصارية هي التي تطوعت وغلامها لبناء المنبر.. يحدثنا عن ذلك أحد كرام الأنصار: جابر بن عبد الله فيقول:

(إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله.. ألا أجعل لك منبراً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً..، فقال ﷺ:

«إن شئت»..، فعملت له منبراً، فلما كان يوم الجمعة قعد على المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت. قال ﷺ: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها»)[2] ثم عاد ﷺ إلى منبره.

فماذا صنع

يقول سهل الساعدي: إن المرأة أمرت غلامها (فعملها من طرفاء

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

الغابة.. ثم جاء بها فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ههنا.. ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها.. وكبَّر وهو عليها.. ثم ركع وهو عليها.. ثم نزل القهقرى.. فسجد في أصل المنبر.. ثم عاد.. فلما فرغ أقبل على الناس فقال:

«أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي.. فعمل هذه الثلاث درجات»[1] إذاً فمنبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات لا أكثر..

ثلاث درجات بسيطة لا أكثر..

فهنيئاً لتلك الأنصارية.. هنيئاً لغلامها وهنيئاً لذلك المنبر.. فمنبر الأثل لم يعد ينتمي إلى الأثل.. لم يعد ينتسب إلى الأرض.. منبر الأنصارية صار:

منبراً من الجنة

فقد التفت ﷺ إلى منبره يوماً فقال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»[2].

وأما ما بين المنبر وبيت رسول الله ﷺ فمساحة من الربيع الخالد.. والفيض الغامر الواعد بالنعيم.. فقد قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[3].

أما المسجد فقد اكتمل بناؤه.. واكتمل العقد بجوهرة ثالثة تزين صدر السفر.. محطة ثالثة لقوافل المؤمنين بناها ﷺ في المدينة.. يزيلون فيها

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٢/٥٥٥).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي (١/١٥٠) والبيهقي (٢/٥٦٤).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (١١٩٥).

العناء والذنوب وينهلون الربيع والثواب «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا.. والمسجد الحرام.. ومسجد بيت المقدس»[1]... لا تشد الرحال من أجل العبادة إلى أي مسجد في الدنيا إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.. فمن أتعب مطاياه إلى غيرها فقد أتعبته البدعة والشيطان.. والإسلام نبع صافٍ ورقراق.. والبدعة تلوثه.. والشيطان يلوث قلوب أصحابها.. لكن لماذا هذه المساجد فقط هي مناخ المرتحل ومستراحه؟ الإجابة لا تأتي من الهواء.. لا تأتي من الهوى.. الإجابة تتترل وحياً.

تتترل أجراً عندما قال ﷺ: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[2].

فهم الصحابة ذلك وأدركوا أن السفر من أجل العبادة والصلاة لا يجوز مهما كان ذلك المكان المنشود مقدساً.. إلا إلى هذه المساجد الثلاثة.. حتى ولو كان هذا المكان جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى تكليماً.. وأنزل عليه فيه التوراة.. وهذه القصة حدثت بين صحابيين تشهد بتفاني الصحابة من أجل بقاء الإسلام جديداً دون تشويه.. دون بدع.. (لقد لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور.. صليت فيه، قال أبو بصرة: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع (٢/٧١٤).

الأقصى»)[1] وبهذه التصفية والتربية يبقى الإسلام جديداً.. دون شوائب.. دون بدع.. كما أنزل على محمد ﷺ.

إذاً فقد سعدت المدينة باحتضانها لمسجد يؤسسة رسول الله ﷺ على التقوى كما سعدت مكة من قبل بتأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام..

وبنى ﷺ له بيتاً ملاصقاً للمسجد عبارة عن حجرات صغيرة فسودة قادمة قريباً من مكة.. أما عائشة فربما كانت مع هذا الركب الذي يلوح بين السراب.. وفيه امرأة حامل.. امرأة عظيمة كانت تحمل المسؤوليات والطعام إلى رسول الله ﷺ.. كانت تقطع حزاماً لها نصفين ليستخدمه ﷺ في هجرته إلى المدينة فيربط زاده وما يحتاجه.. إنها ذات التاريخ الأبيض.. ذات النطاقين.. أسماء بنت الصديق الأكبر.. والصاحب الأبر.. (هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى)[2].. لم تبال بثقل حملها فمدينة الأنوار والحب تنتظرها.. وهي لا تستطيع مقاومة ذلك الحب فيها.. أما ذلك الجنين في بطنها فكان على موعد مع السبق والشرف ليكون أولاً في سجلات الهجرة والإسلام.

أسماء الآن في طريقها إلى المدينة.. هي الآن في قباء قد أثقلها الحمل والتعب.. لا تستطيع المشي.. لا تستطيع الوصول إلى المدينة فآلام الولادة شديدة.. إنها المرة الأولى التي تعاني فيها من هذه الآلام.. فبقيت في قباء حتى تمت ولادتها بسلام وطفلٍ كالورد تحدثنا عنه فتقول: (خرجت وأنا متم.. فأتيت المدينة فترلت بقباء.. فولدته بقباء.. ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه.. فكان أول شيء

---

(١) حديث صحيح انظر إرواء الغليل (١٤٢/٤) وقول النبي ﷺ عند البخاري ومسلم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٩).

دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة.. ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام)[1].

هذا الطفل هو عبد الله بن الزبير بن العوام.. أمه أسماء وجده أبو بكر أما خالته عائشة.. فبعد وصولها عانت من مرض تساقط منه شعرها تقول رضي الله عنها: (قدمنا المدينة فترلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة)[2] أي أنها شفيت فعاد شعرها جميمة وهو الشعر إذا سقط على المنكبين.. فرحت عائشة بجميمتها وهي...

تنتظر أسعد أيام حياتها

فهي زوج رسول الله ﷺ لكنها كانت في بيت أبيها لم تنتقل بعد إلى بيت الزوجية والنبوة والحب الطهور.. وتلك الحجرات الصغيرات كن يتلهفن عليها حتى إذا جاء شهر شوال من تلك السنة... وشهر شوال محبوب لدى عائشة.. إنها تقول عنه: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال.. وبنى بي في شوال.. فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني.. وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال)[3].

ولزفاف عائشة قصة تحب أن ترويها لنا فتقول رضي الله عنها:

(أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحةٍ ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (ابن كثير ٢/٣٣١).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٩٤).

(٣) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد. انظر سيرة ابن كثير (٢/٣٣٢) حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أمية، عن عبد الله بن عروة بن الزبير، عن أبيه عن عائشة وهذا الإسناد صحيح: وكيع ثقة معروف... إسماعيل ثقة ثبت... عبد الله بن عروة ثقة ثبت... وسفيان إمام ثقة ثبت معروف.

على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين)[1].

هذه قصة الزفاف.. وهكذا صار لعائشة رضي الله عنها حجرة من تلك الحجرات المتواضعة.. وصار لها نصيب في حياته ﷺ وقلبه.. يزداد مع الأيام حتى صارت أحب الناس إليه.. يقول أحد الصحابة واسمه عبد الله بن شقيق:

(قلت لعائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟

قالت: عائشة.. قلت: فمن الرجال؟

قالت: أبوها)[2].

وصحابي آخر قدم على رسول الله ﷺ فجرى بينهما حوار عن الحب.. يقول هذا الصحابي رضي الله عنه: (أتيته.. قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها.. قلت: ثم من؟ قال: عمر.. فعد رجالاً)[3].

المرأة من جديد تقفز في المقدمة.. تتقدم فتسير أمام من يدخلون قلب رسول الله ﷺ.. وقلب رسول الله ﷺ كان مدينةً منورةً أخرى للجميع.. سعدوا بدخولها.. واطمأنوا بالعيش فيها.. ومن آثار تلك الطمأنينة والحب

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨٩٤).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٣٥٨).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٣٥٨).

بين المهاجرين والأنصار هذه الخطوات التي يخطوها حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وهو يتجه إلى أحد بيوت الأنصار.. إلى بيت قيس بن فهد.. حمله حب مصاهرة الأنصار الكرام والتماهي معهم إلى يوم القيامة.. خطب حمزة رضي الله عنه خولة بنت قيس فوافقت ووافق أبوها.. وزفت إليه وسكنا معا في بيت تعمره السكينة والإيمان ويزوره النبي ﷺ ليقضي فيه وقتا كأنسام البحار عند المساء.. خولة رضي الله عنها تتحدث عن تلك الزيارات التي كان يقوم بها النبي ﷺ لبيت عمه.. وتتحدث عن عذوبته عليه ﷺ: (أن حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوج خولة بنت قيس بن قهد الأنصارية من بني النجار.. قال وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها وكانت تحدث عنه ﷺ أحاديث قالت جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله.. الله بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا وكذا.. قال أجل.. وأحب الناس إلى أن يروى منه قومك قالت فقدمت إليه برمة فيها خبزة أو حريرة.. فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت أصابعه فقال: حس.. ثم قال: ابن آدم إن أصابه البرد قال: حس.. وإن أصابه الحر قال: حس) [1] وتقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكر الدنيا فقال رسول الله ﷺ: إن الدنيا خضرة حلوة فمن أخذها بحقها بورك له فيها.. ورب متخوض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقي الله)[2] كان ﷺ يزور أصحابه أيضاً يتفقدهم ويتحسس معاناتهم..

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٦/٤١٠ من طريق يحى بن سغيد عن يحنس تابعي ثقة: التقريب ٢/٣٢٤ وللحديث شواهد قوية عند الطبراني: المعجم الكبير ٢٤/٢٢٧ تحت عنوان: خولة بنت قيس بن قهيد بن قيس بن ثعلبة الأنصاري امرأة حمزة بن عبد المطلب.

(٢) سندة قوي رواه أحمد ٦/٣٦٤ وغيره من طريق يحى بن سعيد أن عمر بن كثي بن أفلح مولي أبي أيوب الأنصاري أخبره أنه سمع عبيد سنوطا يحدث عن خولة وعمر تابعي ثقة =

ولأهم جميعاً بين أضلاعه ﷺ فلا بد أن يدلف معهم شيء من الأحزان يشعر به ويشاركهم معاناته.. كان يتقاسم معهم الأحزان والأفراح..

فخلال تلك البهجة.. خلال فرح المدينة بعرس محمد ﷺ وعائشة.. خلال الفرح بالمهاجرين والإسلام كانت قافلة الحياة الطويلة تمر.. تعبر لا تتوقف.. تحمل الفرح والأحزان والمفاجآت.. قافلة الحياة تحمل هذه المرة حزناً يتأهب لدخول بيت أحد أبطال العقبة والبيعة الخالدة:

بيت أسعد بن زرارة

الذي كان في أيامة الأخيرة يعاني من المرض.. فيقول أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة في الشوكة)[1].

لكن سعداً مات رضي الله عنه.. مات فترك جرحاً في قلوب المسلمين.. وترك دعاءً في قلب رجل اسمه كعب بن مالك رضي الله عنه.. كان كعب يدعو له كلما سمع صوت المؤذن ليوم الجمعة.. فلماذا هذا النداء بالذات وما هي ذكرياته.. الإجابة أخذها عبد الرحمن من والده كعب بن مالك.. بعد أن بلغ كعب من الكبر عتياً وشاب رأسه وذهب بصره.. يقول عبد الرحمن: إن والده

(كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة.. فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة.. قال:

من رجال مسلم انظر التقريب ٢/٦٢ وسنوطا ثقة قال العجلي في معرفة الثقات ٢/١٢٢: عبيد سنوطا مدني تابعي ثقة.

(١) سنده صحيح. رواه ابن جرير (ابن كثير ٢/٣٢٩) أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا يزيد بن زريع، عن معمر عن الزهري عن أنس... ومحمد بن عبد الأعلى ثقة (التقريب ٢/١٨٢) وشيخه أوثق منه (التقريب ٢/٣٦٤) والبقية أئمة أغنياء عن التعريف.

لأنه أول من جمَّع بنا في هزم النبيت.. من حرة بني بياضة.

..في نقيع يقال له نقيع الخضمات.. قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون)[1].. رحم الله أسعد بن زرارة.. ربما كان هو هذا الذي فوق الأعناق.. هاهم يترلونه إلى قبره ويدفنونه.. النبي ﷺ حزين عند قبره.. وهاهم الصحابة يلفهم الوجوم ويتسلل الحزن بينهم.. ويتسلل بينهم رجل لم يعرف الحزن هذه اللحظة فقط.. بل تشربته عروقه وشبابه فأصبح من لحمه ودمه.. حزين تصرعه الدنيا وتشفيه وتحمله وترتحل به حتى أوصلته إلى هذا القبر.

فمن هذا المتسلل؟

من هذا المتسلل بين المقابر..؟ إنه ذلك الرقيق المتسلل ليلاً إلى قباء عندما وصل رسول الله ﷺ إلى هناك.. هل تذكرون تلك الصدقة التي حملها.. قدمها لرسول الله ﷺ فلم يأكل منها وجعل أصحابه يأكلون.. إنه الشخص نفسه الذي حمل هدية من طعام إلى رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري.. ذلك الشخص المحير.. ذلك الرقيق المليء بالأسرار والعبودية والهموم هو هذا المتسلل الذي مشى إلى رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة الصحابي الجليل.. وعلى رسول الله ﷺ شملتان.. لن أستمر.. سأترككم معه.. يفتح لكم قلبه ودروبه وتاريخه.. ليتحدث إليكم يقول رضي الله عنه:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (١٨٧/٣): حدثني محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أخبره... وهذا السند صحيح. شيخ ابن إسحاق ثقة (التقريب ١٤٦/٢) ووالده اسمه: أسعد بن سهل بن حنيف له رؤية وهو معدود في الصحابة (التقريب ٦٤/١) وشيخه من كبار التابعين وثقاتهم (التقريب ٤٩٦/١).

(جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد[1]... قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان[2] وهو جالس في أصحابه.. فسلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم[3] فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول».. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي)[4] إذاً فهذا المسكين يبحث عن نبي وقد وجده.. لكن من هو صاحبه وما هي قصته وما هو حديثه...؟

مرة أخرى سأترككم معه يحدثكم كما حدث رسول الله ﷺ حديثاً مبللاً بالدموع والشقاء والدلال.. حديثاً طويلاً يقول فيه:

(كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان.. من أهل قرية يقال لها جيء.. وكان أبي دهقان[5] قريته.. وكنت أحب خلق الله إليه.. فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية -أي ملازم النار- واجتهدت في المجوسية[6] حتى كنت قطن[7] النار الذي يوقدها لا يتركها

---

(١) بقيع الغرقد: هو مقبرة المدينة.

(٢) الشملة: كساء يتلفف به المرء.

(٣) خاتم النبوة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢٩٦/١) ومن طريقه رواه أحمد (٤٤١/٥) فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي -من فيه- قال: كنت رجلاً فارسياً.... وهذه السلسلة من الرجال كالذهب، عاصم بن عمر بن قتادة وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي والبقية من الصحابة رضي الله عنهم. انظر التقريب (٣٨٥/١).

(٥) الدهقان: هو رئيس القرية أو التاجر.

(٦) المجوسية: دين يعبد أهله النار.

(٧) أي خازن النار والمعتني بها.

تخبو ساعة.. وكانت لأبي ضيعة[1] عظيمة... فشغل في بنيانٍ له يوماً فقال لي:

يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي.. فاذهب إليها فاطّلعها.. وأمرني فيها ببعض ما يريد.. ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري..

فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها.. فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون.. وكنت لا أدري ما أمر الناس -لحبس أبي إياي في بيته - فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم.. وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه.. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها.. ثم قلت لهم:

أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام..

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله.. فلما جئت قال: أي بني.. أي كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟.. قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم.. فأعجبني مارأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.. قال: أي بني... ليس في ذلك الدين خير.. دينك ودين آبائك خير منه.. قلت:

كلا والله إنه لخير من ديننا.. فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته..

(١) بساتين وأشجار وكروم.

وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام -تجار من النصارى- فأخبروني بهم.. فقدم عليهم ركب الشام -تجار من النصارى- فجاءوني النصارى فأخبروني بهم.. فقلت:

إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني.. فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم.. فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت:

من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف[1] في الكنيسة.. فجئته فقلت له:

إني قد رغبت في هذا الدين.. وأحببت أن أكون معك.. وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك فأصلي معك.. قال: ادخل..

فدخلت معه.. فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها.. فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين.. حتى جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق[2]... وأبغضته بغضاً شديداً لمارأيته يصنع.. ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه..

فقلت لهم:

إن هذا كان رجل سوء.. يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها.. فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم:

أنا أدلكم على كنزه.. قالوا: فدلنا.. فأريتهم موضعه فاستخرجوا

---

(١) رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

(٢) الورق: الفضة.

سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً.. فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً.. فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه.. فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه.. وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة.. ولا أدأب ليلاً ونهاراً.. فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله.. فأقمت معه زماناً.. ثم حضرته الوفاة.. فقلت له:

إني قد كنت معك.. وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك.. وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى.. فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟

قال: أي بني.. والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل[1] وهو فلان.. وهو على ما كنتُ عليه فالحقْ به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل.. فقلت: يا فلان.. إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك.. وأخبرني أنك على أمره.. فقال لي:

أقم عندي.. فأقمت عنده فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه.. فلم يلبث أن مات.. فلما حضرته الوفاة قلت له:

يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك.. وقد حضرك من أمر الله ما ترى.. فإلى من توصي بي وبِمَ تأمرني؟ قال: يا بني.. والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه.. إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان.. فالحق به..

---

(١) مدينة معظمها على الضفة اليمنى لنهر دجلة بالعراق.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين[1].. فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي.. فقال: أقم عندي.. فأقمت عنده.. فوجدته على أمر صاحبيه.. فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت.. فلما حضر قلت له:

يا فلان.. إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إليك.. فإلى من توصي بي وتأمرني..

قال:

يا بني.. والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه.. إلا رجلاً بعمورية[2] من أرض الروم.. فإنه على مثل ما نحن عليه.. فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية.. فأخبرته خبري.. فقال: أقم عندي.. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم..

واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة.. ثم نزل به أمر الله.. فلما حضر قلت له: يافلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إلى فلان.. ثم أوصى بي فلان إليك.. فإلى من توصي بي.. وبم تأمرني؟ قال:

أي بني.. والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه.. ولكن قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم.. يخرج بأرض العرب.. مهاجره إلى أرض بين حرتين[3]..، بينهما نخل.. به

(١) مدينة من مدن الجزيرة.

(٢) مدينة بآسيا الصغرى (تركيا الآن).

(٣) الحرة: أرض ذات أحجار سوداء.

علامات لا تخفى.. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.. بين كتفيه خاتم النبوة.. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل..

ثم مات وغيب.. ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث..

ثم مر بي نفر من كلب -تجار - فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه.. قالوا: نعم.. فأعطيتهموها وحملوني معهم..حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني.. فباعوني من رجل يهودي عبداً.. فكنت عنده.. ورأيت النخل.. فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي.. ولم يحق في نفسي.. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة.. فابتاعني منه.. فاحتملني إلى المدينة.. فوالله ما هو إلا أن رأيتها.. فعرفتها بصفة صاحبي لها.. فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ.. فأقام بمكة ما أقام.. ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق.. ثم هاجر إلى المدينة.. فوالله إني لفي رأس عذق[1] لسيدي أعمل فيه بعض العمل.. وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال:

يا فلان.. قاتل الله بني قيلة[2].. والله إنهم لمجتمعون الآن بقباءٍ على رجلٍ قدم من مكة يزعم أنه نبي..

فلما سمعتها أخذتني الرعدة.. حتى ظننت أني ساقط على سيدي.. فنزلت عن النخلة.. فجعلت أقول لابن عمه:

---

(١) العَذق -بفتح العين - النخلة بحملها.

(٢) اسم جدة الأوس والخزرج.

ماذا تقول.. ماذا تقول..؟

فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة.. ثم قال: مالك ولهذا!! أقبل على عملك.. فقلت: لا شيء.. إنما أردت أن أستثبته عما قال.. وقد كان عندي شيء قد جمعته.. فلما أمسيت أخذته.. ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء..)[1].

إذاً فرسول الله ﷺ يعرف وجه هذا الغريب ويعرف قصته معه في قباء عندما قدم لرسول الله ﷺ صدقة من طعام فلم يأكل منها..

ولكنه أكل من هديته التي قدمها له في بيت أبي أيوب..

وهاهو يرى خاتم النبوة على ظهره ﷺ.

ثلاث علامات ذاق من أجلها سلمان ألوان المر.. والترحال والتغرب والتشرد.. تشققت يداه من الكد والكدح وهو ابن النعيم والدلال.. حياة طويلة ترسف في قيود الحديد والعبودية والرق.. كان في غنى عنها لكنه ليس في غنى عن التوحيد.. فالتوحيد يعني له عالماً من النعيم.. والحقيقة المدهشة المثيرة والانطلاق في آفاق الخلود والتحليق بلا حدود.. لم يجدها في رماد نار المجوس.. ولا بين تصاليب النصارى ولا وسط أحقاد اليهود.. وجدها بين يدي محمد ﷺ.. فهدأت نفسه الثائرة وارتاحت روحه المتعبة ووجد الجدار الذي يسند إليه ظهره بعد طول العناء.. عثر على من يمسح دموعه وعرقه في طيبة الطيبة بين إخوة له في الشقاء والبحث والانتظار والوصول.. فقص عليهم ما وجده وما عاناه

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

(فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[1].

ولم يكتف ﷺ بإبداء الإعجاب والرضا والابتسام.. فالرجل ما زال يلهث.. ويداه تنزفان وقدماه داميتان من صخور اليهود وأشواك حقولهم.. رَقَّ ﷺ لحاله وضياعه فقرر كسر هذا الطوق الذي يخنق أنفاس هذا المسكين فالتفت ﷺ إليه وقال: «كاتب يا سلمان»[2].. أي تعاقد مع سيدك اليهودي على شيء تقدمه له مقابل حريتك..

لم يكن لدى سلمان شيءٌ يقدمه.. لكن كلمات النبي ﷺ كانت نوافذَ مفتوحةً على الحرية والحرية.. نهض سلمان من بين المقابر وتوجه إلى ذلك اليهودي.. نهض سلمان وقد انتزع القلوب من حوله.. وغادر ونظرات الإشفاق والعطف تتابعه حتى اختفى..

ونهض النبي ﷺ وأصحابه وقد أثقلهم الحزن على صاحبيهم.

ولم يكتفِ ﷺ بالحزن على صاحبه الذي دفنه منذ قليل فأسعد بن زرارة ملء السمع والبصر وعائلته من بعده أصبحت بين حناياه ﷺ..

رحل أسعد بن زرارة وترك زهرتين صغيرتين.. هاهو ﷺ يمشي متوجهاً نحوهما في دار أبيهما أسعد.. نبي الله ﷺ يحمل في يده هدية جميلة لهاتين الصغيرتين.. إنها أقراط ذهبية مرصعة باللؤلؤ.. وليس هناك ما يدخل السعادة على الفتاة مثل الحلي والزينة..

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١/٣٨٥).

تحدثنا عن هذه الزيارة حفيدة لأسعد بن زرارة اسمها زينب فتقول:

(إن رسول الله ﷺ حلى أمها وخالتها -وكان أبوهما أسعد بن زرارة - أوصى بهما إلى رسول الله ﷺ فحلاهما رعاثاً من قبر ذهب فيه لؤلؤ)[1].. لبست الفتاتان تلك الأقراط وتزينتا به.. وبقي عندهما زمناً.. تقول زينب: (وقد أدركت الحلي أو بعضه)[2].. هدية من نبي رقيق المشاعر يحاول تخفيف اليتم والحزن عن أهل بيت من بيوت الأنصار الكريمة. نبي أهداه الله رحمةً وحناناً.. هاهو الغريب من جديد.. يعود بعد أيام.. سلمان

---

(١) سنده حسن. رواه الحاكم (٣/١٨٧)... محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمارة، عن زينب بنت نبيط قالت: وهذا الإسناد حسن من أجل محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم وشيخته هنا هي زينب بنت نبيط زوجة أنس بن مالك وقد أدركت هذا الحلي وعرفت قصته (انظر التهذيب ٩/٣٥٩) ويقول الحافظ في التقريب (٢/٦٠٠): يقال لها صحبة... وعلى أي حال فالحلي لأمها وخالتها وقد أدركته... وحاتم بن إسماعيل حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ١/٣٧) وهو من رجال الشيخين... وتلميذه من رجالهما وهو ثقة ثبت (التقريب ٢/١٢٣) أما محمد بن إسحاق بن إبراهيم فهو شيخ الإسلام الإمام الثقة صاحب المسند الكبير... وشيخ البخاري ومسلم في غير الصحيح (سير أعلام النبلاء ١٤/٣٨٨).

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم (٣/١٨٧)... محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمارة، عن زينب بنت نبيط قالت: وهذا الإسناد حسن من أجل محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم وشيخته هنا هي زينب بنت نبيط زوجة أنس بن مالك وقد أدركت هذا الحلي وعرفت قصته (انظر التهذيب ٩/٣٥٩) ويقول الحافظ في التقريب (٢/٦٠٠): يقال لها صحبة... وعلى أي حال فالحلي لأمها وخالتها وقد أدركته... وحاتم بن إسماعيل حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ١/٣٧) وهو من رجال الشيخين... وتلميذه من رجالهما وهو ثقة ثبت (التقريب ٢/١٢٣) أما محمد بن إسحاق بن إبراهيم فهو شيخ الإسلام الإمام الثقة صاحب المسند الكبير... وشيخ البخاري ومسلم في غير الصحيح (سير أعلام النبلاء ١٤/٣٨٨).

الفارسي يعود إلى رسول الله ﷺ.. ويقول: (كاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالقفير وأربعين أوقية)[1]..

فرح ﷺ بما سمع وهتف بأصحابه من حوله وقال لهم: «أعينوا أخاكم»)[2]..

امتثل الصحابة وتفرقوا يبحثون.. يفتشون عن شيء يزيلون به بقايا الظلم عن أخيهم الفارسي الذي تداولته السنون والشقاء و(تداوله بضعة عشر من رب إلى رب)[3] وقد آن الأوان أن يستريح بفيء الإسلام..

الصحابة اليوم حركة وعطاء إلا كبيرهم إلا أولهم إنه ليس في السوق.. وليس مع رسول الله ﷺ الذي يعود إلى بيته فيجد زوجته عائشة رضي الله عنها بانتظاره وهي قلقة على أبيها..

كانت تنتظر زوجها ﷺ لتستأذنه في الذهاب للاطمئنان على أبيها.. فماذا حدث للصديق الأكبر ماذا حدث لحبيبنا أبي بكر رضي الله عنه..

ماذا حدث لأبي بكر

لم يكن أبو بكر وحده يحتاج إلى الرعاية والمواساة.. بلال بن رباح كان مثله.. وعامر بن فهيرة أيضاً.. فقد (كانوا في بيت واحد)[4]..

وصل الخبر إلى عائشة فاستأذنت عائشة رسول الله ﷺ في عيادهم..

---

(١) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٢)هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٤٦).

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (حدثني هشام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها -انظر ما بعده - (ابن كثير ٢/٣١٦).

وعندما وصلت وجدت حمى المدينة الملتهبة تشتعل في أجسادهم.. وحمى المدينة شديدة فلقد (قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله)[1].

لكن الله يجعل من الضيق منافذاً وأبواباً.. ويجعل من المعاناة بشائراً ووعوداً.. قال ﷺ لأصحابه: «لا يصبر على لأواء المدينة وجهدها أحد إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً»[2].

ويقول لهم: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[2].

وما دامت الحمى من القدر فعلاجها من القدر أيضاً.. فالقدر يعالج بالقدر.. أرشد ﷺ أصحابه إلى الصبر.. وأرشدهم أيضاً إلى العلاج فقال:

«الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[2] «الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد»[2].

هذه هي حال الحمى فكيف كانت حال أبي بكر وصاحبيه رضي الله عنهم.. لقد كانوا مزيجاً من:

الحمى والحنين.. والشعر والهذيان

وصلت عائشة فكان حوارها معهم حنيناً.. وشعراً وهذياناً.. عائشة تحكي ما جرى في تلك الزيارة فتقول رضي الله عنها:

(لما قدم رسول الله ﷺ المدينة.. قدمها وهي أوبأ أرض الله من

---

(١) حديث قوي السند (رواه البيهقي ٢/٥٦٧): الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عاشة... الأصم إمام وثقة معروف وسماع شيخه للسيرة صحيح، ويونس بن بكير أحد رواه السيرة وهو حسن الحديث. (التقريب ٢/٣٨٤) وهشام ووالده لا يسأل عنهما وقد مرا معنا كثيراً.

(٢) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه.. فكان أبو بكر، و عامر بن فهيرة وبلال -موليا أبي بكر - في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم -وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك... فدنوت من أبي بكر فقلت:

كيف تجدك يا أبت؟.. فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول.. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟.. قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

فقلت: والله ما يدري ما يقول.. وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مِجنةً وهل يبدون لي شامة وطفيل)[1]

كان بلال يحترق من الحمى لكنه أشد احتراقاً بشوقه المستعر إلى مكة.. إلى سوق مجنة في أسفل مكة إلى جبلي شامة وطفيل اللذين يطلان كالحب على ذلك السوق.. كان يحن إلىمراتع الصبا بين تلك النبتات.. بين الإذخر والجليل.. ثم يزفر بأنفاسه الملتهبة بالحمى فيقول والحسرة في صدره:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٣١٦) وقد سبق الكلام عليه... وهو عند البخاري ومسلم أيضاً انظر ابن كثير (٢/٣١٧).

(اللهم العن عتبة بن ربيعة.. وشيبة بن ربيعة.. وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء)[1].

تأثر النبي ﷺ بهذا الشوق والحنين.. وأخذته الشفقة بأصحابه وبالمدينة التي تسكن قلبه عندما سمع شكوى حبيبته عائشة التي تقول:

(ذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهـذون ومـا يعقلون من شدة الحمى فقال ﷺ:

«اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة[2]»[3].

وفي ليلة من تلك الليالي المحمومة كان ﷺ في فراشه وعيناه نائمتان.. في تلك الليلة رأى شيئاً مخيفاً ومفرحاً في منامه.. فبشر به أصحابه وبشر به المدينة وقال:

(رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة.. فأولتها: أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة وهي الجحفة)[4].. وارتحل الوبـاء.. وارتحلت الحمى عن أبي بكر وبلال وعن عامر بن فهيرة ليعـودوا حـول رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار ويكحل عينيه بهم.. لكن تلك المجالس الطيبة تفتقد إلى أحد عظماء الأنصار.. ورسول الله ﷺ لا يعيش في أبـراج بعيداً عن أصحابه.. إنه منهم وبينهم يصافحهم ويبتسم في وجوههم.. يمشي في أسواقهم.. ويأكل من طعامهم.. ويزورهم في منازلهم.. ويسـأل عـن

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (سيرة ابن كثير ٢/٣١٥).

(٢) الجحفة.

(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٨).

غائبهم.. ويتفقد أحوالهم. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من الصحابة وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه فقال له النبي ﷺ: «تحبه؟» فقال:

يا رسول الله أحبك الله كما أحبه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال:

«ما لي لا أرى فلاناً».. فقالوا: يا رسول الله.. بنيه الذي رأيته هلك. فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بنيه، فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال ﷺ:

«يا فلان أيما كان أحب إليك: أن تمتع به عمرك.. أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: يانبي الله.. بل يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي، لهو أحب إلي. قال ﷺ: «فذاك لك». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله جعلني الله فداءك أله خاصة أو لكلنا؟ قال ﷺ: بل لكلكم)[1].

هذه القصة الحزينة الجميلة.. ما أجمل الحب والبراءة فيها.

ما أجمل الطفولة في مجلس النبي ﷺ.. وما أجمل هذا النبي وهو يسأل الرجل عن حبه.. وما أجمله وهو يحرضه على البوح بشيء من أعماقه.. وهو يعزيه.. وهو يعده بعينين بريئتين تتلهفان له عند باب الجنة.. هذه البشرى من عند الله ليست للرجال وحدهم.. وهذه العناية منه ﷺ ليست للرجال فقط.. يحدثنا صحابي آخر فيقول: (كان ﷺ يتعهد الأنصار، ويعودهم، ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مات ابنها وليس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعاً شديداً، فأتاها النبي ﷺ ومعه أصحابه،

---

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (١٦٢) وقد رواه النسائي وأحمد والحاكم.

فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل: يعزيها، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه بلغني أنك جزعت على ابنك فأمرها بتقوى الله وبالصبر»، فقالت: يا رسول الله.. ما لي لا أجزع وإني امرأة رقوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب: الذي يبقى ولدها»، ثم قال: «ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسبهم إلا أدخله الله بهم الجنة»، فقال عمر وهو عن يمين النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي.. واثنين؟ قال ﷺ: «واثنين»[1].

إذاً فالنبي ﷺ (كان يتعهد الأنصار، ويعودهم ويسأل عنهم)[2].

كان يتفقدهم رجالاً ونساءً.. أغنياء وفقراء.. كان يفرح معهم.. ويواسيهم في مصائبهم وأحزانهم.. كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة وهمومها..

هاهو يتهيأ للخروج.. سوف يعود مريضاً.. وهذه المرة لم يكن المريض رجلاً عادياً إنه أحد أبطال الأنصار وزعمائهم.. لقد سمع ﷺ بأن سعد بن عبادة يلازم فراشه فتحركت مشاعره نحو أخيه وحبيبه وتحركت دابته نحو هذا الأنصاري الكريم.. دعونا نمشي خلف رسول الله ﷺ فسوف يصادف في طريقه.

شجرةً غريبةً

رآها ﷺ في المدينة.. نبتة مشوهة تظهر لأول مرة.. أثارها غبار دابة

(١) سنده حسن على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجنائز (١٦٤) وقد عزاه للحاكم والبزار تبعاً للهيثمي.

(٢) سنده حسن على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجنائز (١٦٤) وقد عزاه للحاكم والبزار تبعاً للهيثمي.

رسول الله ﷺ المتجهة تحمل حباً نحو سعد بن عبادة.. أثارها ذلك الغبار فاهتزت وتطايرت أشواكها فجرحت مشاعر رسول الله ﷺ.. ما هـذه الشجرة.. وهل وصل ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة..؟ لا أحـد يسـتطيع وصف ما حدث مثل الطفل أسامة بن زيد حبيب رسول الله ﷺ فقد كان يركب خلف رسول الله ﷺ فوق تلك الدابة.. هاهو أسـامة.. يحـدثنا فيقول:

(إن رسول الله ﷺ ركب حماراً عليه إكاف[١] على قطيفة فدكية[٢].. وأردف أسامة بن زيد وراءه.. يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بـن الخزرج قبل وقعة بدر.. حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سـلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسـلمين.. ومن المشركين عبدة الأوثان.. واليهود، وفي المسـلمين عبـد الله بـن رواحة.. فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[٣]، خمَّر[٤] ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا.

فسلم رسول الله ﷺ.. ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل.. وقرأ عليهم القرآن..

فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقـول إن كان حقاً.. فلا تؤذنا به في مجالسنا.. ارجع إلى رحلـك فمـن جـاءك فاقصص عليه..

---

(١) سرج الحمار.

(٢) نسبة إلى فدك وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.

(٣) غبارها.

(٤) غطى.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله.. فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك.. واستب المسلمون والمشركون.. واليهود.. حتى كادوا يتثاورون[1]..

فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.. ثم ركب رسول الله ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة.. فقال له رسول الله ﷺ:

«أيا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي..؟» قال: كذا- وكذا.. قال سعد بن عبادة:

يا رسول الله اعف عنه واصفح.. فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك.. ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[2] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة[3]، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت..

فعفا عنه رسول الله ﷺ.. وكان وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمره الله عز وجل ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾[5].

---

(١) يتواثبون للقتال.

(٢) أي القرية أي المدينة المنورة.

(٣) أي يجعلوه زعيماً للأوس والخزرج.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة.

وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله عز وجل به..)[1].

لأنه ظل وارف للجميع.. حتى لهؤلاء المشركين واليهود.. ولولا ذلك لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس.. وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول ابن أُبي إلى كهفٍ للأصنام والمشركين وكهفٍ لليهود.. لقد تحول إلى كهفٍ لمشروعٍ يحاكُ في الظلام لتقويض هذه الدولة الجديدة..

عبد الله بن أبي لم يتأذَ من غبار الدابة.. ولم يخمر أنفه من أجل سلامة رئتيه.. فهو ليس غريباً على الغبار.. والغبار ليس بغريب عليه.. لكنه خمر عقله وقلبه عن الحقيقة..

هو يضيق براكب الدابة وبكل ما يفعله ويقوله.. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها نبي الله ﷺ على كل بيت.. إنه يرى نكسته في فرح الرجال والنساء وابتسامات الأطفال وهم يلتصقون برسول الله ﷺ.

لا أدري ما هو مصير المدينة لو توج عبد الله بن أبي بن سلول.. وإلى أي قاع سوف يرسو بها.. إن زعامة عبد الله بن أبي ليست -في حالة نجاحها- سوى تأجيل لوقت انفجار قنبلة موقوتة فالجاهلية هي الجاهلية.. والثأر لا يطفئه سوى الثأر ما دامت الأصنام رابضة في البيوت والأندية..

عبد الله بن أُبي بن سلول المشرك ضاق بهؤلاء الأضياف المهاجرين.. وطار صوابه لهذا الكرم الأنصاري.. لقد فقد صداقاته وزعامته.. فقومه يحبونهم أكثر مما يحبونه.. إنهم يلتقون في ذلك المسجد خمس مرات في اليوم.. كيف ذلك.. أليس من سبيل إلى استعادة أحد منهم.. أو شيءٍ منهم.. أليس من سبيل إلى إعادة هؤلاء المهاجرين وطردهم مع نبيهم من

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٥٦٦).

المدينة... أليس من سبيل إلى تشريدهم خلف جبال المدينة..؟ المدينة تقول: لا يا ابن أبي بن سلول.. ليس هناك من سبيل.. فلقد تغيّر أصحابك.. غيّرهم نبي الله.. وغيّر نفوسهم.. وغيّر بلدتك وغيّر اسمها.. وإن لم تكن تحتمل هذا التغيير وهذا الحب الذي تكرهه فاذهب إلى دار أنس بن مالك لتنظر ماذا يفعل نبي الله ﷺ.. وماذا يفعل معه المهاجرون والأنصار.. اذهب إلى دار أنس بن مالك فهناك أمرٌ خطير لا أظنك سوف تحتمله.

ماذا يحدث في دار أنس

نبي الله ﷺ الآن في دار أنس.. والمهاجرون والأنصار من حوله يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوانحهم.. يتطلعون إلى هديةٍ للجميع.. هاهو أنس بن مالك بين المهاجرين والأنصار.. سألناه:

ما الذي يحدث في داركم يا أنس؟ أخبرنا.. أجاب أنس إجابة كالعيد فقال: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا)(١) يا الله.. ما أروعه من خبر.. هنيئاً للدنيا..

هنيئاً لك يا أنس.. وهنيئاً لداركم..

هاهم الصحابة يخرجون من الدار.. وقد صاروا أخوة.. فوق أخوة الإسلام.. فالمسلم أخو المسلم.. لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل.. ولن تحدث من بعد.. إنها غيمة وحي.. أمطرتهم حباً ثم ارتحلت و لم تمطر أحداً سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة وهو يحدثنا عنها فيقول:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأحمد واللفظ لأحمد (٣/١١١).

(كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)[1] لقد آخى ﷺ بين صحابته.. فماهت الأرواح بالأرواح..

هاهو أبو عبيدة يمسك بيد أخيه.. نسأل أنساً مرة أخرى فيجيب أن رسول الله ﷺ قد (آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة)[2].

ونسأل أنساً رضي الله عنه: من هذا الذي يلح ويلح على عبد الرحمن ابن عوف فيقول رضي الله عنه:

(إن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري.. فقال له سعد:

أي أخي.. أنا أكثر أهل المدينة مالاً.. فانظر شطر مالي فخذه.. وتحتي امرأتان.. فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها.

فقال عبد الرحمن:

بارك الله لك في أهلك ومالك.. دلوني على السوق.. فدلوه.. فذهب.. فاشترى وباع فربح.. فجاء بشيء من أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث.. فجاء وعليه ودع زعفران.. فقال رسول الله ﷺ: «مهيم؟» فقال:

يا رسول الله تزوجت امرأة.. قال ﷺ: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب.. قال ﷺ: أَوْلِمْ ولو شاة.

قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

(٣) سنده صحيح. رواه الإمام أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٢٧) حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وحميد عن أنس، عفان بن مسلم ثقة ثبت من رجال الشيخين (التقريب =

إن أخوة النسب تركض وتركض.. وتلهث وتتعب فـــلا تســـتطيع الإمساك بما أمسكت به أخوة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيـــع.. لقد حولت دار أنسٍ سعد بن الربيع ربيعاً يتقلب فيه عبد الـــرحمن بـــن عوف.. ربيعاً أنصارياً.. يتنقل فيه عبد الرحمن ويسافر فـــلا يجـــد لـــه حدوداً.. يبحث عن أطرافه فلا يرى سوى الربيع أينما حل.. أينما اتجه..

وعندما يحاصره هذا الكرم يتوجه بقلب المتيم المأخوذ إلى رسول الله ﷺ يشتكي من هذا الحب.. ومن هذا الكرم.. يتوجه هو والمهاجرون..

ويقول هو و (المهاجرون: يا رسول الله:

يارسول الله.. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل.. ولا أحسن بذلاً من كثير.. لقد كفونا المؤونة.. وأشركونا في المهنأ.. حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.. قال ﷺ:

«لا.. ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[1].

يحق للمهاجرين أن يشتكوا... ويحق لهم أن يحتاروا فلقد تساءلت الدنيا: من هؤلاء الهاربين الهائمين.. المشردين.. من ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾[2].

٢/٢٥) وحماد وشيخاه أئمة ثقات معروفون. وهو عند البخاري دون قول عبد الرحمن في آخر الحديث (٥٠٧٢).

(١) سنده ثلاثي صحيح. رواه الإمام أحمد (ابن كثير ٢/٣٢٨) حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد من رجال الشيخين (التقريب ٢/٣٧٢) وشيخه حميد ابن أبي حميد الطويل وهو تابعي ثقة سمع من أنس بن مالك. التقريب (١/٢٠٢).

(٢) سورة الحشر: الآية ٨.

فأجابت طيبة.. وأجابت الأنصار.. وتسابقت الأيدي إلى أحبابها المهاجرين.. وأشرعت الأبواب.. لم يكن هناك ازدحام من المهاجرين على أبواب إخوانهم الأنصار.. لكن كان هناك ازدحام بين القلوب الأنصارية على أحبابهم المهاجرين.. كانت الأنصار أمواجاً من الرحمة تغمر إخوانهم المهاجرين وتنعشهم بعد طول مسير وطول حرمان وعذاب.. حتى لقد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[1].. أي حب هذا.. كانت أيدي الطواغيت تتخطفهم بالسياط واللكمات.. وهذه هي الأيدي المتوضئة تمسح آثار السياط وتمسح الدموع والجراح وتحمل هؤلاء الغرباء إلى حيث الرحب والسعة.. الفقراء من الأنصار كانوا أسرع من الأغنياء ينافسونهم ويطلبون القرعة أيضاً.. فالحب والكرم ليس حكراً على أحد.. فالصدور أفسح من المنازل.. والكلمات ألذ من أطايب الطعام.. والشهادة تنزل من فوق سبع سماوات.. شرفاً للأنصار يفخرون وأبناؤهم بحمله.. الشهادة لهم لم تأت من بيت شعر مدفوع الثمن.. أو خطبة من فصيح يبتغي بها قربى.. الشهادة جاءت من أكرم الأكرمين.. من خالق الكرماء ومعطي الأغنياء.. آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو[2] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[3].. المرء يُمدح إذا كان كريماً.. ويُمدح أكثر إذا كان يقدم للآخرين كل ما عنده.. لكن أن يكون محتاجاً أشد الحاجة فيقدم للآخرين حاجته الملحة فذلك كرم

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وهذا جزء منه.ومعنى اقترعت أي قاموا بإجراء القرعة لشدة تنافسهم في إكرام المهاجرين وإسكانهم.

(٢) سكنوا.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

انتزعه الأنصار.. وهذا أحدهم.. يشهد له الله.. يشهد له سراجه.. وهذه امرأة أنصارية سخية يشهد لها الله.. ويشهد لها سراجها.. في ليلة جاع رسول الله ﷺ فيها وجاعت عائشة وجاعت سودة.. ولم يكن في تلك الحجرات الكريمة سوى قطرات من الماء تعكس لمعان النجوم وكرم الأنصار مع ذلك القادم من بعيد.. تلك الليلة تقول لنا: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه.. فقلن: ما معنا إلا الماء.. فقال رسول الله ﷺ: «من يضم.. أو يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا.. فانطلق به إلى امرأته.. فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني.. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي[1] سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها ثم قامت كأنها تصلح سراجها.. فأطفأته.. فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين.. فلما أصبحا غدا إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ:

ضحك الله الليلة.. أو عجب[2] من فعالكما:

فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3])[4].

ضحك الله وعجب من بيت من بيوت الأنصار ليس فيه سوى طعام الصغار.. ليس فيه سوى الإيمان والكرم.. أي شيء حزته أيها الأنصاري

---

(١) أي أوقدي مصباحك وأشعليه.

(٢) ضحك الله وعجب ضحكاً وعجباً يليق بجلال الله وعظمته ليس كضحك المخلوق ولا كعجب المخلوق وليس كمثله شيء... نؤمن به ونسلم كما جاء من عند الله ورسوله وصدق الله ورسوله... فالله ليس كمخلوقاته وصفاته ليست كصفات مخلوقاته.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

أنت وزوجتك الكريمة.. أي شيء فعلتماه بأخيكما المسكين.. أي كرم كان هناك عندما ردد الأنصار يا رسول الله.. (اقسم بيننا وبينهم النخل)[1].. عرق السنين.. وحصاد العمر والجهد يبذله الأنصار كالماء البارد كالبسمة العذبة لإخوانهم المهاجرين.. من يلوم الدنيا في حب الأنصار.. من يلوم المهاجرين في حب الأنصار.. من يلومه ﷺ عندما يعلن حبه للأنصار على الطرقات.. على النساء.. وعلى أطفال كالزهور (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال:

«والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي...

والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي»)[2].

يا طيبة.. يا عاشقة الأنبياء والمرسلين.. يا حاضنة الوحي والمهاجرين.. يا أرض الأناشيد والنخيل.. حاصرت القادمين بحبك حتى استسلموا فأعلنوه متفجراً من أعماقهم.. هاهو ﷺ ذات يوم جميل كان فيه جالساً على دروب أطفال الأنصار فلم يصبر.. قام معلناً حبه.. حباً رآه أنس ورواه فقال:

(رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين -حسبت أنه قال من عرس[3] - فقام النبي ﷺ ممثلاً[4] فقال:

«اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

---

(١)حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٦).

(٢)حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٥).

(٣) الذي قال: حسبت ليس أنس ولكنه أحد الرواة عنه.

(٤) أي مكلفاً نفسه... وجاء في رواية (ممتناً).

اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي»[1].

إن بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه.. وإنهم والله ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم.. ولم يفعله أحد بعدهم.. لقد تمادى حب الأنصار وتجاوز الكرم.. لقد تمادوا إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[2].. تألق الأنصار فأوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها.. ثم تركوها تنطلق للأجيال.. أوقفوا شمس التاريخ عندما توجهوا إليه ﷺ بقلوب كالسحاب فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[3] لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي.. ولا يحب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود.. أدرك الأنصار ذلك فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر.. قالوا: سمعنا وأطعنا)[4].

وبدأ المهاجرون بالعمل.. وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف.. وبدأ المهاجرون والأنصار صفاً واحداً.. صفاً يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يبتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوباً يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً..

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٢٩) بلفظ: قرعت.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

(٤)حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

الفهرس